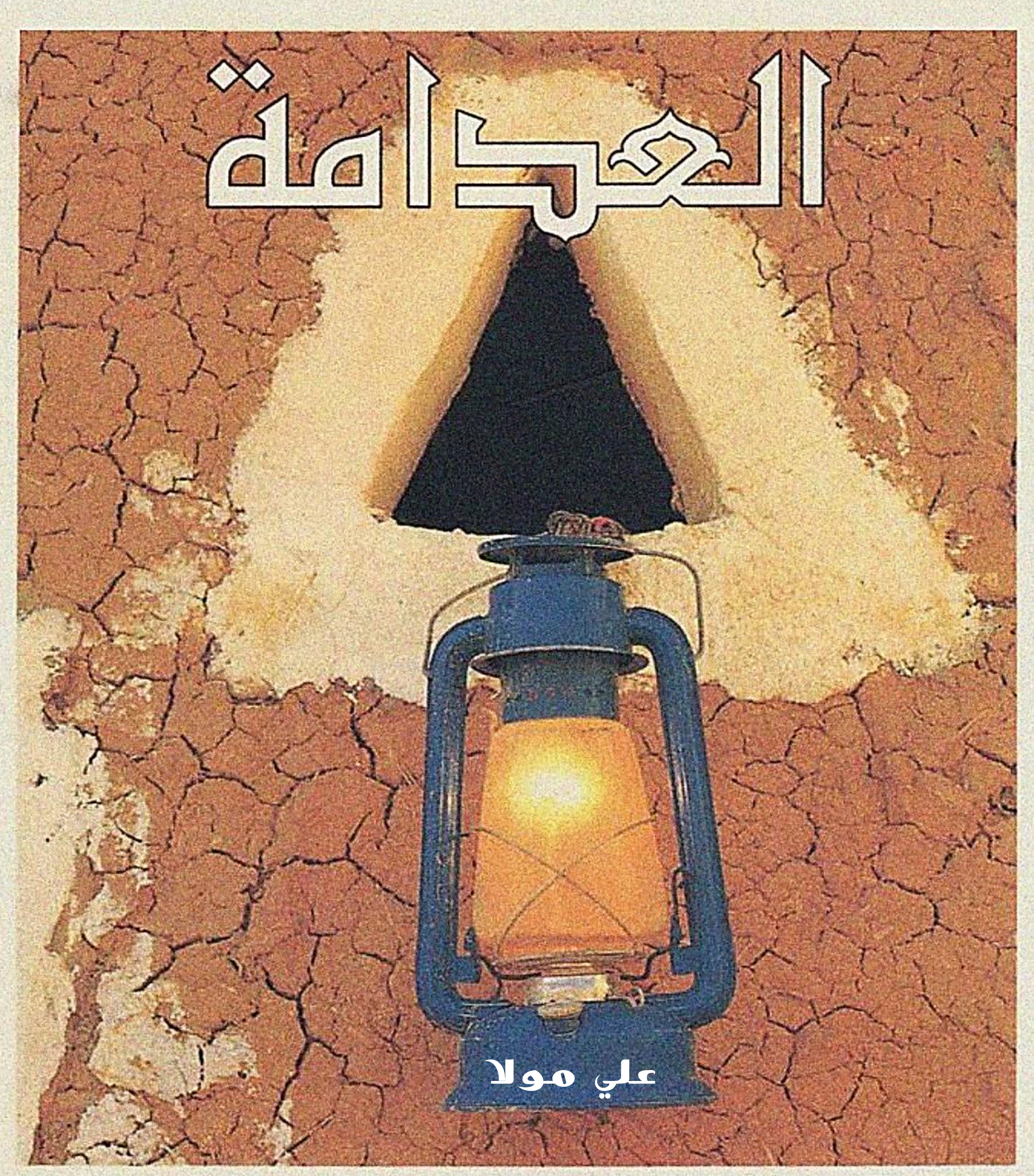
الطبعة الرابعة

أطياف الأزقة المهجورة

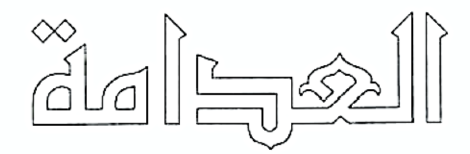
تركي الحَمَد



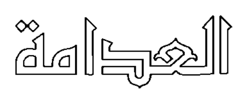
دار الساقي

أطياف الأزقة المهجورة

تركي الحمد






العمامة

صدر للمؤلف عن «دار الساقي»

جروح الذاكرة (رواية)

شرق الوادي (رواية)

الشميسي (رواية)

الكراديب (رواية)

الثقافة العربية أمام تحديات التغيير

الثقافة العربية في عصر العولمة

السياسة بين الحلال والحرام

ويبقى التاريخ مفتوحاً

صورة الغلاف: صالح العزاز

الطبعة الأولى ١٩٩٧
الطبعة الثانية ١٩٩٨
الطبعة الثالثة ٢٠٠٠
الطبعة الرابعة ٢٠٠٣

ISBN 1 85516 376 4

دار الساقي

بناية تابت، شارع أمين منيمنة (نزلة السارولا)، الحمراء، ص.ب: ١١٣/٥٣٤٢ بيروت، لبنان
الرمز البريدي: ٦١١٤ ـ ٢٠٣٣
هاتف: ٣٤٧٤٤٢ (٠١)، فاكس: ٧٣٧٢٥٦ (٠١)
e-mail: alsaqi@cyberia.net.lb

DAR AL SAQI
London Office: 26 Westbourne Grove, London W2 5RH
Tel: 020-7221 9347; Fax: 020-7229 7492

إهـداء

إلى ذكرى طارق...

زهرة كانت تتفتح

ذهبت الزهرة... وبقي الأريج

- ١ -

بدأت مباني الرياض تلوح في الأفق من خلال نافذة القطار القادم من الدمّام، وذلك مثل حلم عديم الملامح في قيلولة يوم من أيام الصيف. لقد تضافر سراب ذلك اليوم من آب، مع عواصف الرمل التي تثيرها أنفاس جنّ الدهناء، لتجعل الرياض تبدو من بعيد وكأنها طلسم من طلاسم شهرزاد وعفاريت سليمان وسيف بن ذي يزن. عفريت من تلك العفاريت التي تظهر فجأة وتختفي خلسة، وطلسم يقول الكثير ولا يقول شيئاً على الإطلاق، وحكاية جزيرة من جزر السندباد وبركة الملك المسحور.

أخذ الضجيج يعلو والحركة تتسارع من جراء هرج ومرج الركاب الذين أخذوا يلملمون أنفسهم وأشياءهم استعداداً للمغادرة، وذلك في سباق محموم يعتقد من يراهم أن كل دقيقة مهمة في حياتهم، مع أن كل الحياة لا تعني شيئاً لأكثرهم، ولعل طول المسافة بين الدمام والرياض، وتلك الساعات السبع من الانتظار الممل في علبة صفيح ساخن تخترق الصحراء، جعلتهم في حال من الإثارة لمجرد الإحساس بقرب الخروج من القمقم المسحور.

كان الجميع في حال من الفوضى لا تهدأ، بين ضحكة هنا وصرخة هناك. فهذا يتفقّد أطفاله لأول مرة منذ أن استقلّ القطار، ويصرخ على زوجته مؤنّباً، وذاك يلملم أشياءه، وهذه تصلح من شأنها وتتأكد من وضع العباءة والخمار وضعاً سليماً، وتلك تتفقّد حقيبة يدها، إلا هو... بقي قابعاً في مقعده، ينظر من النافذة إلى ذرّات الغبار المتصاعدة من أنوف جن الصحراء، سارحاً في كل شيء ولا شيء، وكأن كل شيء لا يعنيه. شخص مثله مثل أي شخص آخر، إلا أن صدره يعتمل بأشياء لا يعتمل بها صدر شخص آخر. شاب في الثامنة عشرة من العمر، نحيف البنية، معتدل القامة أميل إلى القصر، قمحي اللون أميل إلى البياض، بشارب محلوق لتوّه، وأسنان ناصعة البياض في فم صغير وشفتان رقيقتان ورديتان، وأنف مستقيم، وجبين واسع، وشعر مسترسل طويل شديد السواد، لم تفلح الغترة والطاقية في إخفائه تماماً، وعينان واسعتان بأهداب طويلة تنظران من خلال نظارة طبية، إلى كل شيء، دون أن تهتمّا بأي شيء، يعلوهما حاجبان كثيفان، وذقن شديد الدقّة، وكل ذلك في وجه مثلث الأبعاد. تجمعت هذه الأوصاف لتشكل ذلك الشخص الذي خرج إلى الدنيا فوجدهم يدعونه «هشام إبراهيم العابر».

- ٢ -

كان القطار يقترب من محطة الرياض، وأخذ الناس يتزاحمون عند الأبواب، وبقي هو قابعاً في مقعده سارحاً في مكان بلا حدود وزمان بلا قيود. لقد أتمّ لتوه الدراسة الثانوية وحصل على الشهادة التوجيهية دون

تفوّق يذكر، ودون أن يكون من الأواخر أيضاً، رغم شدّة ذكائه وعظيم ثقافته، بشهادة الجميع، بالرغم من صغر سنّه. لقد خرج إلى الدنيا وهو لا يعرف إلا هواية واحدة ولذة واحدة هي القراءة. يقرأ أي شيء وكل شيء تقع عليه يده. تفوق بشكل ملحوظ خلال سنوات الدراسة الابتدائية والمتوسطة، حتى أنهم نقلوه من الصف الثالث إلى الصف الرابع الابتدائي مباشرة اعترافاً بتفوّقه. وقد كان ذلك مصدر فخر لوالديه، وخاصة والده الذي لم يكن له حديث إلا عن ابنه الوحيد وتفوّقه وتقدمه، مما كان يغيظ بعض جلسائه الذين لم يكن أبناؤهم بالمستوى نفسه. ورغم ذلك، كان الجميع في قرارة أنفسهم يشهدون له بالتفوق والمستقبل المشرق. وعندما وصل إلى المرحلة الثانوية، أخذت القراءات الفلسفية والسياسية تجذبه كثيراً، منذ أن أهداه أحد أصدقاء والده كتاب «طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد» لعبد الرحمٰن الكواكبي، حتى أنه كان يقضي ليالي بطولها في قراءة النصوص الماركسية والقومية والوجودية وغيرها من التيارات الفلسفية والسياسية مما تقع عليه يده في المكتبات المحلية، أو يحصل عليه مما هو غير متاح في المكتبات. وعندما كانت والدته تفتح عليه باب غرفته في «أنصاف الليالي» وتراه غارقاً بين الكتب، تبتسم تلك الابتسامة العذبة الحنون وتقول له: «يكفي دراسة يا بني، أرح نفسك قليلاً»، ظانّة أنه يذاكر مقرّراته المدرسية، فيبتسم لها بمودة خالصة وهو يقول: «بعد قليل يا أمي... هذه الصفحات القليلة وأنتهي»، فتبتسم أمه من جديد، وتغلق الباب وراءها وهي تدعو له، ولكنها لا تلبث أن تعود وقد حملت كوباً من الحليب الساخن، واضعة إياه على المكتب الصغير، مصرّة على موقفها من وجوب الراحة وهي تقول: «اشرب هذا الحليب وسيداعب النوم أجفانك بعد لحظات». يبتسم

ابتسامة المستسلم قائلاً: «وهل أستطيع أن أخالف لك أمراً»، ولكن الأم تصر على البقاء حتى يشرب الحليب أمامها، يرضخ للأمر ويشربه بسرعة، فتغادر المكان وهي واثقة من أن النوم سوف يغزوه عاجلاً. ولكنه يستمرّ في قراءة «قصة الفلسفة» مبهوراً، ومفكّراً بكل هذا الزخم من الأفكار والرجال، مما يجعل الكتاب أطول وأطول، ولا ينتبه إلى نفسه ويفيق من تفكيره، إلا على صوت المؤذن داعياً إلى صلاة الفجر.

ـ ٣ ـ

ويأخذ القطار في ولوج المحطة، ويزداد الزحام ويعلو الضجيج أكثر، وتنتشر في الجو رائحة الأجساد البشرية المتراصّة، ممتزجة بذلك الغبار الدقيق الذي لا تجده في غير الرياض، ويتعالىٰ صراخ الأطفال، وصياح الرجال، وتأفف النساء من هذا الزحام الذي لا يحترم حجاباً، ولا يقيم اعتباراً لحرمة الأجساد. ورغم كل ذلك، فقد كان هشام يبدو وكأنه خارج ما يجري...

في المرحلة الثانوية، أهمل الدراسة إهمالاً تامّاً، ولولا خشيته من جرح كبرياء والده وقلب أمه، لما درس إطلاقاً، وتفرغ لعالمه الجديد من القراءة واكتشاف النصوص المحرمة. غير أنه كان يضغط على نفسه شهراً أو شهرين قبل الامتحانات النهائية، فيستوعب ما تراكم من مقرّرات مدرسية استيعاباً جزئياً يجعله قادراً على اجتياز الامتحانات بصعوبة. لم يكن اجتيازاً مميّزاً، كما كانت عادته في السابق، ولكنه شيء يحفظ ماء الوجه أمام والديه والآخرين، ويحافظ على كبرياء الأب وقلب الأم. كان الوالدان مستغربين من تدنّي مستوى ابنهما الدراسي، رغم قراءته الدائمة

وانكبابه على الدرس، مع شيء من الألم الدفين، ولكنه أفضل من الرسوب على أيّة حال، ومن ثم الوقوع في الإحراج أمام الآخرين، وتحطم القلب والكبرياء، وهو ما لم يكن يخطر لهما على بال. ناقشه والده ذات مرة عن سبب هذا التراجع، فأجاب بمبرّرات وأعذار واهية. أدرك والده هشاشة ما يقول، وأدرك هو أن والده مدرك لذلك، ولكن الوالد صمت على مضض، مرجعاً الأمور إلى التغيرات التي ترافق هذه السن الحرجة، سن العبور من براءة الطفولة إلى عنفوان الصبا، ولم يجد غير الدعاء لوحيده بالتوفيق والهداية والنجاح.

وفي المدرسة الثانوية، عشق مادة التاريخ بصفة خاصة، وتعلق بمدرس التاريخ الشاب القادم لتوه من أميركا، رشيد الخطار، بكل الحماس وكل النشاط الذي يعتمل في صدر شاب يريد أن يفعل شيئاً. وبقي هذا المدرس في ذاكرته لسنوات طويلة قادمة، محاطاً بهالة من الاحترام والمثالية لم يحظ بهما أحد غيره، رغم أنه لم يلبث في المدرسة إلا سنة دراسية واحدة، غادر بعدها إلى إحدى إمارات الخليج، حيث استقر وأصبح مواطناً هناك. وكانت أكبر صدمة تلقاها في حياته هي عندما علم بانتحار هذا المدرس في أعقاب دخول القوات الإسرائيلية إلى بيروت عام ١٩٨٢، أي بعد أربعة عشر عاماً من آخر لقاء تمّ بينهما، وكان رشيد يومئذ سفيراً لدولته الجديدة في إحدى الدول الأوروبية.

عشق مادة التاريخ، وهام إعجاباً بالمدرس، الذي بادله إعجاباً بإعجاب، وحباً بحب. عشق تلك الدروس التي تتحدث عن الثورة الصناعية، والثورة الفرنسية، والحروب النابليونية. عشق تاريخ صراعات الفكر في أوروبا وانعكاس ذلك على العالم العربي بعد الحملة الفرنسية على مصر، وأثر ذلك على الفكر والعقل والسياسة. عشق صراعات

الفكر والسياسة، ولم يكتفِ بما يقوله مقرّر التاريخ الرسمي، بل أخذ يبحث عن الكتب التي تتحدث في هذه الأمور في كل مكان، حتى أصبح شخصاً معروفاً في تلك المكتبات القليلة في الدمام. وكان الأستاذ رشيد يزوّده ببعض الكتب التي تتوفر لديه حول التيارات السياسية والفكرية. ولم تعد الكتب المتوفرة في المكتبات المحلية ترضي شغفه بالعالم الجديد الذي اكتشف، فكان في كل رحلة مع والديه إلى الدول المجاورة، الأردن أو سوريا ولبنان، يجلب معه بعضاً من تلك الكتب الممنوعة والمحرمة، والتي تكون زاده المعرفي طوال الفترة اللاحقة. لم يكن أحد تلك الأيام قد سمع بلندن أو باريس أو نيويورك، وقليلون هم من يذهبون إلى القاهرة، التي كانت شيئاً أقرب إلى الحلم والخيال والمثال، بغداد الرشيد أو دمشق عبد الملك، وليست مجرد مكان جغرافي. قاهرة تلك الأيام كانت عاصمة العرب ومهوى الفؤاد في الفكر والأدب والسياسة والمجتمع.

ما يضايقه الآن حين يجترّ كل تلك الذكريات، هو إحساسه المؤلم بخداعه لوالديه في تلك الرحلات. فقد كان ينفق كل مصروفه على الكتب الماركسية غير المتاحة في بلده، وخاصة مؤلفات آرنستو تشي غيفارا، وريجس دوبريه، وفرانز فانون، بالإضافة إلى مؤلفات ماركس وانجلز وبليخانوف ولينين وتروتسكي وستالين، التي تشكل الزاد الفكري الرئيسي. أمّا ما كان يهزه من الداخل فعلاً، فقد كانت مؤلفات غيفارا التي كانت تدغدغ شيئاً ما داخل ذاته. كانت هذه الكتب، بالإضافة إلى الأعمال الأدبية والروائية العالمية الخالدة، تباع بأرخص الأسعار على أرصفة الشوارع في عمان ودمشق وبيروت، وعلى عربات أشبه بعربات الخضار. التهم خلال رحلاته، وبعد العودة، كل روايات مكسيم غوركي

خاصة، وأهم الروايات الخالدة في الأدب الروسي عامة. قرأ «آنا كرنينا» و «البعث» لليو تولستوي، و «الجريمة والعقاب» و «الأخوة كارامازوف» لفيدور دوستويفسكي، و «الدون الهادىء» لميخائيل تشولوكوف. وقد أثارت فيه رواية «الأم» لغوركي أحاسيس وانفعالات عنيفة متداخلة، من الغضب إلى الحماس إلى البكاء إلى العطف إلى القسوة إلى الرقّة، مما جعله يعيد قراءتها مرات ومرات. بكى عدة مرات مع العم توم في كوخه، وعاش مع وانغ لانغ وزوجته في أرضهما الطيبة، وتعاطف كثيراً مع مدام بوفاري بنفس القدر الذي حنق فيه على سكارليت أوهايرا. وكان يختلس لحظات طويلة يقرأ فيها ألبرتو مورافيا وبلزاك واميل زولا، لا حباً في ذات هذه الأعمال دائماً، ولكن بحثاً عن مشهد جنسي هنا، أو وصف لعلاقة حميمة هناك، ويتصور في لحظة حلم يقظة أنه البطل في كل هذه العلاقات. أما ذلك الوصف الأخّاذ للحياة الاجتماعية في هذه الأعمال، فلم يكن يهمه كثيراً، إذ كان يعتقد أن الأدب الروسي لا يعلى عليه في هذا المجال. كما قرأ بعض روايات تشارلز ديكنز، وأعجبته خاصة «قصة مدينتين»، التي اعتبرها، مع «الأم» أفضل أعمال يمكن كتابتها.

كان ينفق مصروفه على هذه الكتب، ومبالغ أخرى لم يكن والداه يبخلان بها عليه، وحين يأتي وقت العودة إلى الدمام، كان يجمع هذه الكتب، موهماً والديه أنها كتب ضرورية للدراسة والنجاح بتفوق، فكانا بكل حب وإعجاب، يساعدان على إدخال هذه الكتب، غير عالمين بما فيها من فكر متفجر. وبقدر ما كان ذلك يسعده، كان في الوقت ذاته يشعر بالخسّة والنذالة، إذ وبكل المعايير هو مخادع كاذب، يحسّ بذلك في أعماق ذاته. ويزيد إحساسه المؤلم بالخسّة عندما يتذكر أنه يمارس

ذلك على أحب الناس وأقربهم إليه، أمه وأبيه. ولكنه يحاول بعض الأحيان إقناع نفسه أن ما يقوم به ليس كذباً أو خداعاً، فهذه الكتب هي فكر وثقافة ودرس، وإن لم يكن ذلك ضمن مقرّرات مدرسية لا تطفىء عطشاً، ولا تروي غليلاً.

ـ ٤ ـ

دفعته قراءاته الجديدة إلى عالم واسع من الإثارة والحماس. دفعته إلى ميادين فسيحة، وأصبح كل العالم مناط اهتمامه دون حدود أو قيود. أصبح مفعماً بروح جديدة تسعى إلى جعل هذا العالم جنّة أرضية. يعيش فيها الكل سعيداً دون ظلم أو إجحاف، بكل عدل ومساواة وإنصاف. لقد أصبح كل العالم وطنه الجديد، وأصبحت مدينته مجرد نقطة في بحر العالم، وتحول بلده إلى مجرد جزء من الإنسانية التي يجب أن ينتمي إليها الإنسان الحق. تحول إلى فتىً متحمّس ومندفع في سلوكه، وهو الذي لم يعرف عنه سابقاً إلا الهدوء والعزلة، إلا من بعض رهط صغير من الأصحاب. أصبح مشاركاً مستديماً في النقاشات السياسية والفكرية المستعرة بين الطلاب في المدرسة، متحزّباً لهذا الجانب أو ذاك دون أن يكون عضواً في أيٍّ من الأحزاب. وقد كانت المدرسة نموذجاً لما يموج به العالم العربي من تيارات فكرية وسياسية. كان هناك ماركسيون وبعثيون وقوميون عرب وناصريون، يتناقشون ويتصارعون علناً. كان البعثي من الطلاب يمر بآخر معروف بشيوعيّته، فيصيح في وجهه «أحمر»، فيرد عليه الآخر قائلاً «عفلق»، وكأن أحدهم يشتم الآخر بذلك. يذكر ذات مرة أنه دخل في مجادلة مع مدرس الدين حول نظرية

النشوء والارتقاء لدارون، حين شتم هذا المدرس النظرية واصفاً إياها بالكفر والإلحاد، وشتم صاحبها واصفاً إياه باليهودية والمؤامرة اليهودية على الإسلام والمسلمين. يذكر يومها أنه قال للمدرس إن هذه النظرية إنتاج علمي، والعلم هو سيد العصر شئنا أم أبينا. قد يخطىء دارون وقد يصيب بشأن أصل الإنسان وأصل الأنواع، ولكن التطوّر حقيقة تفرض نفسها، كما أن دارون ليس يهودياً لا أباً ولا أمّاً. يومها اتخذ منه مدرس الدين موقفاً عدائياً، وأصبح لا يناديه إلا بالفاسق. ولكن ذلك لم يكن يهمه كثيراً، بل لم يكن يهمه على الإطلاق، مع ذلك الحماس وذلك الإنطلاق الذي وجده في عالمه الجديد.

بعد تلك المناقشة مع مدرس الدين، أصبح من مشاهير المدرسة، وخاصة بعد أن استدعاه مدير المدرسة ذات يوم وهدده برفع تقرير عنه إلى الجهات العليا، بتهمة المروق من الدين إن هو لم يرتدع، وارتدع إلى حين. أصبح من المشاهير، وأصبح مثار إهتمام الطلبة، وبعض الأساتذة اليساريين. أراد كل فريق ضمّه إلى جانبه في صراع التيارات والمذاهب، في مدرسة لا بدّ لطلابها من الانضمام إلى هذا التيار أو ذاك.

وأخذ يكتب بحماس في جرائد المدرسة الحائطية، مقالات ملتهبة بالنقد، داعية إلى كل حلّ جذري، وذلك بقدر ما تسمح به الظروف. وقد استدعاه المدير مرة أخرى بعد أن ظهرت له مقالتان في جريدتين من الجرائد الحائطية، إحداهما محسوبة على الشيوعيين، والأخرى على البعثيين، وكان ذلك معلوماً للجميع دون تصريح. كانت المقالة الأولى حول نكسة حزيران ١٩٦٧، وأسبابها ودور القوى الغربية في الحرب إلى جانب إسرائيل، للقضاء على القوى التقدمية في المنطقة، فالهدف من

الحرب كان القضاء على أي محاولة نهضوية للأمة العربية. وكانت المقالة الثانية حول المدرسين الإنكليز في المدرسة وسلوكهم غير الحضاري رغم أنهم جاؤوا، وفق زعمهم، لتعليم الحضارة والثقافة. واستدعاه المدير للمرة الثانية، ودون أن يسأله أي سؤال، فتح درج مكتبه وأخرج منه مجموعة من الأوراق ألقاها على المكتب أمامه وهو يقول، بصوت حاول أن يكون هادئاً وصارماً: «هذه مجموعة من المنشورات وزّعت اليوم في المدرسة، إنها تدعو إلى معارضة الدولة، وهي موقعة باسم «الجبهة الديموقراطية»، وصمت المدير لبرهة وهو يراقب هشام لمعرفة أثر هذا الخبر عليه. فلما وجده صامتاً وأن الأمر لا يعنيه، أضاف قائلاً: «إن أسلوبها يشابه الأسلوب الذي تكتب به مقالاتك الحائطية... يبدو أن لك يداً في الموضوع...» وانتابته قشعريرة من الخوف، وتقلّص مؤلم في المعدة. أراد أن يقول شيئاً يدافع به عن نفسه، إلا أن المدير كان أسرع، إذ قال بغضب وصوت مرتفع: «ولا كلمة... لا أريد رداً... هذه هي المرة الثانية التي أستدعيك فيها... وأقسم بالله العظيم أنك إن لم تتوقف عن نشاطك المشبوه هذا، لأرفعن فيك تقريراً، لا بتهمة المروق من الدين فقط، ولكن بتهمة الانتماء إلى التنظيمات السرية أيضاً...» حاول أن يقول شيئاً، ولكن المدير أنهى المقابلة وهو يقول: «قلت ولا كلمة... هيا... اغرب عن وجهي». ونهض وهو يحس أن أحدهم قد سحب كل دمه، والعرق البارد يبلّل وجهه ويديه، غير مصدّق بالنجاة، رغم أن لا علاقة له بتهم المدير، فلطالما سمع أن التهمة إثبات في مثل هذه الأمور لا تحتاج إلى دليل. وأثناء خروجه، أتاه صوت المدير مغمغماً: «لعنكم الله... تريدون توريطنا...»، وكاد أن يصطدم بمراقب المدرسة، راشد عبد الجبار، الذي كان موجوداً طوال الوقت في

مكتب المدير دون أن ينتبه لوجوده، رغم أنه كان يراه كثيراً، إذ كان راشد يختلط بالطلبة كثيراً، وهو أقرب إليهم في شكله وهيئته منه إلى المدرسين أو الموظفين. شاب لا يتجاوز الثانية والعشرين من العمر، قصير القامة، نحيف البنية إلى درجة الهزال، داكن البشرة، صغير العينين، حادّ النظرات، صغير الفم جداً بشفتين رقيقتين داكنتين، وأسنان دقيقة منتظمة يعلوها بقع صفراء من أثر التدخين، وفوق الفم يربض شارب كمث شديد السواد، وفوقه أنف أفطس صغير، وكل ذلك في وجهه طويل كان دائماً مثار تعليقات الطلبة الذين كانوا يشبهونه «بوجه العنز».

خرج معه المراقب، ممسكاً بمرفقه، وهو يقول له مشجعاً: «لا عليك من كلام المدير... إنه طيب رغم كل شيء، ولو أراد أن يضرّك فعلاً، لفعل دون أن يدعوك إلى مكتبه أو يهدّدك. وعلى أية حال، لا تجعل تهديداته تثبط من همّتك... أنت شاب رائع وأمامك مستقبل طيب... فسر على الدرب... ومن سار وصل...» ونظر إليه المراقب نظرة طويلة وهو يبتسم ابتسامة مبهمة.

لم يهتم بكلمات المراقب، إذ كان مسكوناً بصورة أمه وأبيه التي لم تفارق خياله منذ أن ألقى المدير في وجهه تلك المنشورات. كان مسكوناً بهاجس أن يحدث له شيء، فكيف يكون حال والديه؟ عقد العزم على إيقاف كل نشاط والعودة إلى عزلته الأثيرة. كانت هذه الهواجس تملك عليه نفسه وهو في طريقه إلى الفصل، حيث دخل واتخذ مكانه دون أن يعي أي كلمة مما يقال حوله، أو تلك النظرات المحيطة به.

ـ ٥ ـ

أوقف نشاطه الكتابي في الصحف الحائطية، والتي قلّ نشاطها وأصبحت أقل تسيّساً بعد حكاية المنشورات والرقابة الصارمة من الإدارة، واكتفى من النشاط بالمناقشات مع الزملاء وخاصة المشاركين في جمعية التاريخ التي أسّسها ويشرف عليها الأستاذ رشيد الخطار، مدرس التاريخ. أما بقية الوقت، فكان يقضيه في القراءة أو مع صديقي الطفولة، عدنان العلي وعبد الكريم الدحيماني، فقد كان الثلاثة يجتمعون بعد كل عصر في منزل عبد الكريم، الأقرب للجميع، مع أصدقاء آخرين حيث يحتسون شاي أم عبد الكريم النعنع، ويتحدثون أو يلعبون الورق إلى ما قبل الغروب، وربما بعد ذلك. كانت الدنيا بالنسبة لهشام تتلخص في القراءة وهذين الصديقين.

وفي أيام الجمع، أو حين يضيقون بجدران المنازل، يقومون برحلات سريعة إلى شاطىء البحر القريب أو إلى الخلاء على طريق الظهران، حيث الرمال الناعمة، وتلك النسمة الرقيقة في أوائل الشتاء وأواخر الخريف، والتي تتحول إلى لفحة من بخار الماء أيام الصيف الطويلة، ومع ذلك فإنهم لا يتوقفون عن الذهاب حيث يشعلون النار في سعف النخل الجاف من حولهم، ويتحلقون حولها ويأخذون في السمر إلى ما بعد الغروب. كانوا يتحدّثون في كل شيء، في الفكر والسياسة والفن، فقد كان عدنان ذا موهبة واضحة في الرسم. غير أن أكثر ما كان يلذّ لهم الحديث فيه هو الجنس والفتيات، وقد كانوا يحصلون بعض الأحيان على قصص جنسية مهرّبة يقرأها أحدهم وينصت الباقون بخشوع وآذان مرهفة وعيون مشتعلة، وأعضاء متوترة، ويتخيّل كل واحد منهم أنه

هو بطل القصة. كما كانوا يحملون معهم قدراً صغيراً بعض الأحيان، وإبريقاً لإعداد شاي أسود لا يمكن أن يشرب، ولكنهم يتخاطفونه، ويطبخون «كبسة» يجلبون موادها من بيوتهم كل على حسب قدرته، ليس لها من طعم الكبسة إلا اسمها، فتارة يكون الملح أكثر من اللازم أو أقل من اللازم، وتارة يكون الأرز غير ناضج أو ناضج أكثر من اللزوم، ودائماً يكون اللحم غير ناضج على الإطلاق، وأكثر الأحيان بلا لحم. ولكن كل ذلك لم يكن مهماً، بل كانوا يلتهمونها بكل لذة ونهم، ثم يلعقون أصابعهم ويمصونها بعد الانتهاء بصوت مسموع وهم يتضاحكون حين يفركون أيديهم بالرمل لتنظيفها من بقايا الطعام. ثم يجمعون أغراضهم ويعودون مشياً أكثر الأحيان أو يركبون سيارة أجرة بربع ريال للشخص إذا داهمهم الوقت، وهم لذلك كارهون إذ إن ذلك يعني الإنفاق على شيء يمكن الإستغناء عنه والحرمان من شيء يمكن شراؤه بربع الريال الذي أنفق هدراً. وقد انتهت مشكلة النقل بعد ذلك حين استطاع عبد العزيز وسعود وسالم إقناع آبائهم بشراء دراجات كانت الفرج لكل الشلة.

ـ ٦ ـ

لن ينسى ذلك اليوم الذي كان نقطة تحول في حياته كلها، فبينما كان مستنداً في وقت الفسحة إلى جدار قريب من الفصل في الطابق الثاني للمدرسة مطل على الساحة الرئيسية، في انتظار عدنان لتناول طعام الفسحة سوياً كالعادة، اقترب منه أحد الزملاء في الفصل وجمعية التاريخ. لم يكن يشعر بميل إلى هذا الزميل منذ أن قابله لأول مرة وتناقشا حول الماركسية في أحد اجتماعات الجمعية، رغم أن هذا الزميل

أخذ يتودّد إليه لاحقاً ويحاول إقامة علاقة معه، ولكن النفور بقي ملازماً له. لم يكن منصور عبد الغني، وهذا هو الاسم، سيئاً، بل على العكس فقد كان في غاية الرقّة ودماثة الخلق، رغم ملامحه الصارمة، ومشيته التي توحي بالكبرياء والترفّع. كان منصور يبدو واثقاً من نفسه أكثر من اللازم، بنظرات تكاد تخترق من ينظر إليه. وكان وسيماً بشكل واضح، رغم القسوة التي يكسو بها ملامح وجهه، فارع الطول، رياضي العضلات. ولم يكن يرتدي غترة أو طاقية، بل كان لا يرتدي الثوب أكثر الأحيان مفضلاً عليه القميص والبنطلون.

إقترب منصور من هشام، راسماً ابتسامة واسعة على شفتيه لم يستطع الإحتفاظ بها طويلاً، كاشفاً عن أسنان كبيرة متناسقة ناصعة البياض، ثم قال:

ـ صباح الخير يا هشام...

ـ صباح النور...

أجاب ببرود واقتضاب، موحياً بعدم الرغبة في الحديث.

ـ أرجو ألا يزعجك مجيئي؟

ـ على الإطلاق... ولكني في انتظار صديق... أرجو المعذرة...

وتحرّك هشام من مكانه محاولاً إنهاء مقابلة لا يودّ لها أن تطول. غير أن منصور جذبه من مرفقه، راسماً تلك الإبتسامة التي تختفي سريعاً مرة ثانية وهو يقول:

ـ أنا أعلم أنك لا ترغب في صداقتي، فأنت تقابل تقرّبي بالإشاحة، ولا أعلم لماذا رغم أني أكنّ لك كل مودة وإعجاب...

وتوقف هشام عن الحركة، ثم استدار بكليته إلى منصور، محاولاً رسم ابتسامة على فيه، وهو يقول:

ـ أبداً... ليس الأمر كما تتصوّر... ولكن الوقت لا يسمح وكذلك مشاغل الدراسة... أنت تدري...

قال ذلك وكله رغبة في إنهاء الحديث والمقابلة بأي شيء كان، غير أن منصوراً بقي ممسكاً بمرفقه وهو يقول:

ـ كلا... إن الأمر كما أتصوّر...

وسكت لحظة ثم قال:

ـ ولكني هنا لا أعاتبك فأنت حرّ في تصرفاتك... كل ما في الأمر أني أود الحديث معك في أمر هام... فمتى ترى الوقت المناسب لذلك؟

حقاً إنه ثقيل الظل... ردد ذلك في نفسه، ثم نظر مباشرة إلى منصور في عينيه الصغيرتين الصارمتين قائلاً:

ـ الحقيقة أني في انتظار صديق، ولا أدري متى تسمح الظروف وكذلك...

وهنا قاطعه منصور بحدّة قائلاً:

ـ دع عنك الأعذار والمجاملات... إن الأمر هام جداً... يجب أن نتقابل...

قال منصور ذلك وقد ازدادت حدة نظراته، وأخذت شفته السفلى ترتعش، مما بعث في جسم هشام رعدة غريبة لم يملك معها إلا الموافقة، قائلاً وهو يهز رأسه:

ـ لا بأس... لا بأس... متى؟

ـ خلال فسحة الغد...

ـ وهو كذلك...

وتركه منصور، وسار باتجاه الساحة بخطاه الثابتة، فيما كان هشام يتابعه بنظرات كلها تساؤل وحيرة، غير شاعر بيد عدنان على كتفه وتلك الكلمات التي لا يسمعها...

ـ ٧ ـ

وجاء الغد، وذهب إلى المدرسة عاداً الدقائق قبل الساعات في انتظار فسحة ذلك اليوم. إنتهى درس الفيزياء، ودرس الإحياء، ودرس التاريخ، دون أن يفقه أي شيء قيل ذلك اليوم. حتى درس التاريخ، الذي يصغي له بكل جوارحه عادة، كان بعيداً عن ذهنه ذلك اليوم. «ترى ماذا يريد منصور؟... وأي شيء بيني وبينه؟...» أسئلة كثيرة تلاحقه، ويكاد الفضول والقلق يقتلانه. وقرع الجرس معلناً نهاية الحصة وبداية الفسحة، لقد جاء وقت الإجابات. إنصرف الدرس، وأخذ الطلبة في الإنطلاق إلى الخارج وهم يتزاحمون ويتصايحون بحبور، وجاء عدنان إليه ببسمته البريئة ووجهه الخالي من أي تعبير، من أجل الذهاب سوياً إلى المقصف وشراء طعام الفسحة ثم تناوله في مكانهما المعتاد، في تلك الزاوية البعيدة من ساحة المدرسة حيث يجتمعان بعض الأحيان ببقية «الربع» بعيداً عن زحمة الطلاب. غير أن هشام اعتذر برقّة، محاولاً رسم ابتسامة ودودة على فيه، ثم ترك صديقه على عجل، مندهشاً من هذا التصرّف الغريب الذي لم يعتد عليه من صاحبه الأثير.

إنطلق هشام إلى ساحة المدرسة، وأخذ يتجوّل دون هدى، حتى رأى منصور وهو يقف في أحد الزوايا بكل هدوء وكبرياء. إقترب منه محيياً بصوت إنتزعه انتزاعاً من داخله:

ـ صباح الخير يا منصور...

ـ صباح النور... هيا نتمشى في الساحة.

وسار منصور دون إنتظار إجابة منه، وتبعه هشام بتلقائية دون سؤال أو استفسار، وكأنه مقيّد إليه بسلسلة خفية. سارا مسافة قصيرة دون حديث، ثم فجأة قال منصور بهدوء، ودون أن ينظر إليه:

ـ ما رأيك في الحكومة يا هشام...؟

سؤال مباغت لم يكن يتوقعه، مثل قنبلة ألقيت فجأة. لم يحر جواباً، أحسّ بالاضطراب، ولاذ بالصمت. غير أن منصور عاود إلقاء قنابله، موجهاً عينيه الثاقبتين إلى عيني هشام مباشرة وهو يقول:

ـ لا داعي للإجابة... أنا أجيب عنك... إنها حكومة فاسدة لا همّ لها إلا مصلحتها، ونهب خيرات الشعب الذي لا حقوق له... إن الشعب مجرد عبيد أو رعايا على أفضل الأحوال ليس إلا...

أنهى منصور حديثه ولاذ بالصمت وهو لا يزال يحدق في وجه هشام، وقد ازداد وجهه صرامة، وبرزت عروقه بشكل واضح. أما هشام، فقد بقي غارقاً في المفاجأة والاضطراب، لائذاً بالصمت، وزحام من الأسئلة يدور في رأسه، ماذا يريد هذا الإنسان؟... أهو أحد الجواسيس الذين يحذره أبوه منهم يحاول الإيقاع به؟. أم تراه ساذجاً يعتقد أنه اكتشف حقيقة جديدة؟... غير أن منصور قطع الصمت وهو يقول بهدوء وثقة:

ـ أنا أعلم ما يدور في رأسك، إنك تشك في هذا الشخص الذي أتاك دون مقدمات، وأخذ يحدّثك مباشرة وبصراحة في أمور لا يجوز التصريح فيها لكل أحد. . . لك الحق في ذلك، فهذا سلوك سليم وواجب، ولكن صدقني، فأنا أكن لك كل إعجاب وثقة، ولأجل ذلك، فإني سوف أصارحك بكل أمانة.

وصمت منصور لبضع لحظات، ثم قال:

ـ أنا أدعوك للإنضمام إلى تنظيم يسعى إلى مقاومة الظلم وإقامة العدل والحرية. . .

وصمت منصور، فيما كان هشام في حالة شديدة من الإرتباك والشك والخوف. . . ماذا يقول هذا الإنسان! ها هو يطرح قنبلة ذرية هذه المرة. . . أتراه صادقاً فيما يقول؟. من أين له هذه الشجاعة؟ بل من أين له هذه المعرفة في اكتشاف خبايا النفوس؟ أهو في العشرين من عمره فقط، كما قال لأستاذ التاريخ ذات مرة، أم أن الشكل خادع؟

وقطع عليه تساؤلاته المتزاحمة صوت منصور، وكأنه قادم من بعيد، قائلاً:

ـ أراك صامتاً!

ثم بعد لحظة صمت، واصل قائلاً:

ـ أم تراك خائفاً ما زال الشك مسيطراً عليك؟. . . قلت لك إن ذلك شيء طبيعي وسليم، ولكن كما وثقت بك فثق بي.

نظر إليه هشام ببلاهة وهو يحدث نفسه. ها هو يمارس معرفته بخبايا النفوس مرة ثانية. ثم قال بتلعثم واضح:

ـ وماذا تريدني أن أقول؟. . . هل تنتظر مني غير ذلك؟

ـ الحقيقة لا. . .

قال منصور ذلك بهدوء مواصلاً:

ـ لست أول شخص أحادثه في هذا الأمر. ولن تكون الأخير، وكلهم تقريباً لديهم نفس رد الفعل. . . لذلك سأتركك عدة أيام تفكر في الموضوع وألقاك لاحقاً. . . إلى اللقاء. وسار منصور بخطاه الواثقة مبتعداً عنه، دون أن يلتفت إليه، أو ينتظر إجابة، تاركاً إياه مسمراً في الأرض في حالة من انعدام كل شيء، لفترة لا يعلم مداها، ولم يكمل دروس ذلك اليوم.

ـ ٨ ـ

خلال الأيام التالية، لم يذق طعم النوم المريح، وانقطع عن أصحابه، عدنان وعبد الكريم والآخرين. أصبح لا يفكر في غير ما قاله منصور. . تنظيم؟! ضد الحكومة؟! رباه. . . أي شيء خطير هذا. إن الحكومة لا ترحم في مثل هذه الأشياء، وكم سمع من قصص عن أشخاص تفوّهوا بمجرد كلام ضد الحكومة فغابوا منذ تلك اللحظة، ولم يعد لهم من أثر. سمع مثل هذه القصص كثيراً من أمه وهي تحذّره مغبة الحديث في السياسة، وكذلك من أبيه وأصدقائه، وجدة عدنان وحكاياتها الدائمة عن «الأولين» وما جرى لهم، وما يطرحه منصور ليس مجرد كلام، إنه عمل، وعمل خطير. نعم إنه يعشق السياسة والقراءة فيها، ولكنه يعشق الفلسفة والأدب أيضاً. أن تعشق شيئاً لا يعني أن تعمل فيه، خاصة إذا كان ذلك الشيء هو السياسة، وبالذات ذلك النوع السرّي

الخطر منها. لا يدري لماذا برز له فجأة خيال أمه وأبيه عندما وصل هذا الحد من التفكير، بل من الوساوس. لا يدري لماذا لم يخطرا على باله قبلاً. . . ماذا سيكون مصيرهما إذا آل أمر وحيدهما إلى السجن؟ أهذا هو الإبن الذي وضعا فيه آمالهما وكل مستقبلهما؟ أخذته رعدة شديدة عندما وصل إلى هذا الحد من التفكير، وأحسّ بهبوط مؤلم في المعدة. إنه في غاية الرعب. خائف من السجن، وخائف مما يمكن أن يحدث لأمه وأبيه لو حدث له أي شيء. قد تموت أمه لو حدث له شيء، وقد يتحطّم أبوه. . . لا. . . لا، لن يوافق منصور على عرضه الخطير، وسوف يقول له آسف. أريد أن أكون مفكّراً طليقاً، لا مناضلاً سياسياً في تنظيم. قرّ قراره على ذلك وعزم على إبلاغ منصور قراره هذا في أقرب فرصة من اليوم التالي.

بكّر في الخروج ذلك اليوم، إذ لعلّه يقابل منصور قبل طابور الصباح ويزيح عن صدره هذا الهم الثقيل. بحث عنه في كل مكان يمكن أن يكون فيه، ولكنه لم يجده، فأجّل البحث إلى الفسحة. وبحث عنه وقت الفسحة، تاركاً عدنان وبقية الربع في حيرتهم، ولكنه لم يجده أيضاً. أصابه شيء من الخوف: أيمكن أن يكون مسجوناً؟ لو حدث شيء من ذلك، لعلمت المدرسة كلها. كلا. . . لا ريب أنه غياب عادي. وابتسم ساخراً وهو يحدث نفسه. عجباً. . . أهذا هو الشخص الذي كان لا يكترث به ولا يطيقه بالأمس! وها هو في غاية القلق عليه اليوم. . . أليس عجيباً أمر هذا الإنسان!

وقرع الجرس معلناً نهاية حصة اللغة العربية، الحصة السابعة وآخر حصص ذلك اليوم، ولم يظهر لمنصور أثر. جمع كتبه واتجه خارج الفصل، غير عابىء بعدنان الذي كان يحاول اللحاق به، والسير سوياً

إلى المنزل كما هي العادة. وبينما هو يسير في الممر المؤدي إلى باب الخروج، جاءه صوت هامس يناديه من بعيد: «هشام. هشام. . . هنا». نظر إلى مصدر الصوت، فإذا بمنصور يقف خلف أحد الأشجار المنبثة حول الممر. عاودته الرعدة من جديد، وأحس بتقلص المعدة المؤلم مرة أخرى. نظر إلى عدنان الذي كان يسير بجانبه، طالباً منه عدم الإنتظار فيما اتجه هو إلى منصور، غير عابىء بنظرات عدنان المتسائلة.

عندما وصل إلى حيث منصور، بعيداً عن الممر وهو يقول بصوت أقرب إلى الهمس: «لننتظر قليلاً ريثما يخرج الطلاب». ولاذ الإثنان بالصمت، مراقبين أفواج الطلاب المتدافعين عند باب الخروج، بعيون متوثبة تحمل في طياتها الانتظار والقلق معاً. حتى إذا اختفت آخر كلمة مسموعة، وآخر ضحكة من ضحكات الطلاب، هبّ منصور واقفاً، جاذباً إياه من يده، واتّجها دون كلام إلى باب الخروج، الذي كان البواب على وشك إغلاقه، بعد أن اطمأن من خروج الجميع.

وعلى رصيف الشارع المؤدي إلى منزل هشام، شارع إدارة التعليم، سار الإثنان ببطء تحت أشعة شمس حارقة، ورطوبة خانقة لا تعرفها إلا الدمام في أشهر الصيف الذي يبدأ فعلاً من منتصف الربيع وحتى أوائل الخريف، وفق تسلسل الفصول في بقية ديار خلق الله. اختلط عرق الاضطراب، بعرق الصيف ولزوجة الرطوبة، لصنع رائحة مميزة لجسده، أشبه ما تكون برائحة السمك الطازج ولزوجته، يكاد يتقزّز منها هو نفسه ويتمنى لو يستطيع التخلّص من جسمه. استمرّا في السير الصامت لبضع دقائق، قال بعدها منصور بهدوء وحزم:

ـ حسناً. . . ما رأيك؟

كان يعلم عمّا يتحدث دون تصريح. تلعثم قليلاً، ولم يعرف كيف يبدأ الكلام، رغم قراره الصارم برفض العرض وعدم التراجع عن ذلك. غير أن منصور لم ينتظر الرد، إذ واصل قائلاً:

ـ لا ريب أنك ما زلت خائفاً... هذا شيء طبيعي كما قلت لك، كما أنه ليس هناك ما يخيف حقيقة.

ثم نظر إليه بسرعة، بواحدة من تلك النظرات النافذة، ولم يلبث أن حوّل نظره إلى الأمام وهو يقول:

ـ إذا كنا نحن أبناء البلد المخلصين لا نناضل من أجله، فمن يفعل؟

ـ نعم، ولكن.

ـ بجهودنا لا يتحرّر شعبنا فقط، بل كل الأمة العربية، بل العالم أجمع.

ـ صحيح... ولكن.

ـ إن العبد لا يتحرّر إلا بالثورة. والمظلوم لا يتحرّر إلا بالثورة. إن التاريخ يسير بالثورة وعمل الثوار...

ـ أجل، ولكن.

ـ يجب ألا نهاب الموت أو أي شيء آخر. كلنا سنموت يوماً ما، ولكن شتّان بين الموت من أجل هدف وقضية، وبين الموت مثل البهيمة.

ـ معك حق، ولكن.

ـ الإيمان بقضية أو فكرة ليس مجرد الاقتناع بها، إنه نضال من أجل عالم أفضل، ألم تقرأ قول ماركس: «ليس المهم تفسير العالم، بل المهم تغييره».

ـ أجل قرأت، ولكن. . .

كان منصور يتحدث بسرعة وحماس، وتنطلق الكلمات من فمه كالرصاص المتناثر في كل اتجاه. وفجأة توقف عن السير، والتفت إلى هشام، وقد علت وجهه إمارات الغضب الشديد، واحتدت عيناه أكثر مما هما حادتان، وقبض على هشام من منكبيه وهو يقول بصوت حادّ النبرات:

ـ ماذا دهاك؟. . . لقد عللتني بلكن. ماذا تريد أن تقول؟. . . أبلغ بك التردد والجبن أن تتنكّر للواجب عندما يدعوك؟ لقد ظننتك أفضل من ذلك بكثير. . . ثقافة ووعي وحماس، ولكن أسوأ عامل أفضل منك، وأدنى فلاح أحسن منك. إنك مجرد مظهر أجوف، باحث عن الصيت والشهرة، ولست صاحب فكر أو مبدأ أو قضية. نحن لا نريدك. لقد كان ظني فيك خائباً. . . هيا اذهب وانسَ كل شيء، فنحن في غنىً عن أمثالك.

قال منصور كلماته هذه، ثم تلفت يميناً ويساراً، وترك منكبي هشام، وسار في طريقه بخطىً واسعة دون أن يلتفت إلى الوراء، تاركاً هشام وقد أثارته تلك الكلمات. أهو حقاً جبان رعديد؟ أهو حقاً مظهر أجوف لا يؤمن بما يقول؟ أثارته هذه الكلمات ولعبت على أوتار حساسة في داخله جعلت عرقه يتصبّب بغزارة أكثر مما هو متصبّب، وقلبه ينبض أكثر مما هو نابض. كلا. . . أخذ يحدث نفسه، إنه ليس جباناً، وليس مظهراً خادعاً، سوف يثبت لهذا المغرور ذلك. وأخذه حماس اللحظة، فراح يجري وراء منصور وهو يصيح: «منصور. . . منصور. . . إنتظر» ولكن منصور لا ينتظر، بل هو سائر في طريقه لا يلوي على شيء. وأخيراً أدركه، فجذبه من مرفقه، حيث توقف وهو ينظر إليه بجمود،

ووجه قاس لا يحمل أي تعبير آخر، فقال بصوت متهدج:

ـ أنا آسف يا منصور...

ثم بعد أن بلع ريقه بصعوبة:

ـ أنت لم تدرك قصدي... لم أكن متردّداً أو خائفاً أو جباناً، بقدر ما أن لدي بعض الأسئلة.

فقاطعه منصور بحدة قائلاً:

ـ في الثورة ليس هناك أسئلة، هناك عمل فحسب...

ثم بلع هشام ريقه من جديد، وقال:

ـ على أية حال، أنت تعرف موقفي... أنا كلي حماس للعمل معكم.

ولأول مرة منذ خرجا من المدرسة، يفتر فم منصور عن بسمة واسعة، كاشفة عن أسنانه البيضاء، ووضع يده على مرفق هشام، ضاغطاً عليه بقوة، قائلاً بحماس وصوت تنضح فيه رنة الحبور:

ـ إنك الآن الشاب الذي أعجبت به... كنت واثقاً من وطنيّتك وإيمانك بقضية الشعب والأمة. ولكنك استفززتني أول الأمر بتردّدك...

ثم واصلا السير بصمت حتى وصلا إلى بيت هشام، الذي لا يبعد كثيراً عن المدرسة. توقف هشام، مشيراً إلى أنه وصل المنزل، داعياً منصور إلى الدخول، ممنياً إياه بواحدة من وجبات أمه الشهية، إلا أن منصور اعتذر بحجة اللحاق بحافلة القطيف، وفوجىء هشام بالعذر، فقال متعجباً:

ـ ولماذا تريد الذهاب إلى القطيف؟

وبتهكم، أجاب منصور:

ـ لسبب بسيط... لإنني من هناك، أهلي هناك، أعيش هناك.

وبدت الدهشة على وجه هشام، وهو يقول بعفوية:

ـ أنت شيعي إذن؟

ندم هشام على عجلته في السؤال، وأراد الاعتذار، إلا أن منصور أجاب بسرعة، وعلى فيه ابتسامة ساخرة، وهو يقول:

ـ يقولون ذلك... أما أنا، فلست شيعياً ولا سنياً.

ـ وماذا تكون إذاً؟...

تساءل هشام بعفوية وبلاهة أيضاً، فابتسم منصور، ولوح بيده مودعاً، وهو يقول:

ـ ستعرف لاحقاً... أراك غداً.

وسار منصور في طريقه إلى وسط المدينة، تاركاً هشام في لجة من الأسئلة. وعندما دخل غرفته، أتاه صوت أمه من المطبخ وهي تقول: «أهذا أنت يا هشام؟...» أجاب بتلقائية: «نعم يا أمي...» ولا يدري لماذا طاف بخاطره تلك اللحظة، ذلك العصفور الذي اصطاده قبل فترة بالفخ في حديقة المنزل.

ـ ٩ ـ

ـ يا أخ... يا أخ..

وأفاق على يد تربّت على كتفه، فانتبه من غفوته، وتلفت حوله، فإذا القطار قد توقف تماماً، وإذا أحد عمال المحطة منتصب أمامه، وهو يقول بلا اكتراث:

ـ يا أخ. . . ألا تريد المغادرة؟

ـ هل وصلنا الرياض؟

ـ منذ زمن. وقد غادر الجميع. إلاّك طبعاً. . .

نهض بتململ وهو يقول:

ـ أنا في غاية الأسف. لقد كنت في غاية الإرهاق. ولعلي غفوت قبل الوصول بقليل. . .

ـ ما علينا. . . أرجو أن تغادر بسرعة، قال العامل وهو يحاول إنهاء حديث لا يهمّه، متّجهاً في الوقت ذاته إلى مقدمة القطار، وهو ينظر إلى هشام نظرة سريعة لا تحمل أي معنى. عرك هشام عينيه، ومسح النظارة بطرف غترته، ثم عدل من ثوبه وغترته، وجمع بعض الصحف والمجلات التي جاء بها للتسلية، ولكنها كانت على حالها الذي وضعها عليه عندما استقلّ القطار، واتجه إلى باب الخروج.

هبط درجات سلم القطار، وأخذ ينظر حوله مستكشفاً المكان، وما أن وطئت قدماه الأرض، حتى لفحه هواء ساخن مشبع بذرات دقيقة من الغبار لها رائحة مميزة، «يا إلهي. . . أوَ قد تركنا رطوبة الدمام إلى غبار الرياض؟»، كان يحدث نفسه وهو يتجه إلى داخل المحطة. وهناك، لم يجد أحداً، عدا أحد عمّال المحطة الذي جلس على كرسي خشبي مهترىء، يشرب كأساً كبيرة من الشاي، ويدخن سيجارة، ويحاول الاسترخاء وطرد ذلك الذباب المزعج الهارب من حرارة الخارج. وابتسم وهو يتذكر إحدى مقالات عبد الله القصيمي، ولعلها كانت «هذا الذباب يقتلني كل يوم مرتين». بحث عن حقيبته، فوجدها ملقاة في أحد الأركان مع بعض حقائب أخرى، بعضها ممزّق الجوانب. سحب تلك

الحقيبة السوداء الضخمة بصعوبة، وحملها واتّجه إلى الخارج وهو يتنفس بصعوبة، فيما كان العامل لا يزال يصارع الذباب.

كان شارع المحطة خالياً من أي شيء يتحرك، عدا ذلك الهواء الساخن المحمّل بذاك الغبار الدقيق الأحمر. جلس على حقيبته منتظراً سيارة أجرة تقلّه إلى بيت خاله، ولكن لا شيء يبدو في الأفق، إذ يبدو أن من سبقه من الركاب قد سبق إلى السيارات أيضاً. ازدادت قسوة الريح، وازداد ما تحمله من تلك الذرات المزعجة، فأخذ ينشف عرقه بغترته التي بدأت تمتلىء ببقع حمراء، فقد كانت ذرات الرمال تلتصق بحبات العرق المتساقط، صانعة عجينة مؤذية. «رطوبة الدمام أرحم...»، كان يردّد بعد كل مرة يزيل فيها تلك العجينة التي سرعان ما تجف، تاركة تلك الذرّات وقد تغلغلت في نسيج الغترة التي كانت بيضاء، فيما لا يبدو في الأفق ما يبشر بقرب الفرج. وأخيراً لاحت سيارة من بعيد، مثيرة ضباباً أحمر من الغبار وراءها. هبّ واقفاً، وأخذ يشير لها بالتوقف، حتى قبل أن تقترب منه. وقف السائق، مثيراً من الغبار أكثر مما هو مثار، فاقترب من السيارة، ودسّ رأسه في النافذة الأمامية وهو يقول للسائق بصوت فيه أمر ورجاء معاً:

ـ أريد الذهاب إلى شارع الشميسي القديم. ليس بعيداً عن سوق المقيبرة... نظر إليه السائق وهو يحك لحيته مفكراً لوهلة، ثم قال:

ـ هذا مشوار بعيد... سآخذ ثلاثة ريالات.

ـ ثلاثة ريالات!... هذا مبلغ كبير لمثل هذا المشوار. سأعطيك ريالين فقط. هذه هي الأجرة المعتادة.

ـ أنت حر... ليس أقل من ذلك.

قال السائق، وهو يستعد للتحرك. خشي هشام ألا يجد سيارة أخرى، فوافق على الأجرة بامتعاض.

وضع حقيبته في «شنطة» السيارة، وانسلّ إلى جانب السائق الذي تحرك من لحظته. اتّجهت السيارة إلى شارع السكة الحديد، في طريقها إلى حي الملز، ثم شارع الجامعة، فشارع العصارات، مروراً بالمستشفى المركزي، وأخيراً شارع الشميسي القديم. «مشوار طويل... قد يستغرق أكثر من نصف ساعة في مثل هذه الزحمة...» قال السائق، فيما كان هشام يتفحصه: رجل شديد السمرة، بوجه مثلث شديد النحافة والجفاف، ولحية مثلثة صغيرة، وشارب كثيف أسود كأنه قوس، وضفائر طويلة تتدلى على كتفيه.

ـ الأخ منين؟

قال السائق في محاولة لبدء حديث معه.

ـ من الدمام.

أجاب بسرعة ودون اكتراث وهو ينظر من النافذة.

ـ من الشرقية...

ـ نعم.

ـ عسى ما أنت برافضي؟

قال السائق وهو يبتسم ابتسامة واسعة، كاشفاً عن أسنان بعضها مفقود وبعضها داكن اللون من أثر التدخين، وسن ذهبية وحيدة تلمع في مقدم الفم. إلا أن هشام نظر إليه بشبه ابتسامة، دون رد أو جواب، أدرك معها السائق أن صاحبه لا يريد الحديث، فلاذ هو أيضاً بالصمت بعد أن ردد: «لا إله إلا الله» عدة مرات. وفيما كانت السيارة تخترق

شارع الظهران بالملز، عاد بلا إرادة منه إلى ذاته.

- ١٠ -

لم ينم تلك الليلة، لقد ذهبت السكرة وأتت الفكرة، كما يقولون. ذهب حماس اللحظة وعاد الخوف من جديد. عادت صورة أمه وأبيه تحتل مخيّلته من جديد، «يا لي من أحمق...»، أخذ يحدث نفسه، «لقد طلب مني بلسانه أن أتركهم، ولكني مغفل. لقد جريت وراءه بنفسي أستجديه القبول. لقد استغفلني بكلماته واتهاماته، فجعلني أسير خلفه كالمسحور. أنا المثقف الذي يأسر الناس، يأسرني هذا المغرور. سأكاشفه غداً وأقول له اتهمني بما تشاء. أنا واثق من نفسي ولن تخدعني اتهاماتك. لن تشكّك في فكري ومبادئي ووطنيتي... قل ما تشاء. فلن أسبب ألماً لمن أحب. نعم... سوف أقول له ذلك وليكن ما يكون».

في صباح اليوم التالي، وبينما هو في طابور الصباح، التقت عيناه بعيني منصور الذي ابتسم له، ولكنه أشاح بوجهه عنه. وفي فترة الفسحة، بحث عن مكان بعيد يتناول فيه طعامه، بعيداً عن أي زاوية أو مكان يمكن أن يكون فيه منصور، وسط نظرات الاستغراب من عدنان الذي كان مستغرباً تصرفات صاحبه هذه الأيام. وبينما هو يمضغ لقمة من «ساندويش الجبنة والجام»، ويتمازح هو وعدنان، إذ به يفاجأ بمنصور ينتصب أمامه بقامته الرياضية، وعلى فيه ظل ابتسامة، وكأنه مارد من مردة ابن داود خرج لتوه من القمقم. توقف عن الطعام، وبدأ الاضطراب يغزوه من جديد. حاول تمالك نفسه، مصمّماً هذه المرة على مصارحته بالرفض القاطع. نظر إليه بهدوء محموم وهو يقول:

ـ أهلاً منصور. تفضل...

ابتسم منصور ثم قال:

ـ عليكم بالعافية. لقد سبقتكم.

ثم وهو لا يزال واقفاً:

ـ إذا سمحت يا هشام... أريد أن أكلمك على انفراد.

ثم نظر إلى عدنان بسرعة، وعاد بنظره إلى هشام من جديد. أحسّ بالاضطراب يزداد في داخله، ولكنه لم يجد بدّاً من الاستجابة. وضع ما بقي من زجاجة الكولا والساندويش جانباً، ثم نظر إلى عدنان مستأذناً بابتسامة نقية، وسار ومنصور في اتجاه ساحة المدرسة، فيما كانت نظرات عدنان المندهشة تلاحقهما.

سارا لفترة بصمت، فأحس هشام أن اضطرابه يكاد يفلت من سيطرته. حاول أن يكسر الصمت ويخنق الاضطراب، فقال ونظراته تبحثان في الأرض عن شيء ما:

ـ ما بالك... أليس لديك ما تقوله؟نظر إليه منصور بعينين هادئتين ونصف ابتسامة قائلاً:

ـ أبداً... لا شيء. كنت أفكر بما قلته بالأمس.

صمت برهة، ثم واصل قائلاً:

ـ لماذا كنت مستغرباً عندما علمت أني شيعي... أو بالأصح، من أسرة شيعية؟

لم يتوقع هشام هذا السؤال، فتلعثم قليلاً وهو يقول:

ـ أبداً... ليس استغراباً بقدر ما هو مفاجأة غير متوقعة.

ـ مفاجأة! كيف؟

ـ لاأدري. . . عادة تعرف الشيعة من أسمائهم الأولى، أو أسماء أسرهم. . . أما أنت، فلا إسمك الأول ولا إسمك الأخير يوحيان بكونك شيعياً. . . آسف. أقصد تنتمي إلى أسرة شيعية.

ابتسم منصور، وفرقع أصابعه بحركة سريعة، ثم قال:

ـ معك حق. . . بالنسبة للإسم الأول، فإنه مجرد إسم عادي لا علاقة له بالأئمّة والملالي. تجده عند السنّة والشيعة، وحتى عند المسيحيين واليهود. أما إسم العائلة، فأنا أنتمي إلى قرية صغيرة، أي أني «براني» ولست من «القلعة»، لأجل ذلك، فإن اسم عائلتي غير مشهور، بل إنني لا أنتمي إلى عائلة أصلاً.

ـ القلعة؟. . . براني؟. . . ماذا تقصد بهذه الأشياء؟ لقد عشت حياتي كلها في الدمام، وذهبت إلى القطيف عدة مرات، ولكني لم أسمع بمثل هذه الأشياء.

واتسعت ابتسامة منصور وهو يقول:

ـ طبعاً لم تسمع بها. . . يجب أن تكون «رافضياً» كي تسمع بها، وليس من أهل السنة والجماعة.

قال منصور وهو يضحك بعصبية، ثم أضاف:

ـ على فكرة. ما رأيك في مسألة السنة والشيعة؟

وبدون تردد أجاب:

ـ الحقيقة، لا تهمني المسألة كثيراً، ولا حتى قليلاً، أنا أعتقد أنها شيء من مخلّفات الماضي. ما لنا ولعليّ وعثمان ومعاوية. نحن أبناء

اليوم، ولدينا من الهموم ما يكفي. . .

وبحماس، قال منصور:

ـ بالحق نطقت. . . ولكن كي أنوّرك إجتماعياً وطبقياً، أحب أن أقول لك إن أهل القلعة، أو القلعاوية، هم أهل المدينة والعائلات الكبيرة، هم الأسياد وأصحاب الأملاك. أما البرانيون، فهم أهل القرى من الفلاحين، أو «النخلاوية»، كما يسميهم أهل القلعة، وهم من يخدم الأسياد. . .

ثم صمت منصور للحظات، قال بعدها:

ـ وأنا، ولا فخر، فلاح.

كانت معلومات جديدة فعلاً بالنسبة لهشام، الذي قال بتعجب:

ـ غريبة. . . كنت أظنكم شيئاً واحداً.

ـ ليس هناك مجتمع واحد يا «رفيق». . . إنها الطبقات وصراعها سواء عند الشيعة أو السنة أو المسيحيين أو اليهود.

استغرب هشام كلمة «رفيق» التي خرجت بتلقائية من فم منصور، إلا أنه لم يتوقف عندها طويلاً. أخذ الاثنان يسيران ببطء وصمت لفترة وجيزة، وهشام يفكر في أفضل طريقة لإخبار منصور عن رفضه لما وافق عليه بالأمس. غير أن منصور قطع عليه أفكاره، وهو يقول:

ـ ما علينا. . لقد عرضت إسمك على «الرفاق»، فوافقوا على انضمامك للتنظيم.

ثم وهو ينظر إلى هشام مبتسماً، وبلهجة تأكيدية:

ـ بل وكانوا في غاية السرور لانضمام عنصر جيّد مثلك.

أراد أن يقول شيئاً مما قرّره ليلة البارحة، ولكنه لم يستطع. لقد أحسّ بنشوة تسري في داخله عندما قال منصور أن «الرفاق» كانوا في غاية السرور لانضمامه إليهم. أحسّ بلذة غريبة، وحماس طارىء يتدفّق في عروقه. غابت صورة الأم والأب والعصفور، ونسي كل مخاوف الأيام السابقة، ولم يبقَ إلا إحساس واحد: إنه شخص مهم، شخص مرغوب ومطلوب. كان هذا الإحساس يملأ عليه كل كيانه وهو يقول:

ـ وأنا على استعداد كامل لبدء النضال.

كان متحمساً وهو يقول ذلك، ولكنه لم يكن مثل ذلك الحماس الذي كانت كلمات غيفارا أو فانون تثيرها فيه. توقف منصور عن السير، ونظر إليه بصرامة، ثم قال بكلمات أقرب إلى الأمر:

ـ إذاً، تنتهي علاقتي بك منذ اليوم... سوف يأتيك رفيق يضمك إلى خليتك. وكلمة السر هي: «عشراوي يسلم عليك» لا تنسَ «عشراوي يسلم عليك».

واستدار منصور متجهاً إلى مبنى المدرسة، إلا أن هشام استدركه متسائلاً:

ـ من هو هذا الـ «رفيق»؟ وأين سيأتي؟ وكيف؟

ـ لا عليك... كل شيء مرتب. لا تنسَ. «عشراوي يسلم عليك»...

وسار منصور خطوات قليلة قبل أن يرجع، وكأنه نسي شيئاً، سائلاً هشام:

ـ على فكرة. صديقك الذي تجلس معه. اسمه عدنان العلي. أليس كذلك؟

ـ نعم. . . ولماذا؟

ـ لا شيء. مجرد فضول. لا تنسَ. . . «عشراوي يسلم عليك».

قال منصور ذلك، وظل ابتسامة يلوح على فيه، وسار بعيداً بخطواته الثابتة، تاركاً هشام في حيرة ينظر بعيداً إلى اللاشيء.

ـ ١١ ـ

كانت الساعة حوالى العاشرة صباحاً، وكان الفصل مستغرقاً في الإنصات إلى الأستاذ حقي، مدرس الاحياء، وهو يشرح الكائنات وحيدة الخلية، متخذاً الأميبا نموذجاً لها. وفجأة يفتح باب الفصل ليطلّ منه وجه راشد، مراقب المدرسة، راسماً ابتسامة على ذلك الوجه الدقيق تحاول أن تخترق ذلك الشارب الكثّ. توقف المدرس عن الشرح، واتجهت الأنظار إلى الباب:

ـ الطالب هشام إبراهيم العابر. . . مطلوب في الإدارة. وانتابه شيء من الخوف. آلمته معدته من جديد. هذه هي المرة الثالثة التي تطلبه فيها الإدارة. وهو يذكر آخر مرة قابل فيها المدير وتهديده. ترى ماذا يريد المدير هذه المرة؟ أتراه علم بلقائه وحديثه مع منصور؟ «ألا تباً لك يا منصور. . . كنت أعلم أنك غراب البين. بل خراب السفينة كما يقولون». كان يحدّث نفسه وهو ينهض بتثاقل، وسط نظرات الطلبة المتسائلة، ونظرات المدرّس الحائرة. جرّ خطاه جراً نحو الباب حيث المراقب الذي ما زال مبتسماً، وهو مستمر في حديثه مع نفسه: «إنه السجن هذه المرة لا ريب في ذلك. ولكن ماذا فعلت؟ المسألة ليست ماذا فعلت ولكن ماذا ستفعل. . . إنهم يأخذون بالنية لا بالعمل. ألا تباً

لهم، وتباً لمنصور، وتباً للمدير، وتباً لوجه العنز هذا. . .».

سار الإثنان في الرواق المؤدي إلى الإدارة بهدوء وصمت لا يزعجه سوى صوت خطاهما في مثل هذا الوقت من النهار.

ـ ترى. . . ماذا يريد المدير؟

تساءل دون توقع أن يأتيه جواب، فهو يعلم أن المراقب ليس له من الأمر شيء، فهو مجرد عبد مأمور.

ـ لا شيء مهم. إنه يريد أن يقول لك. . . عشراوي يسلم عليك.

وتسمّر هشام في مكانه. وأخذ قلبه يخفق بشدة. وأحسّ بحرارة في رأسه، وعرق غزير يخرج من كل مسام جلده. التفت بكليته إلى «وجه العنز»، بوجه ممتقع ونظرات زائغة وهو يقول:

ـ أنت. . . أنت. . .

كانت ابتسامة راشد قد اتّسعت، واستطاعت أن تتغلّب على ذلك الشارب الكثّ، كاشفة عن تلك الأسنان الدقيقة، وكأنه مستمتع بهذه اللحظة.

ـ نعم أنا.

ثم، وبلهجة سريعة، قال راشد وهو يلتفت في كل الإتجاهات، وقد اختفت تلك الابتسامة العابثة:

ـ ليس لدينا متسع من الوقت. أراك بعد العصر أمام حديقة البلدية. أنت تعرفها طبعاً؟

وأجاب بهزّة من رأسه، فيما كان راشد يتجه إلى غرفة الإدارة وهو يقول على عجل:

ـ عد إلى فصلك. . . إلى اللقاء.

بقي مسمّراً في مكانه بضع لحظات، وهو ينظر إلى راشد الذي كان مسرع الخطى وهو يبتعد في اتجاه الإدارة، ثم مختفياً في أحد الممرات دون أن يلتفت وراءه. وجرّ قدميه عائداً إلى الفصل وهو في حالة ذهول شديدة. «راشد عبد الجبار. المراقب. وجه العنز. هو الرفيق!!! أكاد لا أصدق».

ودخل الفصل، دون أن يستأذن من المدرس، ملقياً بنفسه على المقعد، وسط فضول المدرس والطلبة.

ـ ماذا كان يريد المدير؟

كان ذلك الأستاذ حقي:

ـ لا شيء. . . مجرد استفسار بسيط.

قال ذلك وهو لا يزال يشعر أن نواقيس كثيرة تقرع في رأسه. نظر إليه المدرس للحظة، ثم واصل شرحه، ملتفتاً بين الفينة والفينة إليه:

ـ لعله خيراً؟

محاولة أخيرة من الأستاذ حقي لإشباع فضوله.

ـ لعله كذلك يا أستاذ. لعله كذلك.

وانتهى الدرس، وبقي غارقاً في دوامته، غير عابىء بتجمهر الطلبة حوله، وأسئلتهم المتناثرة من كل جانب.

ـ ١٢ ـ

طوال طريق العودة إلى المنزل، كان في دوامة من الأفكار المتضاربة. كان في حالة وجوم تام، فهو يدري أن صديقه عدنان يسير إلى جانبه ويتحدث، ولكنه في الحقيقة لا يسمع شيئاً. لقد كان حائراً في هذا العالم الجديد الذي وجد نفسه فيه فجأة دون مقدمات أو سابق إنذار. تتراءى أمام عينيه صور شتّى لأشخاص يعرفهم وآخرين لا يعرفهم، مجرد خيالات وأشباح باهتة. منصور... راشد... المدير... ثم فجأة تبرز صورة ضابط... ثم قضبان متداخلة. ومن بعيد تبدو صورة عقال غليظ يحيط بهذه الصور جميعاً. يشعر بقلبه يكاد يقفز من بين ضلوعه. ويواصل السير دون أحساس بأي شيء...

ـ هشام... هشام... غير غيرتم منزلكم؟

أتاه صوت عدنان وكأنه قادم من أبعاد أخرى.

ـ كلا... كلا... لماذا؟

أجاب بصوت كأنه لا ينتمي إليه.

ـ لأننا تجاوزنا منزلكم وأنت لا تزال تمشي!

قال عدنان، مبدياً اندهاشه:

ـ أنت لست أنت هذه الأيام... خاصة بعد أن أصبحت تماشي ذلك الذي إسمه منصور...

وانتبه لنفسه، وتلفت حوله، فإذا هو فعلاً قد ابتعد عن المنزل كثيراً:

ـ معك حق... أرجو المعذرة. فذهني اليوم مشغول جداً.

ـ بمنصور طبعاً.

قال عدنان بصوت تفوح الغيرة من نبراته. نظر إليه هشام بهدوء قائلاً:

ـ لا تكن سخيفاً. المسألة لا علاقة لها بمنصور أو مهزوم.

ثم وهو يبتسم:

ـ لقد تجاوزنا منزلي بمسافة كبيرة، ونكاد نصل إلى منزلكم. لما لم تنبهني قبلاً؟

ـ لقد حاولت... ولكنك واصلت السير دون اكتراث، فظننت أنك ذاهب إلى مكان آخر.

ـ لا بأس. لا بأس... أراك غداً. إلى اللقاء.

ـ ألن نتقابل عصر اليوم عند عبد الكريم؟

ـ لا أعتقد... فقد كلفني الوالد ببعض الأعمال التي يجب إنجازها اليوم. مع السلامة.

وقفل راجعاً إلى المنزل، وسط نظرات عدنان الحائرة، والغيرة تنهشه من الداخل... لقد أصبح يتخلف عن لقاء الشلة كثيراً هذه الأيام. ما الأمر يا ترى؟... كان عدنان يحدث نفسه، وهو يلقي نظرة أخيرة على صديقه وهو يختفي في «الداعوس» المؤدي إلى منزله، قبل أن يواصل هو الآخر طريقه إلى المنزل.

ـ ١٣ ـ

وفي المنزل، بقي في دوامة أفكاره لا بسمة أمه، ولا الغداء الفاخر الذي أعدّته، صينية بطاطس بلحم الغنم، كانا قادرين على إخراجه من

تلك الدوامة الشنيعة من الأفكار، وتلك الصور التي تكرّر نفسها على ذهنه. وحين عاد والده من «الدوام»، وحياه كالعادة: «كيف حال أفضل إبن في الدنيا»، لم يجبه كالمعتاد: «يقبل يدي أفضل أب في الدنيا»، بل أجاب دون حماس وبفتور إجابة تقليدية. تناول الطعام دون بهجة وحماس، كما كان يفعل في السابق حين يفاجأ بإحدى وجبات أمه الفاخرة. كان يفكر طوال فترة تناول الطعام. ماذا لو عرفا ما هو مقدم عليه؟ أهذه هي نتيجة حبهما وفخرهما. يلقي بنفسه إلى ما يخاف الناس من مجرد ذكره... تنظيم سري.. حكومة؟ سياسة؟ إن واحدة من هذه الكلمات كافية للقضاء على أمه وتحطيم أبيه... يا لي من ولد عاق لا يهمه إلا نفسه، ولا يعجبه إلا ذاته. ألا يساوي هذان الشخصان التضحية من أجلهما مثل الأمة والشعب أو الوطن؟ إنه لا يرى الأمة ولا الشعب أو الوطن، ولكنه يقبّل أمه، ويرى أباه كل يوم. يراهما والحب يتفجر من عيونهما... هل يلقي بكل ذلك في المرحاض من أجل كلمات قالها شخص لا يعرفه ولا يحبه؟ هل يترك الحب الحقيقي من أجل واجب مفترض؟ ألا يفرض الحب شيئاً من الواجب؟. لا... لن يذهب إلى الموعد. سيأتي وجه العنز ولن يجده. وعندها سوف يتركونه وشأنه.

عندما وصل في تفكيره إلى هذا القرار، تهلّلت أساريره، وابتسم ابتسامة واسعة وهو ينظر إلى أمه قائلاً:

- سلمت يداك يا أمي... لقد كان الطعام في غاية الروعة.

ونظر الوالدان إلى بعضهما بعضاً وهما في غاية الإستغراب، ثم نهض الوالد وهو يقول: «سبحان مغيّر الأحوال...»، واتجه إلى حيث يغسل يديه ثم ينام القيلولة. أمّا أمه، فترفع السفرة، ثم تغسل «المواعين» وتعود حاملة إبريق شاي تحتسيه هي وهشام، بينما تسلي نفسها بعمل

«الكروشيه» حتى تحين ساعة استيقاظ الوالد. نظرت إليه أمه، دون أن تتوقف عن العمل قائلة:

ـ أنت غريب الأطوار اليوم يا هشام. طوال فترة الطعام، كنت ووالدك في حيرة من أمرك... صامت وسرحان في الوقت نفسه... والآن ها أن الحماس يعود إليك وتمدح طعاماً لم تذقه تقريباً. ما بالك يا بني. هل هناك ما يضايقك؟

نظر إلى أمه بحب، وابتسامة صافية ترتسم على محيّاه وهو يقول:

ـ كل شيء على ما يرام يا أمي. لن ترون مني إلا ما يسركم. أرجو المعذرة إن كنت قد ضايقتكم.

ونظرت إليه أمه بحب، تاركة ما في يدها من عمل، وهي تقول:

ـ نحن لا نريد إلا سعادتك. بارك الله لنا فيك.

وأحسّ بألم في حنجرته هذه المرة، وعزم بكل حزم على عدم الذهاب إلى موعده مع راشد. وعادت أمه إلى الكروشيه، وتناول هو مجلة «الجمهور الجديد» وأخذ يقلب صفحاتها، متفرجاً على صور نساء المجتمع المخملي في بيروت الذي تغطيه المجلة بشكل جميل ومثير، رغم أنه لا يحب هذه المجلة كثيراً ولا تعجبه مقالات رئيس تحريرها فريد أبي شهلا.

ـ ١٤ ـ

كانت الساعة تقترب من الرابعة... دقائق معدودة وتصبح الرابعة تماماً. ما زالت أمه قابعة في زاويتها المفضّلة من غرفة الجلوس، في

ذلك الركن عند التقاء جداري الغرفة، مباشرة أمام جهاز التلفزيون الذي يحتل الركن الآخر حيث يلتقي الجداران الآخران. ما زالت مشغولة بعمل الكروشيه الذي لا ينتهي أبداً، فيما والده لا يزال مستمتعاً بقيلولته. دقائق وتنهض أمه لإعداد الشاي وإيقاظ النائم، مع بداية إرسال التلفزيون والصور المتحركة، برنامجه المفضل، وهو لا يفصح عن ذلك، ولكن أمه تعلم وتبتسم حين يبدي نفوره من الصور المتحركة أمام الآخرين، وهو مشدود إليها حقيقة. ينظر إلى ساعة الحائط المعلقة في غرفة الجلوس على الجدار المقابل لزاوية أمه، ويحسّ أن عقاربها قد تحوّلت إلى عقارب، وأن دقاتها الخافتة قد تحولت إلى مرزبة تلو مرزبة تهوي على رأسه. تقترب الساعة من الرابعة ويزداد وجيب قلبه، ويأخذ العرق الغزير في الإنحدار من كل جسده، رغم جهاز التبريد «الفريون» الذي وفّر له الوالد كثيراً من رواتب الأشهر الماضية، والذي يحسدهم عليه الجيران الذين يتهمونهم بالثراء وإدعاء المسكنة. ولكنه يعلم أن والديه من متوسطي الحال، ليسوا من الفقراء كما أنهم ليسوا من الأثرياء أيضاً، فالأثرياء معروفون ويعدون على الأصابع في مدينة مثل مدينتهم. وهم لم يصلوا إلى هذه الحالة المتوسطة إلا من خلال كفاح أمه وأبيه، إذ لم يكن والداه من الأعيان أو من الورثة. فوالده مجرد موظف، يتقاضى ألف ريال في الشهر، وهو مرتب كبير فعلاً، ولكنه يبقى موظفاً محدود الدخل. ولكنه استطاع، بتدبير الوالدة أن يبني منزلهم الذي يعيشون فيه، بالإضافة إلى منزل آخر يؤجرونه بمائة وخمسين ريالاً في الشهر.

تقترب الساعة من الرابعة... خمس دقائق فقط وتصبح الرابعة تماماً. يزداد اضطرابه. يتناول مجلة «الأسبوع العربي» ويحاول قراءة مقال لياسر هواري حول المقاومة الفلسطينية، ولكنه يقرأ دون أن يفقه

أي كلمة. يقذف بالمجلة جانباً وينهض متجهاً إلى جهاز التلفزيون، يدير مفتاح التشغيل، ولكن الإرسال لم يبدأ بعد، فما زالت شارة تلفزيون أرامكو، وصورة ذاك الهندي الأحمر، تحتل الشاشة. عاد إلى مجلسه وهو يزفر بضيق، فيما كانت أمه تبتسم قائلة: «ما أسعدك يا ميكي ماوس...» نظر إليها دون تعليق، ثم تناول مجلة «الجديد» وأخذ يطالع تحقيقاً عن معسكرات الشباب في الاتحاد السوفييتي، مليئاً بصور جميلة ومثيرة لفتيات من كل الأجناس وفي كل الأوضاع ومختلف الملابس البحرية، وأخذ ينظر إلى الصور، محاولاً أن يرسم صورة لما وراء الثياب...

ونهضت أمه من جلستها، ملقية بالكروشيه جانباً وهي تقول: «آن أوان إيقاظ والدك... سوف أضع إبريق الشاي على النار وأذهب لإيقاظه. إنها الرابعة تماماً». ويشعر برعدة تسري في أوصاله، فيلقي بالفتيات جانباً، ويخاطب نفسه متعجباً. غريب أمرك يا فتى. ألم تقرّر عدم الذهاب!... إذاً لِمَ الاضطراب؟. ويبقى لحظات في حال من السكون المطلق، وهو ينظر دون انتباه إلى العلم الأخضر الذي كان يرفرف على شاشة التلفزيون، كان في حالة شلل تام، ثم فجأة، وكأنه في حلم، أتاه صوت صفير إبريق الماء معلناً أن الماء الذي في جوفه قد أصبح جاهزاً للتحول إلى شاي. هبّ واقفاً وكأن ماساً كهربائياً قد أصابه، واتجه إلى الخارج مارّاً بالمطبخ وهو يقول بعجل: «بعد إذنك يا أمي... أنا ذاهب إلى عبد الكريم.» وانطلق إلى الخارج وصوت أمه يأتيه من بعيد قائلاً: «أليس الوقت مبكراً على ذلك»، مختلطاً بصوت القارىء عبد الباسط عبد الصمد وهو يقرأ ما تيسّر من سورة يوسف.

ـ ١٥ ـ

لا يدري ما الذي دفعه إلى الخروج بهذا الاندفاع. هل لإبريق الماء وصفيره علاقة بالموضوع يا ترى؟ ربما، فكل شيء جائز. وجد نفسه دون إحساس يسير في شارع «ثمنطعش»، متجهاً إلى المدرسة الإبتدائية، ليس بعيداً عن سوق السمك والخضار، في ذات الحي الذي يقطنه، حي العدامة. عندما لاحت المدرسة من بعيد، لمح خيال عبد الجبار الهزيل، بثوبه الأبيض وغترته البيضاء. كان من الضآلة في الحجم بحيث أنه لا يكاد لا يبين، اللّهمّ إلا سحابة من دخان كثيف كانت تنبعث من فيه معلنة عن وجوده. فكّر في أن يعود من حيث أتى، فقد كان يمنّي النفس بألاّ يجد راشد حسب الموعد، ولكن شيئاً في داخله لا يدريه كان يدفعه دفعاً إلى المضي. كان راشد مضطرباً ومتوتراً عندما وصل إليه، يمتصّ سيجارة بعمق بيد مرتجفة قليلاً ويلتفت في كل اتجاه.

ـ لقد تأخرت. إنها الرابعة والربع. كدت أذهب. . .

قال راشد بسرعة واضطراب واضحين، نافثاً آخر نفس من سيجارته في وجهه، ثم ألقى العقب على الأرض وسحقه بشبشبه البلاستيكي. نظر هشام إلى السيجارة المسحوقة متمتماً: «ليتك فعلت. . .»، ثم رافعاً صوته بتلعثم:

ـ الحقيقة كان لدي بعض أعمال للوالد. أنهيتها وأتيت بأسرع ما يمكن.

ـ هيا بنا إذاً. . . لقد تأخرنا أكثر مما يجب.

وسار راشد مسرعاً، بعد أن أخرج سيجارة أخرى من علبة «أبو بس»، أشعلها بعصبية وأخذ يمتصها بشراهة وسرعة وهو يلتفت إلى

الوراء بين الفينة والفينة. سار راشد في اتجاه الساحل، مارّاً بشارع الحب، وحي الدواسر، وأسواق المدينة القديمة. وكان هشام يسير إلى جانبه وكأنه مشدود إليه بحبل خفي، مسلوب الإرادة، لا يفكّر بأي شيء، وكأنه آلة صمّاء.

وصلا إلى شارع الحب، ومنه خرجا إلى شارع الإمارة، وسارا بمحاذاة الإمارة حتى أشرفا على حي الدواسر، وهناك دخل راشد أول منعطف على اليمين، وهشام يتبعه كظله، وسارا في ذلك المنعطف لمدة دقيقتين تقريباً، ثم دخلا داعوساً ضيقاً جداً، وفي نهايته نظر راشد إلى هشام، وقد انبسطت أسارير وجهه، وفسح شاربه المجال لبسمة واسعة، مدخناً سيجارته بلذة وهدوء، وهو يقول:

ـ أخيراً وصلنا... تفضل.

وأشار راشد إلى بيت قريب في نهاية الداعوس تماماً. نظر هشام حوله، فوجد نفسه في منطقة من المدينة لم يسبق له أن زارها من قبل. بيوت صغيرة متراصّة، مشيدة بحجارة البحر الرمادية المجدورة، وتفوح منها رائحة القلي والسمك المطبوخ والنيء. ونظر إلى حيث أشار راشد، فرأى بيتاً أكبر حجماً مما حوله قليلاً، إلا إنه من المكوّنات نفسها.

ـ يعتبروننا من الأثرياء هنا.

قال راشد بنبرة لا تخلو من فخر واعتزاز.

ـ أجل... أجل.

أجاب بشكل آلي وهو يقارن بين بيتهم في العدامة وهذا البيت على الساحل. بيتهم مشاد بالطوب والإسمنت، وهذه البيوت مشادة بحجارة البحر. إنها أول مرة يرى فيها بيوتاً من هذا النوع عن قرب، رغم أن

سنوات حياته كلها في هذه المدينة. لم يرَ مثل هذه البيوت إلا لماماً في بعض مناطق كانوا يعبرونها، هو ووالداه، في نزهاتهم إلى القطيف وسيهات وصفوى، أو عندما يأتي هو وأصحابه إلى شاطىء البحر. ولأول مرة يعلم أنه لا يعرف مدينته تماماً، بل لأول مرة يتبين له أن مدينته ليست مدينة واحدة. وبتلقائية، ودون شعور، نظر إلى راشد قائلاً:

ـ على فكرة يا أستاذ راشد... هل أنت شيعي؟

وانتفض راشد، وكأن ماساً كهربائياً أصابه، قائلاً بحدة:

ـ كلا. كلا. لماذا؟

ـ لا شيء. لا شيء. أرجو المعذرة...

وندم على طرحه مثل هذا السؤال، وحاول الاعتذار مرة أخرى قائلاً:

ـ أرجو ألا تفهمني خطأ. لا فرق عندي بين هذا المذهب أو ذاك. بل إني لا أهتم بكل المذاهب الدينية. كانت مجرد خاطرة. أرجو المعذرة مرة أخرى...

نظر إليه راشد مبتسماً وهو يقول:

ـ لا عليك. ولمعلوماتك فإني سني. أقصد اني أنتمي إلى أسرة سنية قحة.

وأعجبته كلمة «قحة» والطريقة التي قالها بها راشد، إذ شدّد على حرف الحاء، وشد قبضته بقوة، مما دفع هشام إلى الابتسام لأول مرة منذ تقابلا عند المدرسة، ثم وبلهجة معتذرة، دعاه راشد إلى الدخول:

ـ أرجو المعذرة. تفضل. وعلى فكرة لا تناديني بالأستاذ راشد بعد

الآن. الأستاذ هناك في المدرسة. أمّا هنا فكلنا رفاق. قل لي يا رفيق.

وأجاب بهزّةٍ من رأسه، ثم دخل مع راشد من الباب الخارجي، فإذا هو مؤد مباشرة إلى درج عال ينتهي إلى غرفة مؤثثة تأثيثاً بسيطاً، بساط مقلم بالأحمر والأزرق يغطي أرضية الغرفة، صفت حوله بعض مساند القش الحمراء، وفي نهايتها باب صغير يؤدي إلى بقيّة المنزل. أشار راشد إلى موضع معين في الغرفة، داعياً هشام إلى الجلوس وهو يقول:

ـ بعد إذنك. دقيقة واحدة.

واتجه إلى الباب الصغير المؤدي إلى بقية المنزل. لم يغلق راشد الباب وراءه، فاختلس نظرة سريعة إلى الداخل، فرأى ممراً ضيقاً ينتهي بباب مفتوح نصف فتحة، كانت تقف وراءه امرأة تلبس «نفنوفاً» أخضر فضفاضاً، و «بطولة» سوداء لماعة، و «بوشية» سوداء تغطي رأسها وصدرها. . . لا بد أنها أمه. كان يحدث نفسه. اتجه راشد إلى تلك المرأة وغابا وراء الباب. وعلى جانبي الممر، ثلاثة أبواب، واحد على اليمين، وإثنان على اليسار. كان البيت صغيراً مقارنة ببيتهم، وتنتشر فيه رائحة مميزة عبارة عن مزيج من بقايا رائحة قلي وطبيخ، بالإضافة إلى رائحة بخور رخيص، وكل ذلك محاط برائحة البحر والرطوبة الخانقة. ومن سقف الغرفة، تتدلى مروحة قديمة كانت بيضاء، تنتشر عليها بقع سوداء صغيرة لا حصر لها من براز الذباب المنتشر في كل المكان. شعر بالحرارة والرطوبة بشكل لا يطاق، أحسّ بالإختناق، نهض من مكانه وأدار المروحة. أخذت المروحة تدور ببطء وتكاسل وهي تصدر أنيناً حاداً، ناشرة الرطوبة ورائحة المكان في كل مكان، دون أن تخفف من حدة الحرارة.

هذا المنزل يختلف كثيراً عن منزلهم ومنازل معارفهم. في منزلهم، يؤدي الباب الخارجي إلى شبه حديقة صغيرة. تنتهي الحديقة إلى درج بأربع درجات فقط، ثم يأتي باب المنزل الذي يؤدي إلى ممر صغير، يقع مجلس الرجال على جانبه الأيمن، و «المقلط»، أو «السفرة» على الجانب الأيسر. ينتهي الممر الصغير إلى باب يؤدي إلى صالة واسعة تتناثر حولها أربع غرف، غرفة نوم والديه، وغرفة نومه، وغرفة العائلة، وغرفة جلوس للنساء، بالإضافة إلى المطبخ والحمام العائلي، أمّا حمام الرجال فيقع خارج المنزل في الحديقة. وتنتهي الصالة بباب يؤدي إلى خلف المنزل حيث باب النساء على الشارع الفرعي. كل من يعرفهم، عدنان وعبد الكريم وغيرهم، يقطنون في منازل مثل منزلهم. أمّا هذا البيت فيبدو غريباً، رغم أن أصحابه من متوسطي الحال مثلهم، فهو يعرف أكواخ الفقراء في «كمب البدو» وعند مدخل الدمام من ناحية الظهران.

ـ عفواً. . . أرجو ألا أكون قد تأخرت!. قال راشد قاطعاً عليه أفكاره، وهو يحمل بين يديه صينية فضية عليها إبريق شاي ضخم مخطط بالأحمر والأخضر، و« بيالتين»، ووعاء بلاستيكي يحتوي على شيء أحمر لماع ورجراج لا يدري ما هو، وتحت إبطه كان يحمل مجموعة من الكتب. كان راشد قد خلع الثوب والغترة والطاقية، وارتدى «وزرة» مخططة باللونين الأزرق والأخضر، وقد ربطها بإحكام عند الخصر، وفانيلة بيضاء نصف كم. ولأول مرة يرى راشد حاسر الرأس، واكتشف أن للغترة مزايا كثيرة، أقلها إخفاء تلك المساحات الصحراوية في الرؤوس، فقد فوجىء بصلعة راشد رغم صغر سنّه.

وضع راشد صينية الشاي أمام هشام، وجلس قبالته، فيما اعتدل

هشام في جلسته، حيث كان متكئاً على أحد المساند وهو يقول:

ـ لا... أبداً... خذ راحتك.

وأخذ ينظر إلى ذلك الأحمر الرجراج في الوعاء البلاستيكي باستغراب. صبّ راشد الشاي، وتناول ذلك الوعاء البلاستيكي، وغمس ثلاثة من أصابعه فيه، واقتطع قطعة كبيرة وضعها في فمه وأخذ يلوكها بلذة ظاهرة، ثم قدم الوعاء لهشام قائلاً:

ـ تفضل... حلوى بحرينية لا مثيل لها.

وغمس هشام أصابعه في الوعاء متناولاً قطعة صغيرة أخذ يلوكها لبعض الوقت، مبدياً إعجابه بهز رأسه وهو يقول:

ـ فعلاً لذيذة جداً. مِمَّ تتكوّن؟

ـ الحقيقة لا أدري تماماً. أعتقد أنها من السكر والنشا والدهن والمكسرات والهيل. ما علينا، المهم أنها لذيدة وحسب.

ـ معك حق. المهم هو الطعم.

ـ أليس غريباً أن تكون دمامياً ولم تذق الحلوى البحرينية من قبل!

ـ الحقيقة لا أحد من معارفنا يعرفها.

ـ أكيد لستم من أهل الدمام الأصليّون؟!

ـ وهل للدمام أهل أصليون!

وضحك الإثنان وهما يعلكان الحلوى، ثم قال راشد وهو يغمس أصابعه مرة أخرى:

ـ البعض يصرّ على أنها حلوى عمانية. ولكن هناك فرق بين

الحلوى العمانية والبحرينية. الحلوى العمانية أدسم وأكثر هيلاً. ولكن البحرينية ألذ. . .

وهزّ هشام رأسه بآلية دون أن يعني ذلك له شيئاً. وأخذ الإثنان يرتشفان الشاي بهدوء وصمت، ويغمسان أصابعهما في الوعاء بين الفينة والفينة. كان كل منهما ينظر إلى الآخر وعندما تلتقي العيون، يغمسان الأصابع في الوعاء ويرتشفان الشاي. وأخيراً قال راشد:

ـ إن طعمها مع القهوة ألذ. . . هكذا تقول الوالدة. ولكني لا أحب القهوة العربية، بل أفضل الأميركية. أشربها كثيراً عند قريب لي يعمل في أرامكو ويسكن حي المنيرة. وخاصة عندما تكون بالحليب. يا سلام. . .

ـ وأنا كذلك لا أحب القهوة العربية، ولكن والدي يعشقها. . . إنه لا يذهب إلى العمل صباحاً إلا بعد أن يفرغ دلّة كاملة في جوفه.

ثم ضحك الإثنان ضحكة قصيرة، أعقبها صمت يتخلّله صوت رشفات الشاي، وتلك النظرات المتبادلة.

ـ على فكرة. . .

قطع راشد الصمت:

ـ لماذا سألتني عمّا إذا كنت شيعياً؟ هل للشيعي علامة تميّزه عن بقية الناس؟

يا للإحراج. . . ها هو يعود للموضوع.

ـ قلت لك مجرد خاطرة. كنت أقارن البيوت وظننت أن. . . أعتقد أني لن أستطيع إفهامك ما أقصد. عدم المؤاخذة.

ـ أنا لا أفهم ما تقصد.

ـ أرجوك. . . إنسَ الموضوع.

ـ لا بأس. . . على أية حال، نحن أصلاً من البحرين، أتينا الدمام منذ زمن بعيد. معظم أقاربي هناك. وكلهم من السنّة. . . ويقول جدي أن لنا علاقة قربى بآل خليفة من بعيد.

قال راشد بصوت فيه نبرة فخر واضحة. ثم أشعل سيجارة وأخذ رشفة من الشاي وقال:

ـ وأنت. . . من الواضح أنك لست شرقاوياً؟

ـ ليس بالضبط. . . أنا مولود هنا، أمي وأبي ولدا في القصيم ولكن معظم حياتهما هنا في الدمام.

وصمت الإثنان من جديد، فيما أخذ راشد يقلب تلك الكتب التي أتى بها، ثم قال وهو ينظر إلى هشام:

ـ هل قرأت هذه الكتب؟

ومدّ يده بالكتب إلى هشام، الذي تناولها وأخذ ينظر إلى العناوين. البيان الشيوعي، لكارل ماركس. . . ما العمل، للينين. . . الإمبريالية أعلى مراحل الرأسمالية، للينين أيضاً. . . أصول الفلسفة الماركسية، لجورج بوليتزر، وجي بيس، وموريس كافين. . . أصل العائلة والملكية الخاصة والدولة، لفريدريك أنجلز. . . ثلاثة مؤلفات لياسين الحافظ. . . وكتيب صغير بعنوان «المنطلقات النظرية لحزب البعث العربي الإشتراكي»، التي خرج بها المؤتمر القومي السادس للحزب عام ١٩٦٣. كان قد قرأ كل تلك الكتب، ماعدا مؤلفات ياسين الحافظ، والمنطلقات النظرية لحزب البعث. أعاد الكتب إلى راشد، محتفظاً بمؤلفات الحافظ والمنطلقات، مقلباً صفحاتها وهو يقول:

ـ سبق أن قرأت هذه الكتب، عدا الحافظ والمنطلقات... الحقيقة أني ميال إلى الفكر الماركسي.

ـ عظيم... رائع جداً.

صاح راشد بحماس:

ـ ولكن عليك قراءة الحافظ والمنطلقات. ذلك مهم جداً... وسوف نتناقش فيما قرأت في الإجتماع المقبل. يمكنك الإحتفاظ بهذه الكتب حتى لقائنا القادم.

ـ ومتى يكون ذلك؟

ـ ذات اليوم وذات الساعة من كل إسبوع في هذا البيت. لا أريد تأخيراً بعد اليوم، فالمناضل لا بدّ أن يكون دقيقاً.

قال راشد بلهجة آمرة استفزّته أول الأمر، ولكنه بقي صامتاً وهو يغلي من الداخل، مقلباً صفحات الكتب، كابتاً من خلالها انفعالاته.

ـ أنا المسؤول عنك منذ الآن... وأي شيء أقوله لك يجب أن تنفذه فوراً ودون مناقشة. نفذ ثم ناقش... هذا هو أول درس في التنظيم.

إستفزاز آخر.. لقد تعود أن يأمر فيطاع. يتحدث ويصمت الآخرون... هكذا كانت الأمور في المنزل ومع الأصدقاء.

ـ لا بأس... لا بأس.

ردّ بامتعاض، وفي داخلة تنور يغلي وأسف على ما فعله بنفسه. وساد صمت طويل، يشوبه طنين الذباب حولهما، وذاك الأنين الخافت الناعس القادم من المروحة.

ـ هذه نهاية جلستنا.

قال راشد:

ـ موعدنا الأسبوع القادم.

ونهض بسرعة وكأنه يطرده، هكذا تصور وهو الذي لم يعتد مثل هذه التصرفات. نهض بدوره وهو يشعر بالإهانة تمزّقه من الداخل... هو الذي ترك أصدقاءه من أجل أن يطرده «وجه العنز»... «أستحق أكثر من ذلك... أنا الجاني على روحي. على رأي المغني»، كان يحدث نفسه وهو يهبط الدرج في الطريق إلى الخارج، يتقدمه راشد.

ـ أرجو المعذرة...

قال راشد وهو يودعه عند الباب الخارجي، وكأنه أدرك ما يجول في خاطره:

ـ قد تعتقد أني غير مهذب، أو فظّ السلوك. ولكني أحاول أن أدرّبك على السلوك التنظيمي الصارم. نحن لسنا أصدقاء، وعلاقتنا ليست إجتماعية بحتة. نحن رفاق... وهي علاقة تسمو على كل علاقة، ولكن لها قيودها وحدودها التي قد لا تدركها الآن، ولكنك سوف تفهمها لاحقاً.

أنهى راشد كلامه، وهو يشد على يد هشام بقوة، مربتاً بيده الأخرى على كتفه. وابتسم هشام ابتسامة باهتة، وهو يشعر ببعض الراحة، وانسلّ إلى الخارج بسرعة. وعندما وصل إلى المنعطف المؤدي إلى شارع الإمارة، نظر خلفه نظرة أخيرة، فوجد راشد لا يزال واقفاً بالباب فلوّح له من بعيد بيده، ثم أغلق الباب، وغاب هو في تعرّجات الطريق.

ـ ١٦ ـ

في طريق العودة إلى المنزل، كان يتصور أن كل المارّة ينظرون إليه، ويعلمون من أين هو قادم وماذا كان يفعل. أخذ الكتب التي أعاره إياها راشد ودسّها في صدره، تحت الفانيلة بحيث التصقت بجلده المشبع بالرطوبة، وأسرع الخطى إلى البيت. حالما وصل، إنسلّ إلى غرفته بسرعة، وأغلقها خلفه، ثم أخرج الكتب بسرعة ووضعها في درج مكتبه وأقفل عليها بالمفتاح، وألقى بنفسه على السرير وهو يحاول إلتقاط أنفاسه وإعطاء قلبه فرصة للهدوء، وكل جسده يرشح بالعرق الممتزج بالرطوبة. وما هي إلا لحظات، إلا ومقبض الباب يتحرك، وصوت أمه يأتي من ورائه:

ـ هشام... افتح الباب... أنا أمك.

ونهض متجهاً إلى الباب وهو يحاول أن يكون هادئاً قدر ما يستطيع. فتح الباب ليظهر وجه أمه الدقيق وقد علته إمارات القلق:

ـ ما بك يا بني؟. خيراً إن شاء الله؟ ليست عادتك أن تعود من عند عبد الكريم دون سلام أو كلام، ولا تتجه مباشرة إلى التلفزيون... هل يؤلمك شيء؟

ـ لا شيء يا أمي... أنا متعب قليلاً اليوم فآثرت الراحة. أرجو المعذرة إن كنت سبّبت لك أي إزعاج.

هدأت أمه قليلاً بعد أن اطمأنّت أن كل شيء على ما يرام، ثم نظرت إليه نظرة خالها نظرة شك وهي تقول:

ـ وإغلاق الباب بالمفتاح! إنها ليست عادتك.

وأحسّ أنه يكاد ينهار، ولكنه تمالك نفسه وهو يقول:

ـ أحقاً أغلقت الباب بالمفتاح!. لم أشعر بذلك... لعله من أثر التعب. صدقيني يا أمي. كل شيء على ما يرام. هل عهدتني كاذباً؟.

ونظرت إليه أمه بحنان، وعادت البسمة إلى ثغرها، وقبّلته على وجنته، ثم قالت:

ـ هل حدث شيء في بيت عبد الكريم؟

ـ إطلاقاً... لا شيء إطلاقاً. المعتاد... سواليف وكيرم وبلوت. العادة.

ـ كيف حال أمه بالمناسبة؟

ـ بخير... بخير، وهي تبلغك تحياتها.

وأخيراً خرجت أمه، فتنفس الصعداء، وهو يحس بوخز في داخله، إذ إنها المرة الأولى التي يكذب فيها على أمه منذ أن كان طفلاً. وعاد إلى سريره حيث استلقى، شابكاً يديه تحت رأسه وهو يحدّث نفسه... لماذا هو خائف ومضطرب إلى هذه الدرجة؟ الكتب التي يحملها ليست أخطر مما جلب من عمان ودمشق وبيروت. الإلتقاء براشد؟ إنهم يلتقون عند عبد الكريم كل يوم تقريباً، ويتحدثون بما هو أخطر من حديث راشد... فلِمَ الخوف إذاً؟ ولكنه تنظيم سري... وشعر عند هذا الحد من التفكير بقشعريرة تسري في جسده. أي تنظيم هذا؟... لم يحدث شيء يوحي بتغيُّر شيء. مجرد حديث وقراءة، وهذا ما يفعله دائماً. كل ما في الأمر أنه قد أصبح لديه رفاق الآن بالإضافة إلى الأصدقاء. لولا تلك اللهجة الآمرة التي كان يحدّثه بها. وتوقف عند هذا الحدّ من التفكير وهو يحس بالإهانة ومرارتها من جديد. بقي مضطجعاً لفترة

طويلة، حتى أحسّ بالظلام يلفّه، وسمع صوت التلفزيون قادماً من غرفة العائلة مختلطاً بصوت والديه. نهض من السرير، أشعل النور، ثم فتح الباب واتجه إلى غرفة الجلوس حيث حيّا والده الذي لم يره منذ الصباح، واتخذ مجلسه المعتاد يشاهد التلفزيون دون أن يرى شيئاً، فيما كان والداه يتحدثان أحاديث عامة ويحتسيان فنجانين من القهوة التركية. كان المذيع يقدم برنامج «المسابقة الثقافية بين المناطق الثلاث»، حين هبّ واقفاً وهو يتجه إلى غرفته وعيون والديه تلاحقه دون تعليق. أغلق الباب وراءه، وفتح درج المكتب، وأخرج الكتب، ثم جلس على الأرض مستنداً إلى الجدار، وأخذ يقرأ...

- ١٧ -

أعجبته كتابات ياسين الحافظ وكذلك المنطلقات، إذ وجد فيها مزيجاً أخّاذاً ومثيراً من الماركسية والقومية. وجد فيها شيئاً كان يشعر أنه ينقص الكتابات الماركسية التي قرأ، وكذلك الكتابات القومية على اختلافها. فقد سبق له أن قرأ «في سبيل البعث»، لميشيل عفلق، وبعض كتابات منيف الرزاز وصلاح البيطار، والكتابات الناصرية القليلة مثل فلسفة الثورة، لجمال عبد الناصر، وكتابات أنور السادات حول ثورة يوليو وعبد الناصر، وكذلك «بصراحة» محمد حسنين هيكل التي ينشرها في جريدة الأهرام كل يوم جمعة، ويستمع إليها من خلال إذاعة «صوت العرب» من القاهرة، فقد كانت الأهرام ممنوعة من الدخول في بلده. كانت الكتابات الماركسية تركز على المسألة الاجتماعية والأممية، وبقدر ما كان متحمساً للمسألة الاجتماعية ومؤمناً بها، بقدر ما كان متردّداً بشأن

المسألة الأممية. إنه يشعر أنه قومي حتى النخاع، والقومية تسري في عروقه. تهزّه خطابات جمال عبد الناصر، وتثمله الشعارات القومية التي يطلقها البعثيون والناصريون والقوميون العرب. ولكن رغم ذلك، كان يحس أن هنالك شيئاً ناقصاً، كان يشعر أن هؤلاء لم يعطوا المسألة الإجتماعية حقها من الإهتمام، وخاصة قضايا مثل الصراع الطبقي والإشتراكية العلمية والحتمية التاريخية. ولذلك اعتقد أن الفكر الماركسي، رغم بعض التحفظات، هو الذي من الممكن أن ينير الطريق ويعطي فلسفة متكاملة للحياة. أعجبته كتابات الحافظ والمنطلقات لأنها تمزج المسألة القومية بالإجتماعية، جامعة ما يشعر بميل إليه في فلسفة واحدة. أعجبه اكتشافه الجديد، وصمّم على الذهاب إلى راشد في الموعد المحدّد لمناقشته في هذا الاكتشاف والحصول على كتب أخرى.

عندما قابل راشد في الموعد المحدّد، أعاد إليه الكتب مبدياً إعجابه بمضمونها، طالباً المزيد. ولم يبخل راشد... أعطاه كتباً أخرى لياسين الحافظ، بالإضافة إلى مؤلفات لعلي صالح السعدي والياس فرح وآخرين. قرأ كل ذلك بحماس شديد، مناقشاً راشد في أطروحاتهم خلال الجلسات التالية، ناسياً خوفه من حكاية التنظيم، إذ وجد أن المسألة لا تعدو أن تكون جلسات قراءة ونقاش، وماذا يريد هو أكثر من ذلك؟

ذات يوم، كان جالساً مع راشد في إجتماعهم المعتاد، وكانا يتناقشان في فشل مشروع البرجوازية الصغيرة في أعقاب النكسة، وضرورة وجود مشروع ثوري جديد يعبّر عن فكر وآمال الطبقات المسحوقة من عمّال وفلاحين والمتحالفين مع هذا المشروع من مثقفين وغيرهم. كان هشام يتحدّث بحماس حول هذه النقطة، وكان راشد

يستمع إليه بانتباه شديد، أو هكذا خاله هشام، شابكاً يديه حول ركبته اليسرى المنتصبة، تاركاً رجله الأخرى ممدودة باسترخاء، وقد انحسر الإزار عن ساقيه الناحلتين، غير شاعر أن جزءاً من عورته كان مكشوفاً، مما جعل هشام يشعر ببعض الإحراج وهو المواجه له، دون أن يكون قادراً على تنبيهه دون إحراج. إستمر هشام في حديثه، محاولاً النظر إلى راشد في عينيه مباشرة، ثم فجأة اعتدل راشد في جلسته، وأضفى إزاره على ساقيه، وقاطع هشام قائلاً:

ـ هشام... ما رأيك بحزب البعث العربي الإشتراكي؟

توقف هشام عن الحديث، مأخوذاً بالمفاجأة، مثل سيارة ارتطمت بحائط من الإسمنت برز لها فجأة... وبعد شيء من التردّد قال:

ـ أعتقد أنك تعرف موقفي. لقد سبق أن تحدثنا في الفكر القومي.

ـ صحيح... ولكني أريد جواباً أكثر تحديداً. قل لي بصراحة... ما رأيك في الحزب؟

فكّر قليلاً، ثمّ قال:

ـ بصراحة... لا تعجبني أفكار عفلق والبيطار والرزاز. أعتقد أنها عاطفية أكثر من اللزوم، رغم إيماني بإطارها العام. نحن بحاجة إلى فلسفة متكاملة. وأعتقد أن الماركسية هي الحل رغم النواقص التي من الممكن إكمالها.

وابتسم راشد وهو يقول:

ـ ومن ذكر عفلق وصحبه...؟

وبانت علامات الدهشة على وجه هشام، وتساءل بتعجب:

ـ كيف تتحدث إذن عن البعث دون عفلق. إنهما شيئان متلازمان. أليس كذلك؟.

ـ ليس بالضرورة...

أجاب راشد وهو ينفث دخان سيجارته في الهواء، تاركاً للمروحة توزيعه في كل مكان، ثم قال:

ـ ألم تقرأ المنطلقات؟. ألم تقرأ ياسين الحافظ؟... ما رأيك بكل ذلك؟

أحسّ هشام بالحرج، وأخذ يحدث نفسه: «ما أغباني... كل شيء كان واضحاً في المنطلقات»، ثم قال بتلعثم واضح ووجه قد تورد قليلاً:

ـ سبق أن أبديت لك إعجابي بكل ذلك.

ـ هذا هو فكر البعث الجديد... وكما ترى، فإنه لا علاقة له بعفلق إلا من حيث التأسيس، ولم يكن هو الوحيد في ذلك. أما بعد ذلك فالأمر مختلف.

قال راشد وقد جلس القرفصاء، شابكاً رجليه، ثم أعاد السؤال:

ـ ما رأيك بحزب البعث؟

تردّد قليلاً قبل أن يقول:

ـ إذا كان ما في المنطلقات هو فكر البعث، فإني أجد نفسي فيه، فهو يمزج القومية بالماركسية... وهذه هي قناعاتي.

ـ إذاً ما رأيك بالانضمام إلى الحزب طالما أن فكره هو فكرك؟

قال راشد ذلك ثم ركّز عينيه في عيني هشام، مادّاً عنقه إلى الأمام. أوجس بعض الخوف هذه المرة، ولكنه خوف لا يقارن بذلك الذي انتابه

عندما فاتحه منصور بالتنظيم أول مرة. بل إنه عندما أخذ يفكر بالأمر، شكّ في ذكائه، إذ من المفروض ألاّ يفاجأ بمثل هذا العرض، فقد كانت الكتب التي يعطيه إياها راشد، والمناقشات بينهما، تدور حول البعث من بعيد. صحيح أن عفلق وصحبه كانوا خارج الصورة، ولكن يبدو أن المسألة لها علاقة بالبعثيين الآخرين. «يا لي من غبي... كان من المفروض أن أفهم».

ـ لم تقل لي... ما رأيك؟

قال راشد مستعجلاً الرد، فنظر إليه هشام وهو يبتسم نصف ابتسامة قائلاً:

ـ كنت أعلم من البداية أن المسألة لها علاقة بالبعث. ياسين الحافظ والمنطلقات وغير ذلك... ولكني لم أشأ مناقشة الأمر قبل أن تبدأه أنت.

نظر إليه راشد بعينيه الصغيرتين متمعناً لبرهة، ثم ابتسم على امتداد فيه وهو يقول:

ـ وأنا كنت أعلم من البداية أنك شاب ذكي ولا تفوتك مثل هذه الأشياء. والآن... هل تنضم إلى الحزب؟

ـ ولم لا... لا أجد شيئاً ضد قناعاتي. كما أني عضو في التنظيم على أية حال.

أجاب دون حماس ودون تردد أيضاً. وابتسم راشد إبتسامة واسعة، ومدّ يده إلى علبة «أبو بس» وتناول منها سيجارة أشعلها وأخذ منها نفساً عميقاً، ثم نفث الدخان بطرف فيه إلى سماء الغرفة، مضيفاً مزيداً من

رائحة جديدة إلى رائحة السمك والبخور والرطوبة، ثم أخذ يردّد بصوت شبه هامس:

ـ «رائع... رائع»، وواصل التدخين بنهم وهو ينظر إلى هشام بعينين إزداد اتّساعهما، ثم قال:

ـ إذاً... الأسبوع القادم. وفي الموعد نفسه، سوف ينضم إلينا رفيق جديد... سيكون هو المسؤول عنك من الآن فصاعداً. وسوف يأخذك إلى خليتك.

وصمت راشد برهة، فيما كان هشام شابكاً يديه حول ركبتيه يستمع بصمت واستسلام، ثم واصل راشد الحديث قائلاً:

ـ ومن الآن فصاعداً يجب أن يكون لك إسم حركي تعرف به بين الرفاق. إذ لا يجوز أن يعرف بعضهم بعضاً بأسمائهم الحقيقية.

وهنا تساءل هشام:

ـ إسم حركي!... ماذا يعني ذلك؟

وضحك راشد ضحكة قصيرة بزهو، فيما كان إحساس المهانة يعاود هشام، ثم قال:

ـ الاسم الحركي يا رفيق مثل القناع الذي تضعه على وجهك كي لا تعرف. نحن نستخدمه لدواعي الأمن. والآن... هل تختار إسماً حركياً أو أختار لك؟

وانتفض هشام وهو يقول بحزم:

ـ كلا... بل أختار أنا.

ـ لا بأس... ماذا تختار؟

قال راشد وهو يحاول خنق ضحكة كادت تفرّ من فيه، وبدأ هشام، الذي أخذ شعور المهانة يتعاظم في داخله، في التفكير بإسم حركي، ولا يدري لماذا خطر اسم أبي هريرة على ذهنه تلك اللحظة، فقال بسرعة:

ـ أبو هريرة... نعم. أبو هريرة. هذا هو إسمي الحركي.

ـ ولماذا أبو هريرة؟ لمَ لا تختار واحداً من أسماء المناضلين. غيفارا، كاسترو. أم أنك معجب بأبي هريرة؟

قال راشد ذلك وأطلق سراح ضحكته المكتومة، فأحسّ هشام بنصل يخترق أمعاءه، والدماء تتدفق بشدّة إلى رأسه، ولكنه ضبط نفسه وقال بصوت حاول أن يكون هادئاً ما أمكن:

ـ أعتقد أنه إسم جيد... هل هناك مانع؟

قال ذلك بصوت لا يخلو من سخرية مكتومة، فيما عبس وجه راشد وهو يقول:

ـ على الإطلاق... يا رفيق أبو هريرة.

ثم نهض راشد معلناً نهاية الجلسة كالمعتاد، ونهض هشام معه واتّجها نحو الدرج في الطريق إلى الخارج. وعند الباب الخارجي، قال راشد وهو يودعه:

ـ سوف يكون الأسبوع القادم آخر لقاء بيننا.

ـ كان الله في العون...

ـ قال هشام بتلقائية، وهو يتحرك غير ملتفت إلى الوراء، شاعراً بلذة خفية وهو يدوس كتل الرمل المالحة في الطريق، ويصل صوت تفتتها إلى أذنيه وكأنه إحدى سيمفونيات شوبان أو فاجنر.

- ١٨ -

ـ ها قد وصلنا شارع الشميسي القديم. . . أين تريد بالضبط؟ أتاه صوت سائق سيارة الأجرة قادماً من بعيد، مخرجاً إياه من ذلك الشريط الذي كان يمرّ أمام عينيه بسرعة رهيبة، وكأن كل ما حدث لم يكن إلا حلماً في إغفاءة قيلولة، أو شيئاً ابتدأ وانتهى في يوم أو بعض يوم. نظر حوله مستكشفاً المكان، ثم أشار إلى مسجد غير بعيد، في منتصف المسافة تقريباً بين المقيبرة والمستشفى المركزي، وهو يقول:

ـ هل ترى ذلك المسجد. . . أدخل الشارع المقابل له مباشرة على اليسار.

وسار السائق متجهاً إلى حيث أشار، ثم دخل شارعاً ترابياً ضيّقاً، فيما كان هو يحاول تذكر موقع بيت خاله، إذ إنه لم يأتِ منزل خاله إلا مرتين مع والديه وهم في طريقهم إلى زيارة جده في القصيم. استمرّ السائق في سيره مثيراً زوبعة من الغبار خلفه، وبعض الصبية يجرون وراء السيارة مستمتعين بالغبار وقد علت ضحكاتهم. ومن بعيد، لاح له محل إسطوانات الغاز الذي يقع أسفل منزل خاله، أشار للسائق قائلاً:

ـ أرأيت دكان الغاز هناك. . . توقف عنده بالضبط. إذا سمحت.

توقف السائق عند المنزل، مثيراً مزيداً من الغبار مع استخدام الفرامل، حيث ترجل هشام من السيارة، وكذلك السائق الذي فتح شنطة السيارة تاركاً له مهمة إنزال حقيبته بنفسه. أنزل الحقيبة، ثم دفع للسائق أجرته بامتعاض، الذي أخذها وعاد إلى سيارته مغمغماً: «مثل هذا المشوار يستحق أربعة ريالات. يالله. . . الرزق على الكريم. . .»، ثم تحركت السيارة مثيرة الغبار من جديد. حمل هشام حقيبته بتثاقل، واتجه

إلى بوابة حديدية صغيرة غير بعيد عن محل الغاز، كانت الباب الخارجي لمنزل خاله. طرق الباب وانتظر، ولكن ما من مجيب. طرقه مرة ثانية بقوة هذه المرة، وما من مجيب أيضاً. . . «مصيبة إن كانوا مسافرين»، قال لنفسه وقد بدأ القلق يتسرّب إليه. وقبل أن يطرق المرة الثالثة، أتاه صوت خافت من وراء الباب قائلاً:

ـ مين. . . من الطارق؟

ـ أنا. . .

ـ من أنت؟

ـ هشام العابر.

وانفرج الباب إنفراجة ضيقة، محدثاً صريراً حادّاً، وأطلّ منه رأس فتىً تجاوز الحادية عشرة من العمر، شديد السمرة، أجعد الشعر قصيره، ووجه دقيق الملامح وسيمها. . . «لا ريب أنه سعيد»، قال لنفسه وهو ينظر إليه. سعيد. . . «صبي» خاله الأرتيري الذي رباه منذ الصغر، بعد أن جاء مع عمه، صاحب محل الغاز، من اسمرة. كان لا يزال طفلاً لا يتجاوز الخامسة من العمر، وكان عمه غير قادر على رعايته، فضمّه خاله إلى عائلته. لقد رآه آخر مرة في زيارته السابقة للرياض قبل ثلاثة أعوام، ولكن ها هو قد كبر الآن وأخذ يقترب من سن الشباب.

ـ أنا هشام. . . إبن اخت «عمك». . . ألم تعرفني؟.

نظر إليه سعيد بلا مبالاة، وفتح الباب على اتّساعه بصرير مرتفع قائلاً:

ـ تفضل. . . عمي غير موجود الآن.

وقاده سعيد إلى المجلس، على الجهة اليمنى من الممر المؤدي إلى

«الحوش» حيث تنتشر غرف الأبناء، محمد وحمد وأحمد وعبد الرحمٰن. أما الوالدان والبنات، منيرة وموضي، فقد كانت غرفهم في الدور الثاني المطل على الحوش، الذي يجمع العائلة في مختلف المناسبات. ففيه يتشمس من يريد الدفء أيام الشتاء الباردة، وفيه يجتمع ذكور العائلة في رمضان لتناول طعام الإفطار، وذلك حين يكون رمضان في الصيف أو الربيع، أمّا في الشتاء، فيكون إفطار الذكور في المجلس حيث هو الآن، والإناث، في غرفة الوالدة في الدور الثاني، أو في المطبخ الفسيح خلف الحوش. بعض الأحيان كان الوالدان يتناولان التمر والقهوة سوياً في غرفة الوالد أو الوالدة، ولكن الوجبات الرئيسة دائماً تكون بانفصال كامل، وذلك شيء لم يتعود عليه مع والديه، رغم أنه يعرفه.

جلس غير بعيد عن الباب، متكئاً على أحد المساند الفاخرة المصفوفة بترتيب وأناقة حول جدران المجلس، على سجادة أصفهانية حمراء، بنقوش صفراء وزرقاء، تغطي كافة الأرضية. أحسّ ببعض الراحة وهو يستقبل نسمات الهواء الذي توزعه المراوح الثلاث البيضاء المتدلية من السقف. هواء المراوح منعش ولذيذ هنا، وليس مثل الدمام. فالجو في الرياض جاف والبيوت مشادة بالطين، العازل الطبيعي للحرارة. فهو يمنع الحرارة من الدخول في أشهر الصيف اللاهبة، ومن الخروج في أشهر الشتاء القارصة. أحسّ بالخدر يسري في جسده، وأغفت عيناه قليلاً بفعل التعب وتلك النسمات الرقيقة القادمة من فوق. لم يفق من إغفاءته إلا على صوت أحدهم مرحباً:

ـ حيا الله من جاء... الحمد لله على السلامة... حيا الله إبن العمة.

فتح عينيه، ونظر بخدر إلى الوجه الباسم المنحني عليه وابتسم...

لكم يحب عبد الرحمٰن، أصغر أبناء خاله. شاب في مثل عمره تقريباً، ولكنه أطول وأوسم وأفتح بشرة، وإن لم يكن في مثل ثقافته أو اهتمامه بالشؤون العامة، وكان ذلك يجعله يحس بالتفوق عليه عندما يقارن بينه وبين إبن خاله، فتكون النتيجة في غير صالحه. بل لم يكن عبد الرحمٰن يهتم إطلاقاً بالثقافة أو الشؤون العامة، فقد كان محباً للحياة مقبلاً عليها، لا هم له إلا «الوناسة» والنزهات والرحلات إلى «البر» مع الأصدقاء، ولعب «البلوت» ومغازلة الفتيات في سويقة وشارع الوزير. لا تهمه الدراسة، ولذلك كان بالكاد ينجح، عندما ينجح، مما كان يثير حنق والده عليه وغضبه، وأحياناً كان يهمّ بضربه، ولكنه لا يفعل لطيبة مفرطة فيه، وتتدخل الوالدة بعض الأحيان.

ـ حيا الله إبن الخال... كيف حالك وكيف حال الجميع؟.

قال هشام بحبور وقد اتّسعت ابتسامته، ثم نهض وتعانق هو وابن خاله، وجلسا جنباً إلى جنب، وهشام يقول:

ـ أين خالي...؟

ـ إنه في المسجد.

ـ المسجد!... ولكن الوقت ليس وقت فريضة؟

ـ أنت لست غريباً عن خالك. فقلبه معلق بالمساجد. يذهب قبل الفرض ويبقى بعده.

ـ إنه رجل خيّر لا شك. لم أرَ له مثيلاً.

خاله، عبد العزيز المباركي، رجل لا مثيل له فعلاً. الأخ الأكبر والوحيد لأمه، جاب كل مكان واستقرّ به المقام في الرياض. لم يحتمل الإقامة في القصيم، حيث عاش جده لأمه أخريات أيامه، فسافر إلى

الكويت وقضى هناك بضع سنوات، عاد بعدها إلى القصيم. ولكنه لم يلبث إلا قليلاً ثم سافر إلى مصر والعراق والشام والأردن وفلسطين تاجراً، بعد وفاة أبيه. وأخيراً ألقى مراسيه في القصيم مستقراً، حيث تزوج وأنجب محمد وحمد. وعندما كانت زوجته حاملاً بابنته منيرة، إنتقل إلى الرياض حيث حصل على وظيفة حكومية طيبة، وتوقف عن الترحال حين ازداد عدد الأبناء وكثرت المسؤوليات. في الرياض، جاء أحمد ثم موضي وأخيراً عبد الرحمٰن.

كان «يدردش» مع «دحيّم» حين دخلت إمرأة تضع «الشيلة» السوداء على رأسها ووجهها وهي تقول بصوت حاد ومرتفع قليلاً وبعجل:

ـ حيا الله من لفا... حيا الله القاطعين. وأنا أقول ليش الرياض منوّر.

نظر هشام إلى القادم، فعرف فيه ابنة خاله موضي. لم يرَ وجهها منذ سنوات، إذ إنها تحجبت منذ أن بلغت الحلم، وتحجبت عنه منذ أن بلغ الحلم. كانوا يأتون إلى الدمام في إجازات عيد الفطر، وأحياناً في الأضحى والصيف، عندما لا يسافرون إلى القصيم أو الطائف، حيث ينتقل الوالد طوال أشهر الصيف مع إنتقال الحكومة هناك، وتذهب العائلة معه بعض الأحيان. ويذكر أنه كان يسر جداً من زياراتهم للدمام، يلعب هو وموضي وعبد الرحمٰن، ويتفرجون على تلفزيون أرامكو وتلفزيون المطار التابع للقاعدة الأميركية، وأحياناً إيران حين تكون الرطوبة شديدة، ويسبحون في المياه الضحلة على شاطىء «هاف مون باي»، أو هاف بمبي كما كانوا ينطقونها، والعزيزية. أما ألذّ نزهة بالنسبة لهم، فقد كانت عندما يزورون «الشبك» في الظهران حيث يتفرجون على تلك الشوارع الفسيحة النظيفة، والأشجار الباسقة والبيوت الأنيقة،

والنساء الأميركيات وهن يقدن تلك السيارات الفارهة ويرتدين «الشورت» الضيق. ولا زال يذكر تعليقات موضي وهي تنظر إلى «الأميركانيات» بحسرة قائلة: «ايه... هذول هن الحريم... مهوب حنا... كش علينا.»، ثم تغطي كامل وجهها بكامل كفها. ورغم مرور كل تلك السنين، فهو لا يزال يذكر تقاطيع وجهها. لم تكن جميلة لافتة للنظر، ولكنها كانت «مملوحة»، فيها شيء جذاب رغم أنها أقل إخوتها بياضاً، بل كانت سمراء في الحقيقة. عرفها حين دخلت، رغم الخمار الذي يخفيها، من قوامها الممشوق، ونبرة صوتها، وطريقة كلامها.

هبّ واقفاً عندما رآها قادمة، ومدّ يده لتقابل يدها الممدودة وهو يقول:

- أهلاً بإبنة الخال... كيف الحال يا موضي؟

- بخير وعافية. كيف الأهل في الشرقية؟

- يسلّمون على الجميع... بكل خير وعافية.

وانتهى حديث المجاملات، واتجهت موضي عائدة إلى داخل البيت وهي تقول:

- سوف يكون الشاي جاهزاً بعد لحظات.

وغابت وراء الباب تاركة أثراً من عطر خفيف يدل على أن أنثى كانت لتوها هنا، فيما استمرّ هو في حديثه مع عبد الرحمٰن وأثر الرائحة لا يزال في أنفه:

- أين البقية؟

تساءل هشام:

ـ أين محمد وحمد وأحمد ومنيرة؟

ـ محمد لديه «أوفر تايم» في الوزارة، وحمد مع أصدقائه كالعادة، وأحمد نائم في غرفته.

ـ نائم!... في هذه الساعة!

ـ هذا هو أحمد... لا يشبع من أي شيء.

ـ ومنيرة؟

ـ ألم أقل لك؟

قال «دحيّم» وهو يعتدل في جلسته، وقد انطلق وجهه عن بسمة واسعة:

ـ لقد تزوجت «منيرة»... وانتقلت للعيش مع زوجها في جدة. أنت تعرف زوجها، إنه إبن خالي، ناصر الصويفي.

ـ نعم... نعم. منذ متى ذلك؟

ـ من حوالى شهرين.

ـ ولا تخبرونا. كأننا لسنا أهلاً...

ـ لقد كان زواجاً سريعاً. ولم يكن هنالك إحتفال كبير. شي على الطاير... أنت تعرف خالك، فهو لا يحب الإسراف والبذخ والمظاهر. حاولنا إقناعه أن حفلة الزواج ليست بذخاً، ولكنه أصرّ على مأدبة صغيرة قاصرة على أهل العريس والعروس المباشرين.

حظيظ هو من يتزوجك يا منيرة... إنه لا زال يذكرها حتى الآن. يذكر ذلك الوجه البيضاوي، وتلك العينين الدعجاوين، والشفتين المكتنزتين القرمزيتين اللتين تكشفان عن عقد من اللؤلؤ حين تبتسم...

يذكر ذلك الجسد البض الممتلىء اللافت للنظر رغم قصره. يذكر ذلك الشعر الفاحم المنسدل ضفيرتين طويلتين تصلان إلى حدود الأرداف. يذكر كل ذلك منذ أن كان مسموحاً له الإختلاط «بالحريم». إذاً فقد تزوجت منيرة... يا لك من رجل محظوظ يا ناصر!

ـ ما لنا وللجميع... أخبرني عن نفسك؟

قال عبد الرحمٰن وقد برقت عيناه ببريق غامض، وافترّ ثغره عن ابتسامة غريبة.

ـ لا جديد يستحق... أنهيت الثانوية وحصلت على التوجيهية، وسوف أقوم غداً بتقديم أوراقي لكلية التجارة، وسوف أمكث عندكم السنة الأولى من الدراسة حتى أستطيع تدبير أموري بعد ذلك... لا شيء يستحق الذكر حقاً.

ـ ولماذا لا تمكث معنا طوال سني الدراسة. المنزل واسع... وسوف نستمتع سوياً.

قال عبد الرحمٰن وقد اتسعت ابتسامته، غامزاً لهشام وهو يقول:

ـ أنت تعرف ما أعني.

وشعر هشام بالحرج، فهو على دراية بمغامرات «دحيم»، فحاول تغيير الموضوع قائلاً:

ـ نعم... نعم. على فكرة أين الوالدة أريد أن أسلّم عليها.

ودون إكتراث، قال عبد الرحمٰن:

ـ إنها في القصيم تزور خالي المريض.

ثم غيَّر عبد الرحمٰن جلسته بسرعة، وكأن عقرباً لدغه، وهو يقول بحماس:

على ذكر الوالدة. لقد جعلتها تضغط على الوالد حتى اشترى لي سيارة. نعم مستعملة، ولكن أفضل من لا شيء. أحمد ليس أفضل مني.

ثم وعيناه تبرقان من جديد:

ـ أستطيع الآن الذهاب إلى أي مكان أشاء. إن السيارة نعمة. . .

ثم وهو يقترب كثيراً من هشام حتى كادت الرؤوس تتماس:

ـ الأسبوع الماضي كنت أجلس على عتبة ال. . .

وقبل أن يكمل حديثه، كان سعيد قد أقبل بالشاي، فقطع عبد الرحمٰن الحديث، وتناول الشاي منه، آمراً إياه بالإنصراف. صبّ عبد الرحمٰن الشاي على عجل، وقدم بيالة لهشام وهو يواصل حديثه الهامس:

ـ الأسبوع الماضي كنت أجلس على عتبة البيت بعد العصر، لم يكن لدي شيء أفعله، ولا نفس لي في أي شيء. وفجأة مرت فتاة، فأخذت أنظر إليها، وعندما مرت من أمامي مباشرة، نظرت إليّ من وراء «غدفة» رقيقة جداً لا تكاد تستر شيئاً من وجهها. لقد كانت مملوحة جداً. ابتسمت لي، وبدون شعور تبعتها وأنا أراقب إهتزاز ردفيها. آه يا هشام. منظر يدمي القلب.

وتوقف عبد الرحمٰن عن الكلام وقد تهدجت أنفاسه، فأخذ رشفة من الشاي وقال:

ـ المهم يابو الحبايب. سرت وراءها حتى وصلت إلى منزل ليس بعيداً من هنا. . . فتحت الباب ودخلت ثم أغلقته وراءها. أحسست بالخيبة، وأردت العودة، ولكن ما هي إلا برهة إلا وقد أطلت من الباب وأشارت لي بالاقتراب منادية إياي باسمي: «عبد الرحمٰن. يا

عبد الرحمٰن. . .» بصوت منخفض وهي تتلفت يمنة ويسرة وإلى الداخل. دنوت منها فقالت بعجل: «اليوم، بعد صلاة العشاء، سأترك الباب مفتوحاً قليلاً، أدخل وسوف تجدني بانتظارك. . . مع السلامة الآن»، وأغلقت الباب.

وتوقف عبد الرحمٰن عن الكلام، وشرب رشفة من الشاي، تاركاً هشام في حال شديدة من الإثارة، وهو يستحثّ عبد الرحمٰن على إكمال القصة. صبّ عبد الرحمٰن لنفسه بيالة شاي أخرى، فيما كانت بيالة هشام لا تزال مملوءة إلى النصف تقريباً، ثم قال:

ـ بعد صلاة العشاء، ذهبت إلى منزلها، والحقيقة كنت متردّداً أول الأمر، ولكني جزمت في النهاية وتوكّلت على الله. وجدت الباب مفتوحاً كما قالت، دخلت وأطرافي ترتجف والعرق يغرقني، أغلقت الباب ورائي، ولم أشعر إلا وشيء يجذبني إلى الداخل. . . كدت أن أقع مغمياً عليّ، ولكني سمعت صوتها يقول: «من هنا. . .»، فعادت إليّ الروح.

شرب عبد الرحمٰن جرعة أخرى من الشاي، وأنفاسه تتلاحق:

ـ قادتني إلى غرفة صغيرة جداً بجانب الباب حيث دخلنا ثم أغلقت الباب وهي تقول: «الجميع يشاهدون التلفزيون في الجانب الآخر من المنزل. . . هذه فرصتنا»، ثم احتضنتني بقوة، فأحسست بلدونة جسدها وحرارته تكاد تحرقني، ووضعت شفتين مكتنزتين رطبتين على فمي، ثم سحبتني إلى داخل الغرفة. تلاشى خوفي واضطرابي ولم أعد أشعر إلا بهذا التنور الذي بين يدي.

ـ ولكن كيف عرفت اسمك؟

تساءل هشام بشيء من الشك.

ـ أنت تشك فيما أقول، أليس كذلك؟.. إذاً لن أكمل.

فاعتذر هشام ورجا عبد الرحمٰن أن يكمل، فقد كان في غاية الإثارة، الذي تمنع قليلاً ثم واصل قائلاً، ويده بين فخذيه:

ـ لقد سألتها عن ذلك، فقالت إن جميع الجيران في الحارة يعرفون الشيخ عبد العزيز المباركي وأبناءه... وأنها هي بالذات كانت تترقب الفرص للتعرف عليّ، حتى جاءت الفرصة ذلك الأصيل.

قال عبد الرحمٰن بشيء من الخيلاء وشت به نبرات صوته.

ـ المهم يابو الحبايب... شعرت أن كل شيء في جسدي قد توتر لدرجة الإنفجار. أحسست أن ثيابي غير قادرة على إحتواء هذه التوتر... خلعت كل ملابسها، ثم اضطجعت على بساط قديم ملقى على أرض الغرفة. آه يا بو الهواشم... ماذا أقول لك. أخذت أنظر إلى كل جزء فيها محاولاً تبين كل ذلك في النور الخافت القادم من «الطاقة» العلوية في الغرفة... وتوقف نظري عند ذلك المثلث المظلم. إزداد توتري... خلعت ملابسي... اضطجعت عليها... لم أستطع أن أفعل شيئاً. ضحكت ضحكة مكتومة وقالت بهمس: «أكيد عليمي... ومسوي لي مغازلنجي»، ثم تحركت وأضجعتني على ظهري، واضطجعت علي. ثم لم أشعر إلا وقد غرقت في بحر من الرطوبة والحرارة واللذة التي لا توصف. أحسست بنفسي تخرج من نفسي عدة مرات قبل أن نفترق. آه يا هشام... لقد كانت لحظة لا توصف.

عندما أنهى عبد الرحمٰن حديثه، كان هشام في حالة لا توصف من التوتر والإنفعال. كان يحس بأتون يغلي في داخله، وحرارة تكاد تحرق

جسده. كان كل شيء فيه قد توتر، مما دفعه إلى ضم فخذيه بقوة إلى بعضهما. إنتظر بعض الوقت حتى يسكن جزء مما به، ثم سأل عبد الرحمٰن:

ـ هناك شيء يحيرني... كيف استطعت أن تضاجعها، إذا كانت لا تزال عذراء. لقد إستشفيت من كلامك أنها تعيش عند أهلها. أي أنها عذراء!

وثار عبد الرحمٰن في وجهه:

ـ أنت غير مصدق ما أقول... ومن قال لك إن كل من تسكن عند أهلها عذراء! وعلى أية حال، فهي مطلقة وصغيرة السن، وتحتاج إلى المال. لدي موعد معها بعد غد... وسأريك إياها كي تصدق.

ـ لا يا عم... لا تورني ولا أوريك. أنا مصدق. بارك الله لك فيها. ولكن لم تقل لي، كيف استطعت أن تو...

ولم يكمل جملته، إذ وصل إلى سمعه صوت خاله عائداً من المسجد وهو يسبح: «سبحان الله والحمد لله والله أكبر... استغفر الله العظيم من كل ذنب عظيم.»، وما هي إلا لحظة، وأطل وجه خاله... رجل فارع الطول، نحيف البنية، سمح الوجه، بلحية قصيرة أنيقة شديدة البياض، وشارب محفوف بشكل ظاهر، وجبين واسع تظهر في وسطه دائرة صغيرة داكنة. هبّ واقفاً عند رؤية خاله، واتجه إليه مسرعاً، وقبّل جبينه، فيما كان عبد الرحمٰن واقفاً بدوره وقد حيّا أباه قائلاً بأدب جمّ وهو منكّس رأسه: «مساك الله بالخير يا أبي» الذي ردّ مغمغماً: «مساك الله بالرضا والعافية»، ثم بقي واقفاً للحظات سائلاً فيها هشام الأسئلة التقليدية عن أمه وأبيه والصحة والأحوال، ثم التفت إلى عبد الرحمٰن،

الذي كان لا يزال واقفاً بأدب جم، منكساً رأسه، شابكاً كفيه في وسطه، قائلاً:

ـ هل صلّيتم المغرب؟

ـ الحقيقة يا أبي لم نستطع الذهاب إلى المسجد، فصلينا هنا.

أجاب عبد الرحمٰن متلعثماً. وبان الإمتعاض على وجه الخال الذي قال:

ـ لا بأس من الصلاة في المنزل في حال الضرورة، ولكن الصلاة في المسجد أفضل وأجزى وأوجب... أرجو أن لا يتكرّر ذلك مرة أخرى.

واستدار الخال متجهاً إلى داخل المنزل دون أن ينتظر جواباً، حيث سيقرأ «الورد» المخصص لهذا اليوم قبل أن يعود إلى المسجد مرة أخرى. وعاد هشام وعبد الرحمٰن إلى مجلسهما، وقد بان الضيق في وجه عبد الرحمٰن الذي قال بتبرم:

ـ كل شيء جيد في والدي إلا حكاية المسجد هذه. وكله كوم وصلاة الفجر كوم.

ـ لا تكن متبرماً... خالي من خيار هذا الزمان. ولن تعرف قدره حتى تجرب غيره.

لا يدري كيف جاء هذا الرد على لسانه، ولكنه جاء وحسب، لا يدري كيف.

واستمر هو وعبد الرحمٰن في شجون الحديث، وانضمّ إليهما أحمد الذي كان قد أفاق من قيلولته الطويلة دون أن يراه الخال. وقد كان أحمد شديد الدهاء في علاقته بوالده، إذ كان يستغل طبيعة عمله غير

المنتظم في شركة الكهرباء، لإقناع والده أنه صلّى هنا أو هناك، في العمل أو في أحد مساجد الرياض العديدة، وذلك حين يسأله والده عن عدم رؤيته في المسجد. كما كان شديد اللباقة مع والده مما أكسبه حبه بحيث أصبح على استعداد لتصديقه حتى لو كان يعلم أنه لا يقول الحقيقة. إستمر الجميع في الحديث، حتى أتاهم الخال مرة أخرى، آمراً إياهم بالذهاب إلى المسجد هذه المرة، لإداء صلاة العشاء. نهض الجميع واتجهوا إلى المسجد بشيء من الإمتعاض، فلم يكن وقت الصلاة قد حان بعد.

- ١٩ -

عندما عادوا من المسجد، كانت موضي قد أعدت مائدة العشاء، الذي كان مكوّناً من صحن كبير من السليق، تتوسطه دجاجتان، مع أطباق صغيرة من السلطة الخضراء والحمراء الحارة موزعة حول صحن السليق. تحلق الجميع حول «السفرة»، الخال في المقدمة، وعلى جانبه الأيمن أحمد، وعلى الأيسر هشام ثم عبد الرحمٰن. العادة أن يجلس الأب في المقدمة وعن يمينه محمد، وعن يساره حمد، ثم أحمد بجانب محمد، وعبد الرحمٰن بجانب حمد. بقي الجميع في حالة سكون حول المائدة، حتى غمغم الخال: «بسم الله الرحمٰن الرحيم»، ومدّ يده إلى الطعام، ثم امتدّت الأيدي وراءه.

كان الجميع يتناولون السليق وعيونهم على الدجاجتين. انتزع الخال فخذ إحدى الدجاجتين ووضعه أمام هشام الذي أخذ يلتهمه بهدوء أمام نظرات أحمد وعبد الرحمٰن النارية. ثم لم يلبث الخال أن قطع فخذاً

آخر وضعه أمامه فعل به ما فعله بسابقه وقد ارتفعت درجة حرارة الأعين المحيطة. وانتزع الخال جزءاً من الصدر أخذ يمضغه بهدوء شديد، فامتدت الأيدي بعده إلى أجزاء الدجاجتين تمزقها وتأكلها بهدوء. بعد قليل، نهض الخال وهو يلعق يده متمتماً «الحمد لله رب العالمين»، متجهاً إلى حيث المغسلة، ومن ثم إلى غرفته حيث يقرأ ما تيسر من القرآن، ثم يوتر وينام. وما أن اطمئنّ أحمد وعبد الرحمٰن إلى مغادرة الخال، حتى انقضّا على ما بقي من الدجاجتين في صراع لا يرحم. وكان هشام ينظر إليهما باستغراب، فهو لا يدري ماذا يجري. ولكنه أدرك لاحقاً أنه إذا أراد العيش في مثل هذا البيت، فعليه أن يكون ذئباً على مائدة الطعام، هذا إذا أراد أن يأكل لحماً.

انتهوا من العشاء، ولم يبقَ من الدجاجتين إلا بعض عظيمات، وغسلوا أيديهم في الحمام المجاور للمجلس، ثم صعدوا إلى السطح لتناول الشاي والسمر والتمتع بالنسمات القليلة. وهناك، وجدوا صينية الشاي وقد وضعت وسط أربعة فرش قد مدت بإزاء بعضها وقد غطيت بشراشف خفيفة تفوح منها رائحة النظافة. خلع الجميع ملابسهم ووضعوها بترتيب جانباً، وبقوا في ملابسهم الداخلية، شورت أبيض طويل وفانيلة «علاقي»، واضطجع كل على فراشه، وقد وضع كل منهم رأسه على كفه، ومرفقه مستند إلى الفراش، وبقي الشاي في الوسط ينتظر من يصبه. وبعد فترة من الانتظار، نهض أحمد وصبّ لنفسه بياله وهو يقول: «لا شأن لي بأحد. من يرد شاياً فليصب لنفسه...»، ثم عاد أدراجه إلى الفراش وأخذ يرتشف الشاي بصوت مسموع وهو متكىء على مرفقه بينما هو ينظر إلى أخيه. ونهض عبد الرحمٰن بتثاقل وصب لنفسه بيالة وأخرى لهشام قدمها له وهو يقول: «بعض الناس ما

يستحون. . . حتى الضيوف لا إكرام لهم عندهم»، ونظر إلى أحمد بطرف عينه. إلا أن أحمد لم يأبه بتعليق أخيه، واستمرّ في التمتع بالشاي وهو يقول ببرود وهدوء: «إن كنت تعنيني فيما تقول، فأنت مخطىء. . . هشام من حمام الدار». وعاد عبد الرحمٰن إلى فراشه وهو يهمهم بكلمات لم يفهمها أحد. غريب أمر هذين الأخوين، فهما يتشابهان تقريباً في كل شيء، إلا في الطباع. فقد كان أحمد على عكس عبد الرحمٰن، هادىء إلى درجة البرود، ويحب «الفلوس» بشكل هوسي، على عكس عبد الرحمٰن الذي تثيره أية كلمة ولا يبقى الريال معه غمضة عين.

نظر هشام حوله وهو يرتشف الشاي، متكئاً على الوسادة مستمتعاً بسكون الليل وهذا النسيم الذي لا يجود الزمان بمثله دائماً في مثل هذه الليالي الصافية، فيما كان الأخوان يتجادلان حول من سيرافق الوالد إلى سوق الخضار والمؤن غداً لشراء مخزون البيت.

ـ يا أخي حلل السيارة التي اشتراها لك الوالد. إذهب معه إلى السوق واحمله إلى أي مكان يريد. هذا أقل واجب. . .

قال أحمد ببرود غير عابىء بعصبية عبد الرحمٰن الذي ردّ بتوتر:

ـ يا سلام. . . كأنه ليس أبوك. لما لا تذهب به بسيارتك. أم أن على رأسها ريشة!.

ـ لقد دفعت في سيارتي دم قلبي. . . ليس مثل بعض الناس.

وعلا صوت عبد الرحمٰن وهو يقول:

ـ أنا أعرفك. . . تبيع أمك وأباك من أجل المال.

وبهدوء لم يتأثر رد أحمد قائلاً:

ـ طبعاً أحب المال. . . أليس من عرق جبيني؟

ونظر إلى عبد الرحمٰن وعلى فيه ظل ابتسامة، أما عبد الرحمٰن فقد فَقَدَ أعصابه وهو يقول:

ـ منة الله ولا منة خلقه... سوف أذهب مع الوالد ودع بخلك ينفعك.

ـ شوف يا دحيّم. خلك من خرابيطك... حضن الوالدة ماهوب دايم لك.

وغطى عبد الرحمٰن جسمه بالشرشف وهو يغمغم قائلاً:

ـ الشرهة ماهيب عليك... الشرهة على من يكلمك في أي شيء.

وعاد السكون الجميل من جديد، وعاد هشام يتأمل السماء الصافية من جديد، وكل تلك النجوم المتزاحمة. وخطرت موضي على ذهنه... يا لها من فتاة مليحة. وسيدة منزل ممتازة. هي التي أعدّت العشاء، وهي التي قدمته، وهي التي فرشت على السطح، وهي من يعدّ الشاي ويقوم بكل أعباء المنزل. ويكفيها طلبات مثل هؤلاء الاخوان. إن نورة تساعد أمها ولكنها بالتأكيد ليست مثل موضي... لا ريب أن من يتزوجها سوف يكون محظوظاً. لقد كانت موضي أكبر من عبد الرحمٰن وأصغر من أحمد، ولكن لا فرق كبير في السن حقيقة، فهي أكبر من عبد الرحمٰن بأقل من سنة، وأحمد أكبر منها بأقل من سنة أيضاً. فقد أنجبت أم محمد الثلاثة الأوائل، محمد وحمد ومنيرة، تباعاً، ثم توقفت لفترة تقارب الخمس سنوات أنجبت بعدها أحمد وموضي وعبد الرحمٰن، ثم توقفت نهائياً.

ـ لم تقل لي... ماذا ستدرس في الجامعة؟

جاءه صوت أحمد من الطرف الآخر قاطعاً عليه حديثه مع نفسه:

ـ إقتصاد وعلوم سياسية... كلية التجارة.

أجاب باقتضاب وهو يرشف جرعة من الشاي الذي برد.

ـ سياسة وإقتصاد!... لمَ لا تدرس شيئاً نافعاً. هندسة أو طب. سياسة؟... ماذا يعني ذلك؟... خرابيط.

قال أحمد وهو يصب لنفسه بيالة رابعة من الشاي، فانتفض هشام قائلاً بحماس:

ـ السياسة شيء مهم... فهي تدرس أنظمة الحكم والعلاقات الدولية والفلسفة السياسية وغير ذلك.

ـ أنظمة حكم؟ وش لك أنت والحكم. الشيوخ ابخص. خليك بحالك. أتريد أن تلقي بنفسك إلى التهلكة! كل واشرب واستأنس ودعك من السياسة... دعها لأصحابها.

ونهض هشام جالساً وهو يقول بانفعال:

ـ كلنا أصحاب السياسة... وأنا لا أريد أن أقوم بانقلاب. أريد أن أفهم فقط.

وتأفف أحمد وهو يقول:

ـ يا أخي افعل ما شئت... ما لي وما لك. الكلام معك يودي السجن. راسك ناشف من حينك... كنت أحسبك قد عقلت.

وصمت أحمد، وهو يشرب آخر جرعةِ شاي في بيالته، فيما عاد هشام إلى الاضطجاع موقناً أن الحديث مع ابن خاله هذا لا طائل من ورائه. وجاء صوت عبد الرحمٰن موجهاً الحديث لأخيه بلهجة ساخرة:

ـ لِمَ لا تصمت... وش عرفك انت. أنت لا تفقه شيئاً. لقد

تركت الدراسة قبل أن تنهي الابتدائية وعملت محصلاً حباً في المال. جاهل يناقش متعلماً... يا للسخف.

ثم موجهاً حديثه لهشام:

ـ الشرهة عليك يا هشام تناقش هذه الأشكال.

ونظر إلى أخيه بزاوية عينه... ولم تثر كلمات عبد الرحمٰن أحمد الذي بقي متكئاً على وسادته وهو يقول:

ـ العلم والفهم ليس بالشهادات يا «طقعان»... هذا أنت. في الثانوي ولكنك ثور.

وثار عبد الرحمٰن وهبّ واقفاً ناظراً نظرات شزرى لأخيه، وهو على أهبة الإستعداد لأي طارىء قائلاً:

ـ أنا ثور يا أجهل من حمار... على الأقل أنا طالب، أما أنت. أما أنت... فمجرد موظف حقير في شركة حقيرة.

ـ لو لم تكن ثوراً، لما كنت في الأول ثانوي، وها هو هشام في سنك وسوف يدخل الجامعة... نعم أنت ثور أربد. وللأسف أنك أخي. أوَ ما يدري وين لقوك...

وانقضّ عبد الرحمٰن على أحمد يريد أن يضربه، في حين تدخل هشام لفضّ النزاع. وبينما هم على تلك الحالة، إذ بصوت خطوات تصعد الدرج. توقف الجميع عن العراك، واتجه كل إلى فراشه اعتقاداً أن القادم هو الوالد الذي سمع أصوات عراكهم. تصنع الجميع النوم، حتى أصبح القادم فوق رؤوسهم، فإذا بصوت مألوف يخترق السكون قائلاً:

ـ السلام عليكم دار قوم مؤمنين...

وضحك القادم ضحكة مجلجلة، ثم كتم فاه بيد ناظراً إلى الجانب الآخر من السطح، فهبّ الجميع من فرشهم، ملقين بالشراشف جانباً، فيما قال أحمد بغضب:

ـ حسبي الله عليك يا حمد... لقد أفزعتنا. لا... و «متقهوي» بعد.

واضطجع أحمد مغطياً رأسه بالشرشف فيما قال هشام:

ـ مسّاك الله بالخير يا حمد.

وانتبه حمد إلى هذا الصوت الغريب، فنظر ناحية هشام وهو يصرّ عينيه، ثم صرخ بحبور:

ـ هشام... أيّ ريح.

ثم مستدركاً وهو يضحك:

ـ والا بلاش ريح...

ثم اتجه ناحية هشام، الذي نهض من فراشه، وتعانق الإثنان، ومحمد يقول وهو يضحك بصوت خافت:

ـ ايه... خلينا نغير وجوه البقر اللي نشوفها كل يوم.

قال ذلك وهو ينظر ناحية أخويه وهو يحاول كتم ضحكته بيده. غير أن صوت أحمد جاء هادئاً من تحت الشرشف وهو يقول:

ـ والله اللي يجي بانصاف الليالي وهو... هو وجه البقرة.

ـ ليش خلقك ضيق يا أخي... ألا تقدر الدعابة؟

قال حمد فيما هو يتجه إلى فراشه، دون تعليق من أحمد، ثم ألقى

بنفسه على الفراش دون أن يخلع ثيابه، متثائباً بقوة، أعقب ذلك تأوهاً بصوت عال، وما هي إلا لحظات وكان صوت شخيره يشق عنان السماء. وعاد هشام إلى فراشه حيث اضطجع ونظر إلى عبد الرحمٰن الذي كان فراشه ملاصقاً لفراشه وهو يقول:

ـ عبد الرحمٰن... عبد الرحمٰن. هل نمت؟

وأتاه صوت عبد الرحمٰن قائلاً:

ـ لا أحد يستطيع النوم في هذا البيت...

شكل حمد غير طبيعي. عيناه حمراوان، ولسانه معوج، ومشيته غير متزنة، ورائحة فمه كريهة.. مثل رائحة بلاستيك محروق. هل هو مريض؟

وضحك عبد الرحمٰن ضحكة خافتة قبل أن يقول:

ـ ولا مريض ولا حاجة. إنه مثل الجن... بس متقهوي شوي.

ـ متقهوي!... يعني كيف؟ شارب قهوة؟...

وضحك عبد الرحمٰن مرة أخرى وهو يقول:

ـ لا وانت الصادق. شارب عرق...

ـ ايش... عرق أرامكو. عرق صديقي؟

ـ بل عرق وطني... شيء مثل البول وطعم الطراش وريحة الخرا... وانت بكرامة.

ـ ومن أين يأتي به؟... كنت أظن أن الخمر غير موجود في الرياض؟

ـ كل شيء ممكن في الرياض... البعض يصنعه محلياً من أجل

الربح الوفير. . . هل تعلم أن الزجاجة منه تباع بخمسة وعشرين ريالاً.

وصفر هشام، فيما واصل عبد الرحمٰن «تنويره» قائلاً:

ـ لا. . . وأزيدك من الشعر بيت. والخمر الأجنبي يساوي أكثر. زجاجة الويسكي بخمسين ريالاً!؟

وصفّر هشام مرة أخرى بصوت أعلى، ثم وقال:

ـ ولكن من يأتي به؟

ـ لا أدري. . . أكيد مهربين وناس لهم طرقهم الخاصة. من يدري؟

ـ هل تتقهوى أنت أيضاً يا عبد الرحمٰن؟

ـ أبداً. . . أنا لا أحبه.

ثم مستدركاً:

ـ ولكن إذا أردت، أستطيع الإتيان به. . . إنه يباع في الحارات التي خلف شارع الوزير، وعند دوار أم سليم، وحلة العبيد، والعطايف، وأزقة البطحاء. . . وأماكن أخرى.

واستدار هشام على جانبه الآخر، ملقياً بالشرشف على رأسه وهو يقول:

ـ لا تجيب لي ولا أجيب لك. . . خمسة وعشرون ريالاً!. خمسون ريالاً! أف. . . هذا مبلغ أعيش به شهراً. تصبح على خير.

ـ تلقى خير. . .

وما هي إلا لحظات، وكان الشخير قد كوّن سيمفونية نشاز أبدعها التعب.

ـ ٢٠ ـ

كان مستغرقاً في نومه، تمرّ عليه أطياف مختلفة في سلسلة من أحلام متقطعة. تتراءى له صور باهتة بعضها ينفرد وجهه لها، وبعضها ينكمش. تتراءى له صور منصور وراشد ورشيد وعدنان ونورة وموضي، وتلك الفتاة التي حدّثه عنها عبد الرحمٰن وهي تدعوه إليها ضاحكة، ولكن ما أن يقترب منها حتى تفرّ من بين يديه وهي تقهقه. تارة يجد نفسه في الدمام، وتارة أخرى يجد نفسه يسير في شارع السلط في عمان، ثم فجأة ينتقل إلى المرجة في دمشق، التي تنقلب بسحر ساحر إلى ساحة البرج في بيروت، ثم ينظر حوله فإذا به في ساحة الصفاة في الرياض. تبرز له صورة ايفان كارامازوف، ثم يطل رأس جان فالجان ومن ورائه كوزيت بشعرها الذهبي تختلس النظرات. يأتيه صوت سي السيد أحمد عبد الجواد زاجراً وزبيدة تقهقه أمامه وكمال يرقص بينهما فيما ياسين يعضّ أرداف زنوبة. تختلط الصور، فترقص أمينة وتصلي كريستين كيلر، وتبدو أمه من بعيد وهي تعض أصابعها وقد بدت مثل يعقوب وهو يحذّر يوسف من الاقتراب من زليخا. تبرز نورة بضفائرها الطويلة الحالكة زامّة شفتيها، فيقترب منها ماداً يديه، وعندما يحتضنها لا يجد شيئاً، فيلتفت حوله فيجد نفسه على قمة الإمباير ستايت. يحس بشخص يقف وراءه، ينظر، فيجد فهداً مندفعاً نحوه. يحاول تفاديه، إلا أنه يدفعه إلى الأمام فيسقط ويتهاوى في الهواء وهو يصرخ... يستيقظ من النوم وهو يصرخ، وقد ابتلّ وجهه بالعرق. يستوي جالساً وهو ينظر حوله. كل شيء هادىء. «الحمد لله... لم يستيقظ أحد على صراخي». يعود إلى الاستلقاء وهو ينظر إلى هذا الكمّ الهائل من النجوم

في سماء لا تشوبها شائبة. سماء الدمام ليست بهذا الصفاء، والنجوم فيها ليست بهذه الكثرة وهذا اللمعان، ولونها رمادي باهت وليس فضياً لامعاً كهذه النجوم. وتهب نسمة باردة منعشة يتشربها جسده تشرّب خلايا العطشان للماء. يتلمس فراشه... يجده جافاً وبارداً. يبتسم. عندما ينامون على السطح في الدمام، بالكاد يجدون هواء يستنشقونه. الرطوبة في كل مكان تجعلك غارقاً في البلل وكأن النائم قد تبول عليه وهو لا يدري. ولكن تبقى الدمام هي الأحلى رغم صبا نجد. الناس هناك أرق وألطف. ربما لأنه تعود عليهم. ربما... وحانت منه التفاتة إلى الجانب الآخر من السطح الذي يفصلهم عنه ذلك الجدار الطيني المرتفع... هناك تنام موضي وإناث المنزل، وغير بعيد عنهم بجدار فاصل أيضاً، ينام محمد وزوجته وإبناه عبد العزيز وفيصل... أمّا خاله، فكان لا ينام إلا في غرفته صيفاً أو شتاءً. موضي تنام هناك... أثاره الخيال. وودّ لو يستطيع أن يراها نائمة. كيف تنام... هل تخلع ملابسها كما يفعل إخوتها أم أنها تنام بثيابها. وأثار خلع الملابس رعشة في جسده، وأحسّ بالحرارة تسري في عروقه... كل شيء فيه أصبح متوتراً. نظر حوله مرة أخرى، فوجد حمد فاغراً فاه كالميت، مستلقياً على قفاه وقد انحسر الشرشف تماماً عن جسمه وكذلك الثوب. أما أحمد، فكان نائماً بهدوء وهو متشبث بالشرشف بإحدى يديه فيما كانت الأخرى تحت رأسه. وكان عبد الرحمٰن نائماً على جانبه الأيمن وقد سقط رأسه عن الوسادة، وبعض اللعاب يبلل جانباً من فمه. كان منكمشاً على نفسه وكفّاه بين فخذيه، وقد تجمع الشرشف تحت قدميه. نهض من فراشه، أسدل الغطاء على حمد، الذي شخر شخرة قوية، وعلى عبد الرحمٰن، الذي غمغم بكلام غير مفهوم، ثم فرد جسمه وانقلب على

جانبه الآخر. عاد إلى فراشه واستلقى عليه، وحاول أن يغفو قليلاً، مستمتعاً بنسمات السحر التي لا يمكن الحصول على مثلها إلا هنا. كانوا في الدمام ينامون على السطح وهم يكافحون للحصول على نسمة هواء، ولكن عندما تصبح الرطوبة غير محتملة، وخاصة في تموز وآب، كانوا يضطرون للنوم في الغرفة، وتشغيل جهاز التبريد رغم كلفة الكهرباء الباهظة. وفي هذين الشهرين بالذات، تكاد فاتورة الكهرباء تصل إلى أكثر من خمسين ريالاً في الشهر الواحد، وهو مبلغ كبير جداً لا تستطيع ميزانية العائلة أن تتحمله دائماً، رغم مرتب والده الكبير.

وعادت موضي إلى خياله، وتذكر نورة في الدمام، وطافت فتاة عبد الرحمٰن في ذهنه... وانتابه التوتر والحرارة من جديد. إنقلب على جانبه الأيمن وهو يضغط فخذيه على بعضهما، ثم انقلب على الجانب الأيسر... أحس أن جهنم ذاتها تتقد في داخله. ثم انقلب على ظهره، فارجاً ساقيه وقد علا صوت تنفّسه. ثم انتفض جافلاً وهو يسمع صوت خاله قادماً من أسفل الدرج وهو يصيح:

ـ الصلاة... الصلاة. صلوا هداكم الله.

ثم مغمغماً: «أصبحنا وأصبح الملك لله الواحد الأحد... لا إلٰه إلاّ الله، محمد رسول الله. رضيت بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد نبياً». نظر حوله فلم يجد أحداً قد تحرك، فاستمرّ في ضجعته. ولكن ما هي إلا برهة، إلا وخاله قد أقبل من الدرج. كان يلبس ثوباً أبيض فضفاضاً طويت أكمامه، وطاقية بيضاء، والماء يتناثر من وجهه ويديه. هبّ واقفاً عندما رأى خاله مقبلاً، وألقى عليه تحية الصباح: «صبحك الله بالخير يا خال...»، فابتسم الخال مردداً بحبور: «صبحك الله بالصلاح يا بني. بارك الله فيك. هل استيقظت؟...»، «اي نعم طال عمرك...»، أجاب

فيما كان خاله منشغلاً بإسدال أكمام ثوبه وهو يغمغم: «إذاً ما بال هؤلاء الكسالى لا يستيقظون. لعن الله الشيطان، إنه يبرك على أنف النائم فلا يجعله يستيقظ لأداء حقوق ربه»، ثم وهو يرفع صوته: «يا حمد... يا أحمد... يا عبد الرحمٰن... أفيقوا هداكم الله. الصلاة. الصلاة...»، وتحرك الأبناء لدى سماع صوت والدهم: حمد بتثاقل شديد، وأحمد بخفة ورشاقة، حيث قفز من الفراش وقبل جبين والده الذي لم يملك نفسه من الابتسام مكرراً بصوت هامس: «بارك الله فيك يا بني... بارك الله فيك...». أما عبد الرحمٰن، فقد نهض وهو يتثاءب ويتمطّى بقوة، ملقياً تحية الصباح على والده: «صبحك الله بالخير يا أبي»، غير أن الوالد لم يرد عليه، بل نظر إليه بسرعة ثم استدار متجهاً إلى الدرج وهو ينبه «الصلاة... الصلاة. لا تفوتنكم الصلاة»، وابتلعه الدرج وصوت خطواته يأتي من بعيد بتناغم وتناسق. وما إن اختفى الوالد، حتى عاد حمد إلى فراشه مغمغماً بكلام غير مفهوم، ثم لم يلبث شخيره أن علا. أما أحمد، فقد تمطى بلذة ولم يلبث هو الآخر أن عاد إلى الفراش. كما ألقى عبد الرحمٰن بنفسه على الفراش وهو يقول: «أعوذ بالله... كل يوم على هذا الحال... ألا يستطيعون تأجيل الصلاة إلى الصبح»، ثم ألقى بالشرشف على وجهه وعاد لعابه إلى السيلان. وبقي هشام وحيداً لا يدري ما يفعل، هل يلحق خاله إلى المسجد، أم يواصل النوم مثل أبناء خاله... وأخيراً عزم على مواصلة النوم، فلا ريب أن الأبناء أدرى بحال الدار، واستلقى على فراشه، وأخذ النسيم البارد ورطوبة السحر يداعبان أجفانه. وعندما كان المؤذن ينادي: «الصلاة خير من النوم... الصلاة خير من النوم»، كان قد أغفى تماماً.

ـ ٢١ ـ

إجتمع الجميع على مائدة الإفطار، ولأول مرة يرى محمد منذ مجيئه يوم أمس. تعانقا وتبادلا التحيات والأسئلة التقليدية، ثم انضمّا للآكلين. كان السكون تامّاً، لولا أصوات الأفواه التي تلوك خبز «التميس» الحار، والفول بالطماطم، ورشفات الشاي الممزوج بحليب «أبو قوس». كانت موضي تقف بالباب، وقد أسبلت «غدفتها» على وجهها، تسأل السؤال المعتاد كل يوم إن كانوا بحاجة إلى أي شيء آخر، وعندما لم يرد أحد، إنصرفت وهي قول: «زين... سوف أذهب إذاً لحلب البقرة وخضّ الحليب»، وهنا صاح محمد والطعام يتنافر من فيه:

ـ خضي الحليب زين... فلبن الأمس لم يكن جيداً. مالغ ما له طعم وقليل الزبدة.

وهنا عادت موضي، مطلة من الباب وهي تصلح من خمارها، قائلة بغضب واحتجاج وسخرية في الوقت نفسه:

ـ لِمَ لا تقل ذلك لزوجتك... ليش ما تقول للعنود بنت الشيوخ.

غير أن محمد لم يهتم بهذه السخرية، فأجاب بهدوء وصوت خافت:

ـ يكفي العنود الأولاد ومشاكلهم... إنها تشقى طول النهار.

إلا أن موضي ردّت بحدة:

ـ الأولاد. تشقى طول النهار. يا حبيبتي. أي أولاد وأي شقاء هذا الذي تتحدث عنه يا زين الرجال. أنا من يطبخ ويغسل ويكنس ويحلب ويخض، وست الحسن والدلال قابعة في غرفتها ولا أدري ماذا

تفعل . . . إلا التزين لزين الرجال .

كانت رنة السخرية واضحة في لهجة موضي، مما أحرج محمد أمام أبيه وأخوته وعضو العائلة الجديد هشام، وخاصة هو بالذات. كانت كل النظرات منصبة عليه، وعلى وجه أحمد ابتسامة ساخرة. أحس الوالد بحرج ابنه، فنظر إلى موضي قائلاً:

ـ موضي . . . إلزمي حدودك .

فاغتنم محمد الفرصة، وأراد أن ينهض لضرب أخته التي لاذت بالفرار، ولكن الوالد أمره بالجلوس قائلاً:

ـ إهدأ يا محمد . . . إهدأ . النساء ناقصات عقل ودين .

وجلس محمد وهو يغمغم : «معك حق يا أبي . . . معك حق»، وعاد الجميع إلى تمزيق أرغفة التميس وغمسها بالفول، وارتشاف الشاي بالحليب . ثم وجه الوالد حديثه إلى محمد مؤنباً بهدوء، بعد أن هدأت لزوبعة :

ـ أختك معها حق يا محمد . . . إن زوجتك لا تقوم بواجبها في المنزل . لقد أصبحت أعباء موضي كبيرة بعد زواج منيرة .

ونظر محمد إلى هشام نظرة سريعة قبل أن يجيب :

ـ أعباء العنود كبيرة . الأولاد و . . .

وهنا قاطعه والده بحزم :

ـ لا تختلق لي أعذاراً . لقد نبهتك وحسب . أنت تعرف أني لا أحب التدخل في شؤونك الخاصة . فلا تجعلني أفعل . . .

ـ نعم يا أبي . . . نعم .

أجاب محمد وقد طأطأ رأسه، مختلساً نظرة سريعة إلى هشام، وقد تورد وجهه الوسيم. وتشاغل الجميع بالطعام، ولكن أحمد وعبد الرحمٰن كانا ينظران إلى بعضهما ويحاولان كتم ضحكة تكاد تفرّ، ثم يحولان نظراتهما إلى الطعام. أما حمد، فقد كان يشرب الشاي بسرعة عجيبة دون أن يأكل شيئاً تقريباً، وينظر إلى ما يجري دون اهتمام. كان محمد أشبه الناس بأبيه، ولكنه لم يكتسب الشخصية كما اكتسب الشكل.

كان هشام يراقب ما يجري بإندهاش، فكل ما يحدث شيء جديد بالنسبة له. في الدمام، كانوا يجتمعون، هو وأبوه وأمه، على مائدة الطعام، حيث يأكلون ويمازحهم الوالد أحياناً. وكان أبوه يطهو طعام الغداء أحياناً، عندما يأتي من «الدوام» مبكراً، وقد كان أبواه نجديّين قحّين رغم ذلك. خرج أبوه من القصيم وهو لم يتجاوز الرابعة عشرة، و «غرب» مع العقيلات في آخر أيامهم، واستقر في الكويت لبعض الوقت، وأخيراً ألقى برحاله في الدمام حيث وجد رزقاً مستقراً، مع أرامكو أولاً، ثم مع الحكومة، رغم أن أجور أرامكو كانت أكبر، إلا أنها «تمتص عمر الإنسان»، كما كان يردّد. ولكن عادات عائلته، وعائلات أصحابه، تختلف عما يجري هنا، رغم أن الجميع من مكان واحد، ويفتخرون إلى درجة التعصب بنجد وأهل نجد، ولو كان الواحد منهم لم يرَ نجداً في حياته. قال له والده ذات مرة: «نحب نجد، ونفتخر بالانتماء إليها، ولكننا لا نحب العيش فيها... فنجد تالد ولا تغذي».

ـ لم أركم اليوم في صلاة الفجر.

كان ذلك خاله موجهاً الحديث للجميع دون أن يلتفت لأحد. ساد الصمت للحظات قطعه أحمد بجرأة عجيبة قائلاً:

ـ كنا هناك يا أبي. . . وصلينا خلفك مباشرة. ولكننا عدنا بعد انتهاء الصلاة مباشرة.

ونظر الوالد إلى ابنه أحمد نظرة تحمل في طياتها عدم التصديق، ولكنه أعاد نظره إلى بيالة الشاي التي بقي فيها رشفة، ارتشفها الوالد وهو ينهض قائلاً:

ـ بارك الله فيكم. . . حقوق الله يجب ألا تترك.

وغادر الغرفة في طريقه إلى غرفته في الدور الثاني حيث يلبس ثياب العمل من ثوب وغترة ناصعتي البياض، و «بشت» بني، وحذاء أسود لامع، في طريقه إلى الوزارة التي يعمل وكيلاً لها. كان الخال لا يلبس العقال، على خلاف معظم الموظفين، ويكتفي بالغترة فقط كما يفعل كل الشيوخ وصغار السن من الشباب.

ـ يا لك من كاذب منافق.

قال عبد الرحمٰن موجهاً حديثه إلى أحمد:

ـ لا أعرف كيف يصدق أبوك كذبك ونفاقك. . .

وابتسم أحمد بهدوء، وأخذ جرعة كبيرة من الشاي جعلها في فمه برهة ثم ابتلعها قبل أن يقول:

ـ وماذا كنت تريدني أن أقول؟. . . إننا لم نصلِّ. أنت ساذج يا دحيم.

وصمت عبد الرحمٰن. كان يعرف أن أخاه على حق، ويعرف طبع والده وحميته الدينية، رغم أنه لا يراقب أولاده ولا يتجسس عليهم مثل بعض الآباء الآخرين، كما يعرف طيبته وتسامحه. فالوالد يعرف أنهم لا

يصلون بعض الأحيان، ويعرف أنهم يلعبون الكيرم والبلوت ويستمعون إلى الأغاني، ولكنه يتغاضى عن كل ذلك. ولكن لا بدّ له من حثّهم على الصلاة وإيقاظهم لصلاة الفجر خاصة، وسؤالهم عن الصلاة حين لا يراهم في المسجد. يفعل كل ذلك إحساساً بواجبه الديني والأبوي. وعندما يجيبونه: «نعم... صلينا...»، يشعر بالراحة من كونه أدّى واجبه. ولكنه يحاول أن يبدو متشدّداً تجاههم حتى لا يتساهلون أكثر، رغم أن حكمته التي يردّدها دائماً هي: «ليس لنا إلا الظاهر. أما السرائر فهي لرب الناس».

ـ حان وقت الذهاب... أكاد أتأخر.

قال محمد وهو ينهض متوجهاً إلى غرفته في الجانب الآخر من المنزل. ثم نهض أحمد وقد أبقى بيالة الشاي في يده، وأخيراً حمد الذي نهض بتثاقل وتأفف، ولم يكن قد نطق بكلمة واحدة أثناء الطعام. وبقي عبد الرحمٰن وهشام لوحدهما، وما أن تأكد هشام من خلوّ المكان، حتى التفت إلى عبد الرحمٰن قائلاً:

ـ عبد الرحمٰن... كنت أود أن أسألك عن شيء ليلة البارحة.

ـ تفضل... آمر...

أجاب عبد الرحمٰن وهو يحاول استخراج آخر قطرة من الشاي من الإبريق.

ـ ألا يشك خالي في حمد؟ أعني... أعني.

ـ تعني العرق، أليس كذلك؟

ـ نعم... نعم...

وضحك عبد الرحمٰن بعد أن وضع الإبريق جانباً، يائساً من وجود مزيد من الشاي، ثم قال:

ـ خالك لا يشك بوجود الخمر أصلاً في هذا البلد، فكيف في بيته وابنه.. حتى لو رأى حمد مترنحاً فهو لن يشك بمثل هذه الأمور.

وصمت الإثنان لبرهة حين دخلت موضي ومن ورائها سعيد لرفع بقايا الطعام وتنظيف الغرفة. طوت السفرة، بعد أن جمع سعيد الأواني، ثم قالت موجهة الحديث إلى هشام:

ـ عسى فطورنا أعجبك...

ابتسم هشام وهو يقول: ناظراً إليها في عينيها اللتين لا تعترفان بالغدفة:

ـ من يد ما نعدمها.

ضحكت موضي، ثم نظرت إلى أخيها قائلة:

ـ ايه... هذا هو الكلام الزين. صحيح... قابلني ولا تعشيني.

ثم انصرفت يتبعها سعيد، فيما بقي هشام مبتسماً وهو ينظر إليها حتى اختفت.

ـ أختي هذه طويلة لسان...

قال عبد الرحمٰن بحنق، إلا أن هشام علق ببسمة:

ـ لا تكونوا كلكم عليها. المهم... ما هي مشاريعك اليوم؟

فانفرجت أسارير عبد الرحمٰن وهو يقول:

ـ لا شيء ذي بال... سوف أمرّ على بعض الأصدقاء ونذهب إلى سوق سويقة. أو نجتمع عند أحدهم نلعب كيرم. ألن تأتي معنا؟...

سوف تنبسط كثيراً.

ـ ليس اليوم.

أجاب هشام:

ـ فعلي الذهاب إلى كلية التجارة وتسليم أوراقي... أنت تعلم أن الدراسة سوف تبدأ بعد أسبوعين.

ـ لعن الله الدراسة وأيامها. أيجب أن تذكرني؟... دعني أستمتع بالإجازة دون منغصات.

قال عبد الرحمٰن وهو يتأفف، ثم واصل قائلاً:

ـ حسناً... سوف تنتهي اليوم من الكلية. وماذا بشأن الأيام الباقية. أمامك أسبوعان، ماذا ستفعل بهما؟

ـ الحقيقة لا أدري... قد أعود إلى الشرقية. أو أقرأ. أو أكتشف معالم الرياض. أنت تعلم أني لا أعرفها جيداً... هذه المدينة التي سوف أعيش فيها أربع سنوات كاملة. ومن يدري!؟

ـ دعك من الشرقية والخرابيط الثانية. سأجعلك تكتشف الرياض كما لم تكتشفها من قبل. سأريك رياضاً غير الرياض، وعالماً غير العالم.

وابتسم هشام وهو ينهض قائلاً:

ـ على خيرة الله...

واتجه إلى المجلس حيث حقيبته لا تزال هناك، فتحها وأخرج بعض الملابس النظيفة، وذهب إلى الحمام ليستحم قبل أن يخرج.

قبل أن يخرج، سأل عبد الرحمٰن عن الطريق إلى كلية التجارة، فأخبره أنها في «عليشة»، ووصف له كيف يصل إلى هناك. كان مستغرباً كيف عرف عبد الرحمٰن موقع الكلية وهو غير الآبه بمثل هذه الأمور، غير أن عبد الرحمٰن أخبره أنه يمرّ من هناك كثيراً حين يزور بعض أصدقائه في الحي.

خرج من المنزل وهو يحمل أوراقه، وصوت موضي يأتيه من بعيد وهي تأمر سعيد أن يقوم بعمل ما، واتجه ناحية اليمين حيث الشارع الترابي الفاصل بين الشميسي القديم والجديد. لم تكن المسافة كبيرة، ولكنها كانت كافية لأن يتعفر الحذاء النجدي الجديد الذي اشتراه له والده بمناسبة سفره إلى الرياض. كان شارع الشميسي الجديد من أفخر شوارع الرياض. شارع مزفّت بمسارين بينهما فاصل من الأشجار. وعلى الجانبين، تنتشر حوانيت الباعة من كل نوع: بقالون، جزارون، خياطون، حلاقون، مكاتب عقارية، مطاعم شعبية. غير أن أهم ما يشتهر به هذا الشارع، بالإضافة إلى شارع عسير غير البعيد عنه، أنه يبيع أفضل لحمة «حاشي» في الرياض، لا يدانيه شهرة في ذلك إلا حلة العبيد، حيث يمكن شراء أفضل وأشهر كبدة حاشي في كل الرياض.

وقف هشام على ناصية الشارع، منتظراً حافلة «خط البلدة» المتجهة إلى شارع العصارات. ولم يطل انتظاره فقد أقبلت الحافلة سريعاً، ووقفت له دون أن يؤشر بمجرد أن رآه السائق واقفاً. كانت حافلة صغيرة من نوع «فولكس واجن» مزدحمة بالركاب. إستقل الحافلة، وزاحم حتى احتلّ مقعداً صغيراً في آخر الحافلة، ورائحة عرق الركاب تكاد تطرحه

أرضاً، إلا أنه اعتاد عليها بعد قليل. كانت الحافلة ممتلئة بالركاب، معظمهم من العمال اليمنيين وعدد من المواطنين. سارت الحافلة في اتجاه الغرب نحو شارع العصارات، حتى إذا وصلته، اتجهت يميناً نحو الشمال. وعندما وصلت إلى تقاطع العصارات مع شارع الخزان، أشار للسائق بالوقوف. ترجل من الحافلة، بعد أن زاحم في الخروج وسط صيحات التأفف، وأعطى السائق أربعة قروش، ووقف لحظة يستنشق الهواء ويستكشف المكان متذكراً وصف عبد الرحمٰن. نظر حوله، فرأى مبنى التلفزيون غير بعيد عنه في شرق الشارع، وقصر ضخم مهجور إلى الغرب. اتجه ناحية القصر، جاعلاً إياه على يمينه، وواصل السير حتى انتهى شارع الخزان غرباً. اتجه يميناً ناحية الشمال لعدة دقائق، ثم قاطعه شارع آخر اتجه فيه غرباً، حتى وصل إلى بناية قبيحة صغيرة تقع إلى يساره وقد علاها لافتة خضراء باهتة كتب عليها: «مصلحة مياه الرياض، فرع عليشة»، فعرف أنه يسير في الطريق الصحيح. واصل السير حتى وصل إلى بناية يحيط بها الجنود من كل ناحية، وينتشر على سطحها غابة من أعمدة الإرسال، دون لافتة توضح ماهية المكان. أدرك أن هذا هو مبنى الجهاز إياه، حسب وصف عبد الرحمٰن، شعر برعدة خفيفة وازداد وجيب قلبه حين مرّ بالمبنى، وأسرع الخطى. تذكر كلام عبد الرحمٰن وهو يصف له المكان: «يعتقدون أن لا أحد يدري ماهية المبنى، ولكن الكل يعلم أنه مبناهم... كفانا الله الشر...» واصل المسير حتى إذا وصل إلى كلية الهندسة، غير بعيد عن مبنى الجهاز، إتجه جنوباً في أول شارع قابله. سار في الشارع لمدة خمس دقائق حتى لمح غير بعيد أسواراً مرتفعة يتوسطها قصر فخم، «لا بد أن تكون هذه هي الكلية حسب الوصف...»، قال لنفسه وهو يقترب من المبنى. عندما وصل

إلى البوابة الحديدية الخضراء الضخمة ذات الزخارف الجميلة، وجد لوحتين خضراوين على الجانبين، إحداهما كتب عليها: «كلية الزراعة»، والأخرى كتب عليها: «كلية التجارة». دخل المكان فإذا به أمام مساحة هائلة من الأرض الخضراء الممتدة على مدى البصر، المزدانة بكل أنواع الزهور والأشجار، يشقّها طريق مزفت أنيق ينتهي إلى بوابة القصر. سار على الطريق باتجاه القصر بكل هدوء وتؤدة، وصعد الدرجات الرخامية السبع الواسعة التي تفصله عن الباب الرئيس. دخل المبنى من خلال بوابة خشبية كبيرة، ملساء وناعمة جداً، وعلى جانبيها عمودان ضخمان من الرخام الأبيض اللامع. أدّت به البوابة إلى بهو واسع جداً، كل ما فيه رخام في رخام، يلمع من شدة النظافة وكل حركة فيه مسموعة. ينتهي البهو بدرج رخامي يؤدي إلى الدور الثاني، وباب خلفي يؤدي إلى حظائر حيوانات كان خوار بقرها وثغاء غنمها يصل إلى أذن السامع. وعلى جانبي البهو تتناثر غرف عديدة بأبواب أبنوسية بنية لامعة، وبشكل دائري حول البهو. لا يدري من أين يبدأ، فقد كان البهو خالياً تماماً إلا من صدى أصوات تأتيه من حيث لا يدري. لا وجود للطلاب أو الأساتذة الآن، فما زال في الإجازة بقية، فقط بعض الموظفين الإداريين القابعين خلف مكاتبهم في غرف مغلقة. وأخيراً قرّر أن يبدأ بشكل دائري ابتدأ من اليمين. كانت أول الغرف مكتوب عليها «عميدة كلية التجارة» والثانية «وكيل كلية التجارة»، ثم «رئيس قسم المحاسبة وإدارة الأعمال»، «رئيس قسم الاقتصاد والعلوم السياسية»، «محاسب كلية التجارة»، وأخيراً «مسجل كلية التجارة».

طرق الباب، ثم دخل دون إنتظار الإذن بالدخول، فإذا وسط غرفة واسعة تتناثر المقاعد الجلدية السوداء على جنباتها، وفي نهايتها مكتب

على شكل نصف دائرة، أسود اللون يغطي الزجاج كل سطحه. ووراء المكتب يجلس رجل واضح البدانة، بثوب أبيض، وغترة بيضاء دون عقال، وأنف كمنقار الصقر، وشارب دقيق جداً مع لحية خفيفة جداً حتى أنها تكاد تكون مجرد بضع شعيرات متفرّقة. وفوق المكتب مباشرة على الحائط، صورة ضخمة للملك واقفاً ببشت حليبي وغترة بيضاء وعقال مقصّب.

تقدم من المكتب وهو يقول: «السلام عليكم...»، فرد عليه القابع خلف المكتب مغمغماً بصوت كأنه خارج من الأنف، دون أن يرفع رأسه عن أوراق كان ينظر فيها: «وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته... أي خدمة؟». ودون أن يجلس، أو يدعى للجلوس، مدّ يده بالملف قائلاً: «أريد الالتحاق بالكلية... وهذه أوراقي». مدّ المسجل يده إلى الملف واستلمه وهو يقول: «لقد انتهى الموعد المحدد للتسجيل...»، ثم وهو يبتسم: «ولكن لا بأس... فالكلية لم تحصل على كفايتها بعد». شعر هشام بالارتياح بعد التعليق الأخير بعد أن كاد قلبه يسقط بين قدميه. أخذ المسجل يقلب أوراق الملف وهو يهز رأسه بين الحين والحين، ثم نظر إلى هشام بعد أن أغلق الملف وهو يقول: «معدلك أربع وستون بالمائة... ومعوض بمادتين»، ثم صمت للحظات قال بعدها: «لا بأس... تفضل بالجلوس»، وأشار إلى كرسي مقابله. جلس هشام فيما كان المسجل يفتح أحد الأدراج ويخرج منه ورقة مطبوعة، مدّ يده بها إلى هشام وهو يقول: «أوراقك كاملة... لا ينقصها إلا نموذج الإلتحاق بالكلية... إملأ هذا النموذج وبالبركة...» أخذ الورقة، وملأ النموذج، مستنداً إلى طاولة الشاي التي أمامه، ثم أعاده إلى المسجل الذي استلمه ووضعه في الملف مع بقية الأوراق وهو يقول: «الدراسة بعد أسبوعين

إن شاء الله. بالتوفيق إن شاء الله...»، وعاد إلى تقليب الأوراق التي أمامه مشيراً إلى انتهاء المقابلة.

نهض هشام من كرسيه متمتماً «شكراً...» واتجه إلى باب الخروج بشيء من التردد. وعندما وصل إلى باب الخروج، نظر إلى المسجل وهو ممسك بمقبض الباب قائلاً:

ـ إذا سمحت...

نظر إليه المسجل من بعيد مغمغماً: «نعم».

ـ هل أنت واثق من أني مقبول في الكلية؟

ابتسم المسجل وعاد إلى أوراقه وهو يقول:

ـ لا عليك... فقط تعال بعد أسبوعين.

ـ ولكن درجاتي ليست جيدة... وأخشى...

وقبل أن يكمل جملته، قال المسجل:

ـ لا تقلق... المهم أنك حاصل على التوجيهية. وهذا هو المطلوب... في أمان الله.

ـ في أمان الكريم.

وخرج والدنيا لا تكاد تسعه من الفرح... أخيراً سيحقق أمله في دراسة الإقتصاد والسياسة كما يحب، وبشكل يمكنه من قراءة «رأس المال» وفهمه جيداً. لقد حاول قراءته في السابق ولكنه لم يفهم شيئاً من تلك المعادلات والتجريدات. وسوف يتعلم كيف تقوم الدول ولماذا تسقط... سوف يتعلم أنظمة الحكم وأنواعها... وسوف يتعلم الماركسية على أصولها، وغيرها من الفلسفات السياسية.

أخذت هذه الأفكار تراوده وهو في طريق العودة إلى المنزل. نظر حوله إلى الجنائن المحيطة وابتسم. سوف يتمتع بهذا الجمال أربع سنوات كاملة. وسوف يمنحونه مكافأة قدرها ثلاثمائة وعشرين ريالاً في الشهر... يا له من مبلغ ضخم. سوف يشتري كل ما يحب. كتب، مجلات، مطاعم... ولكن سؤالاً طاف بذهنه وهو يخترق الحدائق المحيطة. لماذا بنوا الكلية على هذا الشكل؟ إنها أقرب إلى القصر منها إلى الكلية... لماذا لم تُبن مثل كلية الهندسة التي مرّ بجوارها؟ وصمم على أن يسأل عن ذلك لاحقاً.

ـ ٢٣ ـ

في طريق العودة، مرّ على مكتبة صغيرة في شارع الشميسي الجديد، واشترى بعض المجلات... الأسبوع العربي، الجمهور، الجديد، وطبعاً سوبرمان. إنه ما زال يحب هذه المجلة ويقرأها منذ أن وقع في يده أول عدد منذ سنوات... كان وصديقه عدنان من أشد المعجبين بسوبرمان، وكانا يجمعان أعداد المجلة أسبوعاً تلو أسبوع مفاخرين الأصدقاء الآخرين بما تجمع لديهم من أعداد، ولكن منذ ما يقرب السنتين أخذ في قراءتها خفية وخجلاً من أن يراه أحد يقرأها... هو الفتى المثقف الذي يقرأ لماركس وماوتسي تونغ ودوستوفيسكي ونجيب محفوظ، يجذبه سوبرمان... ولكن ما العمل؟ إنه يستمتع بها، فلم يجد بداً من قراءتها خفية دون أن يراه أحد. عندما وصل بيت خاله، كانت الساعة حوالى الثانية عشرة، وكان خاله والأبناء لا يزالون في العمل، أما عبد الرحمٰن فهو في مكان ما من الرياض... طرق الباب،

وأتاه صوت موضي من بعيد صائحاً: «طيب... طيب. زين...» فتحت الباب، وعندما وجدت أنه هشام، وضعت «الغدفة» على وجهها قائلة بفرح واضح: «أهلاً يابن عمتي... أهلاً. تفضل». ولكنه لمح وجهها قبل أن تضع الغدفة... ما زالت مليحة. بل لقد زادت ملاحتها رغم حبوب الشباب التي أخذت تغزو وجهها. دخل المجلس، ولاحظ أن حقيبته لم تعد هناك، وقبل أن يسأل، بادرته موضي بالقول:

ـ لقد رفعناها إلى غرفتك بالطابق الثاني... إنها الغرفة الوحيدة الخالية في المنزل. واسعة وشرحة... تفضل بالجلوس وسوف آتيك بالشاي حالاً. واستدارت موضي تريد العودة إلى داخل المنزل، إلاّ أنه دعاها مستدركاً:

ـ موضي... إذا سمحت أريد أن تريني غرفتي. أود أن أرتاح قليلاً.

وعادت موضي مرددة: «زين... زين... اتبعني» وأخذت في صعود درجات السلم المقابل للمجلس وهو يتبعها... لم يستطع إلا ملاحظة استدارة عجيزتها وهي تصعد الدرج أمامه... أثاره المنظر ولكنه أشاح بوجهه عن ردفيها اللذين كانا في حالة اهتزاز شديد مع كل درجة تصعدها، فحاول تشتيت ذهنه بالقول:

ـ أين سعيد اليوم؟... لماذا لم يفتح الباب؟

وجاءه صوتها لاهثاً قائلة:

ـ لقد أرسلته لجلب بعض الأغراض من الحانوت المجاور... هل تريده في شيء؟

ـ كلا... مجرد سؤال.

وقبل أن يصلا إلى الجزء الثاني من الدرج المؤدي إلى السطح، دلفت موضي من باب بينهما مؤدياً إلى رواق ضيق صغير على جانبه غرفتان تطلان على الحوش. فتحت موضي إحداهما ودخلت ودعته إلى الدخول... كانت غرفة واسعة حقاً. ذات سقف عال جداً، ومروحة ضخمة تتدلى منه، ونافذتان صغيرتان. لمح حقيبته موضوعة بعناية في آخر الغرفة، وفراش أنيق نظيف قد فرش هناك على حصيرة صفراء نظيفة يمتد جانبها بساط أنيق وإن لم يكن غالي الثمن.

ـ هذه هي غرفتك... أرجو أن تعجبك؟

قالت موضي وهي تفتح إحدى النافذتين:

ـ ممتازة... ولكن... لكن الغرفة المجاورة؟

تساءل هشام فيما كانت موضي تفتح النافذة الأخرى، فقالت دون أن تلتفت:

ـ إنها غرفة خالية... نستخدمها للضيوف بعض الأحيان. وأنت لست ضيفاً.

ثم التفتت إليه قائلة:

ـ بالإضافة إلى أن هذه الغرفة أوسع وأريح وأشرح... وهي مواجهة لغرفتي على الطرف الآخر، ما عليك إلا أن تناديني إذا احتجت أي شيء.

ثم وهي في طريقها إلى الباب بسرعة قالت:

ـ سوف أتركك ترتاح الآن. عليّ البدء بإعداد الغداء... سوف يكون الشاي عندك بعد لحظات.

ـ شكراً يا موضي. . . لا أريد شيئاً. أريد أن أرتاح قليلاً.

صاح فيما كانت موضي تغلق الباب وتختفي وراءه، تاركة أثراً من ذلك العطر المميز. واتجه إلى الفراش حاملاً المجلات. وقبل أن يستلقي، فتح الباب وأطلّ منه رأس موضي وهي تقول:

ـ نسيت أن أقول لك. . . الغداء في حوالى الساعة الثالثة. سوف أدعوك عندما يحين الوقت. وأغلقت الباب وقد تهيّأ له أنه رأى ظل ابتسامة استطاعت أن تنفذ من وراء الحجاب.

نظر حوله. أعجبه المكان حقاً. واسع منعزل ونظيف. تنقصه بعض الأشياء الضرورية، ولكنه سيكملها. . . سرير، مكتب، مشجب، وموقد صغير لإعداد الشاي، إذ ليس من المعقول أن يطلب من موضي أن تعدّ له الشاي كلما أراد، يكفيها ما هي فيه. خلع ملابسه وألقاها على حقيبته دون ترتيب، وبقي بالملابس الداخلية. أدار مفتاح المروحة وجلس على الفراش مستنداً إلى الحائط، ثم التقط مجلة سوبرمان وأخذ يقرأ قصة لسوبرمان في إحدى رحلاته إلى الماضي. . . رفع رأسه عن المجلة، وعاد الشريط من جديد.

ـ ٢٤ ـ

عندما جاء إلى راشد في الموعد المحدد من الأسبوع التالي، وجد عنده شخصاً لم يقابله من قبل. شاب في حوالى السادسة والعشرين من العمر، أبيض لدرجة البرص، سمين لدرجة الإفراط، بكرشة ظاهرة، وشعر أسود أجعد وقصير، وشارب ضخم فوق شفتين غليظتين داكنتين، وفم واسع يحتوي على أسنان كبيرة متناسقة تعلوها صفرة داكنة. وكان

يرتدي قميصاً أبيض، وبنطالاً من النوع الرخيص كذاك الذي يستخدمه عمال أرامكو. عندما دخل هشام، كان الشخص يدخن سيجارة من نوع «ريم» الأردنية، التي كانت علبتها المربعة ملقاة إلى جانبه. وقف الشخص بتكاسل عندما دخل هو وراشد من باب المجلس، فتقدم راشد معرّفاً:

ـ الرفيق فهد... الرفيق أبو هريرة.

تصافح الإثنان، وجلس الجميع حول إبريق الشاي الفارغ، إذ ما كاد راشد يرفعه ليصبّ لهشام، حتى سقط غطاؤه دون أن ينزل سوى قطرات من الشاي.

ـ سأطلب إعداد إبريق آخر.

قال راشد ذلك وهو يهم بالنهوض، غير أن فهد جذبه من إزاره قائلاً بلهجة آمرة:

ـ لا داعي لذلك... فنحن مغادران بعد لحظات.

جلس راشد وهو يعيد ربط إزاره الذي كاد أن يسقط من جذب فهد، وأخرج سيجارة من علبته، أشعلها وأخذ يدخنها بهدوء دون أن ينبس بكلمة، في الوقت الذي كان فيه فهد يمتص آخر نفس من سيجارته، ثم سحقها في صينية الشاي رغم أن المنفضة كانت إلى جانبه، وسط نظرات راشد المتّسعة.

نظر فهد إلى هشام بعينين صغيرتين تشوبهما حمرة ثم قال:

ـ لقد حدثني الرفيق خالد عنك، وأخبرني أنك جاهز للإنضمام للحزب... أنا المسؤول عن الخلية التي ستشارك فيها.

كان هشام يفكر في هذه الأثناء. إذاً فخالد هو الإسم الحركي لراشد. ولكني أعرف راشد بإسمه الحقيقي، فلماذا الإسم الحركي؟... استجمع شجاعته وقال:

ـ من هو الرفيق خالد هذا؟... أنا لا أعرفه، فكيف عرفني؟

ابتسم راشد، ونظر فهد بخبث إلى هشام قائلاً:

ـ بل تعرفه. إنه الرفيق راشد. ولكنني أحببت أن أدرّبك على استخدام الأسماء الحركية... أنا أعرف أن إسمك الحقيقي هو هشام، وخالد هو راشد. ولكنك لا تعرف إسمي الحقيقي، ويجب ألا تعرفه.

ـ ما الفائدة إذاً من استخدام الأسماء الحركية إذا كنّا نعرف بعضنا بعضاً؟

تساءل هشا متعجباً، فيما قال فهد:

ـ كان لا بد أن تعرف راشد لأنه معك في المدرسة، وكان لا بدّ لي أن أعرف إسمك الحقيقي للإستفسار عنك عندما رشحت للتنظيم... ولكن يجب ألا تعرفني، أو أي رفيق آخر لم تلتق به قبلاً إلا من خلال الإسم الحركي.

ـ ومنصور...

نطق هشام بالاسم دون أن يشعر، فيما نظر إليه فهد بقسوة قائلاً:

ـ ماذا؟...

ـ لا شيء... أرجو المعذرة.

ـ لا علاقة لك بأي شيء إلا بي. مفهوم...

قال فهد بغضب، فيما أحسّ هشام بكره شديد جعله يشعر بالحقد

تجاه هذا الشخص الذي أمامه. وبعد صمت قصير، قال هشام:

ـ ولكنك تعرف راشد، عفواً، أقصد الرفيق خالد، دون أن يكون بينكما معرفة سابقة؟

ـ وما أدراك؟... ثم لا بدّ لي أن أعرف جميع من أنا مسؤول عنهم.

ـ ما الفائدة إذاً من الأسماء الحركية؟...

ـ الأمن يا رفيق... حتى إذا اعتقل أحد لا يستطيع البوح بأسماء الرفاق الآخرين.

ـ ولكنك تعرف الجميع... ماذا لو اعتقلت؟

ـ لن يحدث... لا أحد يعرفني إلا الرفاق الذي سبقوني في النضال... وهؤلاء لا يخشى منهم حتى لو اعتقلوا. كما أن احتمال اعتقالهم ضعيف جداً إذ لا أحد يعرفهم.

ـ أي أن الصغار هم الضحية؟

ـ من قال ذلك؟... لا يمكن أن يعتقل أحد إلا إذا اعتقل الرفاق القياديين... وهؤلاء لا خوف عليهم أو منهم.

ـ ولكن ماذا لو...

وهنا قاطعه فهد بحدة قائلاً:

ـ أنت تسأل كثيراً، وقد تحملتك أكثر مما يجب... في عملنا لا يجوز السؤال كثيراً، التنفيذ هو المهم. ألم يفهمك الرفيق خالد ذلك؟

والتفت فهد إلى راشد، قائلاً بغضب وحدة:

ـ ألم تفهمه ذلك يا رفيق... كنت أعتقد أنه جاهز تماماً.

وأخذ راشد على حين غرة، فاضطرب حتى كاد يغصّ بسيجارته، التي تناثر رمادها على البساط، وقال متلعثماً:

ـ إنه جاهز... ولكنه من النوع الذي يسأل كثيراً. لقد ذكرت كل شيء في تقريري عنه.

والتفت فهد إلى هشام قائلاً، وقد خفّت حدة غضبه:

ـ أنظر يا رفيق... إن لم يكن قد قال لك، فها أنا أقول... الأسئلة الكثيرة ممنوعة في عملنا. والآن هيا... لقد حان موعد إجتماعنا مع الرفاق.

ونهض فهد، تلاه راشد وهشام، وهبط الجميع إلى باب الخروج. وقبل أن يتحرك فهد وهشام، نظر فهد إلى راشد وهشام، وقال وهو يهزّ سبابته ذات اليمين وذات اليسار بلهجة آمرة:

ـ أنتما لا تعرفان بعضكما منذ اليوم... لقد انتهت العلاقة بينكما، حتى لو تقابلتما في أي مكان، سواء في المدرسة أو غيرها. أرجو أن يكون ذلك مفهوماً.

وأجاب الإثنان بهزة من رأسيهما دون كلمات. أغلق راشد الباب، وسار الإثنان باتجاه شارع الحب.

ـ ٢٥ ـ

كانت الساعة تقترب من الخامسة عندما وصل الإثنان إلى منزل قديم مشاد بدوره من حجارة البحر، في أحد الأزقة الرملية السبخة الضيقة المتفرعة من شارع الحب. أخرج فهد مفتاحاً من جيبه، وفتح الباب

الخشبي المهترىء، ثم دلفا إلى صالة صغيرة جداً، عارية من كل أثاث، وفي نهايتها موقد غاز صغير، وإبريق شاي، وقدر صغير، وسكين كبيرة، وبعض الملاعق والبيالات وكأسي ماء موضوعة على صندوق خشبي مغطى بقطعة من القماش الذي تظهر عليها بعض البقع الدهنية. وغير بعيد عن هذه الأشياء، مجموعة من المواد الغذائية موضوعة بغير نظام: علبتا سكر وشاي، بعض علب «الصلصة»، وكيس أرز صغير، ويتوسط الصالة على الجدار، مغسلة صغيرة بها بعض الأطباق والملاعق المنقوعة في الماء. وعلى جانبيها، كان هناك غرفتان، لمح في إحداهما سرير معدني مغطى بشرشف مخطط بالأحمر والأزرق، وإلى جانبه مشجب عليه بعض الملابس ملقاة بغير نظام. وأشار فهد إلى الغرفة الأخرى، داعياً هشام إلى الدخول.

كانت الغرفة مفروشة ببساط أزرق مهترىء، تتناثر عليه آثار حروق، وقد صفت على البساط بعض المساند الحمراء القديمة، وتفرّقت بعض المنافض المعدنية على البساط، وغير بعيد من الباب كان هناك مروحة ذات لون أخضر باهت، يتناثر عليها براز الذباب. أشار له فهد أن يجلس، فاختار ركناً قصياً، وجلس رافعاً ركبتيه إلى الأعلى وقدميه على الأرض، مسنداً ظهره إلى أحد المساند. واتجه فهد إلى المروحة حيث أدارها، ثم اتجه إلى خارج الغرفة وهو يقول:

ـ سوف أعدّ الشاي... فالرفاق على وشك الوصول.

خرج فهد وترك هشام وحيداً يتأمل جدران الغرفة التي شوهتها رطوبة البحر، ويحاول التأقلم مع رائحة العفونة الممتزجة بالرطوبة ودخان السجائر. بعد قليل سمع طرقاً على الباب، ثم سمع المزلاج وهو يفتح، ثم صوت إغلاق الباب، وبعد لحظة، دخل شخص إلى

الغرفة. هبّ هشام لتحيته واقفاً، تصافحا، ثم عاد هشام إلى مكانه بينما جلس القادم مقابلاً له، واضعاً رجليه تحت مؤخرته، مائلاً بوجهه إلى الأمام وقد وضع يديه في حجره. كان أسمر البشرة، دقيق الملامح وسيمها، وشعر أسود مسترسل، وشارب أسود دقيق مقوس، فارع الطول، نحيف البنية، يلبس بدلة سوداء قديمة، وقميصاً أبيض، وصندلان دون جوارب. أخذ الإثنان ينظران بعضهما بعضاً ويبتسمان ثم ينظران إلى سقف الغرفة، دون أن يتحدّثا.

وجاء الطرق على الباب مرتين متفرقتين بعد ذلك. جاء بعد الأولى شخص معتدل القامة، قمحي اللون، حليق الشارب واللحية، بشعر أجعد، معتدل البنية، يلبس ثوباً أبيض مفتوحاً عند العنق، حاسر الرأس. وقف الإثنان وصافحاه، ثم جلس إلى جانب القادم الأول. وجاء بعد الثانية شخص قصير القامة، أبيض البشرة نحيف البنية، بشارب ضخم ملفت للنظر، فقد كان واضحاً أنه صغير السن لا يتجاوز التاسعة عشرة. غير أن أكثر ما يلفت النظر في القادم الجديد هو ضخامة رأسه وجحوظ عينيه وبروز أذنيه. صافح الجميع ثم جلس غير بعيد عن هشام. بعد قليل من مجيء القادم الأخير، جاء فهد يحمل صينية كبيرة عليها إبريق شاي ضخم، بيضاوي الشكل بألوان خضراء وصفراء متداخلة. كان قد بدّل ملابسه وارتدى إزاراً أحمراً بمربعات بيضاء، وفانيلة بيضاء نصف كم. رحب بالجميع قائلاً: «أهلاً يا رفاق...»، ثم وضع الصينية على الأرض في وسط الغرفة وجلس وراءها، وقال:

ـ دعوني أعرفكم ببعضكم بعضاً.

ثم أشار إلى هشام:

ـ رفيقنا الجديد. . . أبو هريرة.

ثم موجهاً حديثه إلى البقية:

ـ أنتم تعرفون بعضكم بعضاً، ولكن دعوني أعرفكم إلى الرفيق أبو هريرة. . . وأشار إلى الشاب الأسمر الوسيم:

ـ الرفيق حديجان. . . ممثلنا في البادية.

وضحك فهد ضحكة خفيفة، فيما بدى الإمتعاض على وجه حديجان، الذي حاول إخفاءه ببسمة باهتة لم تلبث أن اختفت بسرعة، ثم أشار إلى حليق الشارب واللحية:

ـ الرفيق أبو ذر.

وأخيراً أشار إلى «الجاحظ»:

ـ الرفيق حسن الصباح. . .

وبعد أن تمّ التعارف، طلب فهد من الجميع النهوض وترديد شعار الحزب إيذاناً ببدء إجتماع الخلية. نهض الجميع، ونهض معهم هشام الذي لا يعرف ما يدور، أطرقوا برؤوسهم، ثم قال فهد بخشوع:

ـ أمة عربية واحدة. . .

وردد الجميع وراءه بخشوع أيضاً:

ـ ذات رسالة خالدة.

وجلس الجميع بعد ذلك، وأخذ فهد يصب الشاي ويوزعه على الرفاق. كان هشام يراقب ما يجري وهو في حالة اندهاش الذي يؤدي شعائر الصلاة لأول مرة بعد دخوله ديناً جديداً.

أشعل فهد سيجارة أخذ منها نفساً عميقاً ثم نفث الدخان عالياً في

سماء الغرفة، ورشف رشفة من الشاي الأسود الساخن بصوت مسموع، والجميع صامتون ينظرون إليه بانتظار أن يبدأ الحديث، ثم قال:

ـ أيها الرفاق... إن أمتنا تمر بمأزق خطير ومرحلة صعبة من تاريخها المجيد... لقد أثبتت النكسة أن البرجوازية الصغيرة غير قادرة على قيادة الأمة... لقد سقط مشروع البرجوازية الصغيرة مع هزيمة ٦٧، كما سقط مشروع الإقطاع والبرجوازية الكمبرادورية العفنة مع هزيمة ٤٨... وأتى الآن دور الطبقة العاملة، البروليتاريا، لكي تقدم مشروعها التقدمي الذي يعبر عن تطلعات كل الجماهير المكافحة والطبقات المسحوقة... إن أمل أمتنا معلق بمشروع الطبقة العاملة وحلفائها، التي بتحررها سوف تحرّر كل المجتمع وكل الأمة. وحزبنا... حزب البعث العربي الاشتراكي، وما قام به من ثورة على الإنتهازيين والبرجوازية الصغيرة المتذبذبة، والمنتفعين من البرجوازية الكمبرادوية والإقطاع، أصبح هو المعبر عن مشروع الطبقة العاملة وكافة الطبقات المحرومة في المجتمع. إنه الحزب القومي الوحيد الممثل لتطلعات الأمة وطبقات المجتمع العاملة. إن الرجعية والبرجوازية والإقطاع، ومن ورائهم الإمبريالية والإستعمار والرأسمالية العالمية وربيبتها الصهيونية، يقفون في وجه حزبنا العظيم ويحاربون من أجل إجهاض مشروعه التقدمي... ولكن حتمية التاريخ معنا، وسننتصر في النهاية، وتعود الأمة إلى مجدها ودورها الطبيعي في التاريخ، وتتحقق الإشتراكية العلمية في دولة الوحدة... التاريخ معنا. وهذا ما يجعلنا نناضل ونحن واثقون من النصر على كل الأعداء.

أنهى فهد حديثه، وتوقف لالتقاط الأنفاس، وارتشاف جرعات من الشاي، وإشعال سيجارة جديدة، وقد زوى ما بين شفتيه، وهو ينظر إلى

الجميع متأملاً أثر حديثه على النفوس.

كان هشام منصتاً لحديث فهد، غير أن سؤالاً في داخله كان يقلقه... ما هو موقع جمال عبد الناصر من كل هذا؟ إنه صاحب ثورة يوليو، ومحطم العدوان الثلاثي، ومحقق الجمهورية العربية المتحدة، وقوانين ٦١ الإشتراكية... نعم لقد هزم في حزيران، ولكن ذلك كان نتيجة مؤامرة عالمية. كما أن هذه المؤامرة لم تنجح إذ إنه لم يسقط وقد كان الهدف إسقاطه... جمال عبد الناصر الذي تخلو الشوارع العربية من المارة عند إلقاء خطبة من خطبه. والذي تهتز الأبدان عند سماع كلماته. ما هو موقعه من كل هذا؟ أهو من الفئات الرجعية التي ذكرها فهد أم ماذا. استجمع شجاعته، ووجه نظره ناحية فهد قائلاً بشيء من التلعثم:

ـ يا رفيق فهد...

نظر إليه فهد بلا مبالاة وهو يهزّ رأسه إشارة الإذن بالكلام:

ـ يا رفيق فهد... كيف نصنف جمال عبد الناصر، وكيف نقوّمه في هذه المرحلة التاريخية من مسيرة الأمة؟

ابتسم فهد نصف ابتسامة هازاً رأسه عدة مرات، ثم قال:

ـ لا ريب أن جمال عبد الناصر شخصية وطنية... ولكن المرحلة تجاوزته، فهو يمثل البرجوازية الصغيرة التي سقطت مع الهزيمة. نحن بحاجة إلى حزب منظم لا إلى زعيم فرد... نحن بحاجة إلى حزب لديه مشروع علمي متكامل، لا إلى مجرد اجتهادات شخص. لقد كان خطأ عبد الناصر منذ البداية أنه لم يؤسس حزباً، ولم يتعاون مع حزبنا. لو فعل ذلك، لكانت الصورة مختلفة، ولما حدثت النكسة... وعلى

أية حال، ما كان بمقدوره أن يفعل شيئاً، فهو ينتمي إلى البرجوازية الصغيرة المترددة والإنتهازية التي سقط مشروعها مع النكسة، وسقط معه جمال. . . إن المرحلة الحالية هي مرحلة الحزب، والحزب فقط.

وصمت فهد، وأشعل سيجارة أخرى، كان الوجوم مسيطراً على بقية أفراد الخلية، الذين أخذوا يهزّون رؤوسهم دلالة الموافقة. وكان هشام موافقاً تقريباً على هذا التحليل، وهو الذي وجه نفسه ميالاً إلى الماركسية منذ البداية. ولكن سؤالاً آخر أخذ يجول في خاطره وكان متردداً في طرحه، خاصة وأنه أول إجتماع له مع هؤلاء الناس. وبعد تردد قصير قال:

ـ ولكن يا رفيق فهد، ألم يكن الحزب يحكم في سوريا قبل النكسة؟. . فكيف حدثت والحزب يحكم؟

صمت فهد للحظات، واضعاً إصبعه الوسطى على ذقنه، والإبهام تحت الذقن، والسبابة على الخد، وزوى جبينه، وأخذ ينظر إلى البعيد، ثم قال:

ـ لم يكن الحزب هو الذي يحكم في سوريا، بل تلك الزمرة الرجعية العفلقية. الحزب لم يحكم إلا منذ عام ١٩٦٦، أي أقل من سنة من النكسة، وسنة واحدة لا تكفي لإصلاح ما أفسدته الحكومات الإنتهازية السابقة المتسترة باسم الحزب منذ آذار ١٩٦٣. بالإضافة إلى ذلك، كانت المؤامرة أكبر من الحزب. . . كل القوى الرجعية والعميلة وقفت ضد الحزب من أجل إسقاطه. . . ولكنه كان أكبر من المؤامرة وانتصر عليها رغم حداثة عهده في الحكم، وما ذلك إلا لالتفاف الجماهير حوله. ومن ناحية أخرى، يا رفيق، أدّى الإنهيار السريع للجبهة المصرية والخيانة فيها، وتعاون النظام الأردني مع الكيان

الصهيوني، إلى زيادة الضغط على الجبهة السورية... كان الجميع يريد إسقاط الحزب في سوريا. ولكنه ناضل ضدّ كل ذلك وانتصر عليه، وهذا دليل على أنه حزب الجماهير. هل تجد في هذا العالم، قديماً وحديثاً، نظاماً يصارع الصهيونية والاستعمار والإمبريالية والرأسمالية والرجعية والخيانة والمؤامرات، ويبقى صامداً... بل وينتصر؟ هذا هو حزبنا العظيم... وسوف ترون، يا رفاق، كيف تتحول سوريا إلى نموذج يحتذى في الوطن العربي. سوف تكون سوريا البعث، القطر الذي منه تنطلق شرارة الوحدة والحرية والاشتراكية.

واستمرّ فهد في الحديث عن الحزب، ومستقبل الحزب، والمهمات القومية والتاريخية الملقاة على عاتقه طوال الجلسة تقريباً. ثم قرأ بعض البيانات والمنشورات المخصصة للتداول الداخلي بين الخلايا، والقادمة من القيادة القطرية والقيادة القومية، وكلّها تدور حول الحديث ذاته.

بعد الإنتهاء من كل ذلك، سأل فهد الرفاق عمّا إذا كان هنالك أي رأي أو استفسار، قائلاً:

- أنتم تعلمون أن الحزب قائم على مبدأ الديموقراطية المركزية... لكم أن تطرحوا أي رأي ترونه، أو أي استفسار، ولكن ما أن يتخذ القرار، فعلى الجميع الإلتزام به حتى لو لم يتفقوا معه... من هذا المنطلق، يجب أن تكون مناقشاتنا الداخلية حرة تماماً. هل هنا أي استفسار؟ وأخذ فهد يجيل نظره في الحاضرين، حتى إذا وصل في نظره إلى حديجان، سأل قائلاً:

- يا رفيق فهد... لقد تحدثنا عن الأمة كثيراً، ولكن ماذا بشأن قطرنا هذا. كيف السبيل إلى تحرّره؟ أليس من الأفضل أن نركز على

قطرنا بدل النقاش حول الأمة وأقطارها، التي لا ريب أن أبناءها سوف يتكفّلون بمهمة تحررها؟...

بانت علامات الغضب على وجه فهد، فأصبح بشعاً للغاية، وأجاب بسرعة وحدة، والرذاذ يتناثر من فيه:

ـ هذا تفكير قطري مرفوض يا رفيق... نحن أمة واحدة ونعمل على هذا الأساس. تحرّر الكل يعني تحرر الجزء، وتحرر الجزء مجرد خطوة لتحرر الكل... ولكن العمل يجب أن يكون في إطار كلي. لذلك لدينا قيادة قومية تنسّق الجهود، ومنها نستمد الخطوط العامة للنضال. هدفنا كل الأمة يا رفيق وليس قطراً دون آخر... كلها كيانات مزيفة وحدود مصطنعة فرضها الإستعمار. أما الحقيقة فهي الأمة فقط...

ثم هدأ فهد، وأحنى حديجان رأسه، فيما أعاد فهد سؤاله عما إذا كان هنالك أي استفسار آخر، مجيلاً نظره من جديد في الوجوه، وعندما وجد الصمت مطبقاً، قال:

ـ حسناً... إذاً تنتهي جلسة اليوم. موعدنا الأسبوع القادم. ثم نهض، ونهض بعده بقية الرفاق، منهين اجتماعهم بترديد الشعار مرة أخرى:

ـ أمة عربية واحدة...

ـ ذات رسالة خالدة.

لبثوا واقفين لعدة ثوان، قال فهد بعدها:

ـ كما تعلمون... يجب ألا نخرج دفعة واحدة. رفيقاً رفيقاً. جلسوا جميعاً، فيما اتجه حديجان إلى الخارج. تلاه بعد دقيقة حسن الصباح، ثم أبو ذر، وأخيراً أبو هريرة.

ـ ٢٦ ـ

كانت الساعة حوالى السادسة مساءً عندما خرج من بيت فهد متجهاً إلى شارع الحب، فوسط المدينة، ثم مسجد الشيخ موسى، فمستوصف العدامة في طريقه، وأخيراً شارع «ثمنطعش»، فالمنزل. لقد اختار هذا الطريق الطويل لسبب لا يدريه، فقد وجد نفسه سائراً فيه وحسب. كان طوال الطريق يفكر في هذه التجربة الجديدة، وهؤلاء الأشخاص الذين تعرف عليهم دون إرادة منه. لم يرتح لأي منهم، خاصة فهد الذي شعر بالضيق عندما قابله عند راشد ورأى وجهه لأول مرة. لم يرتح إلا لحديجان إلى حد ما، فقد كان شكله يبعث على الارتياح، فقد كان في وجهه براءة كامنة لا تتوافر في بقية الوجوه، وسماحة جلية.

عندما وصل إلى البيت، دخل غرفته مباشرة وألقى بنفسه على السرير وهو لا يزال يفكر في أحداث اليوم. لم يكن خائفاً، لقد زال الخوف تقريباً، فلم يكن هناك ما يخيف، مجرد قراءة وأحاديث، كل الفرق هو أن الرفاق حلوا محل الأصدقاء. إنه يفكر في الأشخاص الذين قابلهم، مستبعداً أن يكونوا قادرين على تغيير أي شيء، فما بالك إذا كانت الحكومة هي الخصم. استمرّ في تفكيره حتى أيقظه صوت مقبض الباب وهو يتحرك، منفرجاً عن وجه أمه. ودون أن تتحرك من عند الباب، سألته وهي ممسكة بالمقبض:

ـ هشام... أين كنت خلال الساعات الماضية؟

نهض من السرير، وجلس على حافته، وبعد شيء من التردد، قال:

ـ مساء الخير يا أمي... لقد كنت عند عبد الكريم كالعادة.

ـ كلا... لم تكن هناك. لقد مرّ هو وعدنان وسألا عنك. يقولان

إنهما لا يريانك كثيراً هذه الأيام. . . أين كنت يا هشام؟

وأسقط في يده. ماذا يقول؟ اضطرب بعض الشيء. . . تردد قليلاً، ثم قال بصوت متلعثم:

ـ فعلاً يا أمي. لقد مررت بمنزل عبد الكريم ولم أجده، فذهب في جولة على المكتبات، ثم ذهبت إلى المكتبة العامة حيث بقيت هناك حتى هذه الساعة. . .

نظرت إليه أمه نظرة كلها شك وريبة قائلة:

ـ ولماذا لم تقل ذلك منذ البداية؟

ـ لم أعتقد أن الأمر مهم إلى هذه الدرجة بالنسبة لك. ما الفرق بين أن أذهب إلى عبد الكريم أو المكتبة العامة؟

ـ أرجو أن تكون صادقاً فيما تقول. لقد عودناك على الصدق والصراحة مهما كان الأمر. فلا تخيب أملنا فيك.

أحس بألم في الحلق، وبعدم القدرة على الكلام، إلا أنه استجمع نفسه وقال:

ـ هذا ما حصل. . . صدقيني يا أمي.

بقيت أمه فترة وهي تنظر إليه، ممسكة بمقبض الباب، ثم استدارت راجعة وهي تغمغم «أرجو أن يكون ذلك صحيحاً. . . حفظك الله يا ولدي».

كانت أم هشام تثق به ومعجبة به في الوقت ذاته إذ «ليس هناك من هو مثله»، كما كانت تردد دائماً، ولكنها كانت تخشى عليه الإنحراف في مثل هذا السن. كانت تخشى أن يرافق بعض «الشباب الفاسد» فتفسد

أخلاقه ويضيع مستقبله، لذلك كانت دائماً تحذّره من مصاحبة من هم أكبر منه سناً. كانت تثق بعدنان وعبد الكريم، فهي تعرف أميهما، بالإضافة إلى أنهما أتراب هشام. إنه ما زال يذكر نصائحها، بل تعليماتها له وهو صغير في بداية الدراسة الابتدائية، كيف كانت تمنعه من مصاحبة من هم أسنّ منه من الأطفال والفتيان، وكانت تمنعه من الذهاب في الرحلات المدرسية التي يبيت فيها التلاميذ ليلة أو ليلتين، وكذلك النوادي الرياضية لاحقاً، إذ إنها تسمع الكثير عن الأمور السيئة التي تحدث في مثل هذه الأماكن أو تلك. وعندما كان صغيراً لم تكن تخشى عليه من الإنحراف فقط، ولكن كانت تخشى عليه من الخطف والبيع في سوق الرقيق في مكان آخر. كان الخطف تلك الأيام أحد الأساليب التي تزود سوق الرقيق بالعبيد والإماء. كانت تمنعه من مرافقة أي أحد أو الركوب مع أي أحد في طريق عودته من المدرسة إلى البيت، رغم أن المسافة بينهما لم تكن تتجاوز المائتي متر فقط. بل إنه يذكر أنها حذّرته ذات مرة من عدم الركوب مع أي أحد، حتى لو كان والده هو الذي يطلب ذلك، وهو ما حدث. ففي أحد الأيام كان عائداً إلى المنزل من المدرسة، فإذا بوالده يقف إلى جانبه بسيارته الفولكس واجن البيضاء ذات الصوت المميز. دعاه إلى الركوب ولكنه رفض بعناد امتثالاً لأوامر أمه. ابتسم والده وسار في طريقه. عندما وصل البيت أثنت عليه أمه لهذا التصرف، وكان أبوه بجانبها يبتسم ابتسامة الرضا والحب، فأدرك أن العملية كانت مدبّرة بين أمه وأبيه لاختبار مدى امتثاله للأوامر، وابتسم هو بدوره ابتهاجاً بنجاحه في مثل هذا الإمتحان، وكانت مكافأة هذا النجاح عدداً من مجلة «بساط الريح» اشتراها أبوه بنفسه.

أحسّ بألم دفين لكذبه على أمه بالذات، فعلاقته بها كانت دائماً في

غاية الصراحة. فعندما بلغ الحلم لجأ إلى أمه لإخبارها دون تردد ولم يكتم الأمر، أو يذهب إلى أبيه، بصفته رجلاً على الأقل. وابتسم عندما وصل إلى هذا الحد من التفكير. إنه يذكر الرعب الذي أصابه عندما بلغ الحلم لأول مرة. كان عائداً من المدرسة، وكان الجوّ حارّاً خانقاً. خلع ملابسه واتجه إلى الحمام لأخذ حمام سريع يرطب من حرارة الجو ويبعث شيئاً من البرودة في جسده. كان رشاش «الدش» مكسوراً وكان الماء ينزل دفعة واحدة. صدفة أصاب الماء النازل بقوة ذلك المكان، فأحسّ بشيء من الألم مترافقاً بشيء كثير من اللّذة. قاوم الألم وأبقى ذلك الشيء تحت الماء حتى وصل إلى درجة الإثارة والألم الذي يشبه إنحصار البول لم يعيد يطيقها. أحس بالحاجة إلى التبوّل، وأبعد شيأه عن مجرى الماء، ورأى مادة بيضاء تخرج منه يراها لأول مرة. أصابه رعب شديد. نشّف جسمه على عجل، وارتدى ملابسه الداخلية وانطلق إلى أمه بسرعة محدّثاً إياها بكل شيء، عدا تعمّده إبقاء شيئه تحت الماء. ابتسمت أمه، وأخذته إلى صدرها بكل حنان وهي تقول: «مبروك... لقد أصبحت رجلاً...»، عندها هدأت مخاوفه وذهب رعبه، أحسّ بشيء من الفخر... لقد أصبح رجلاً. إنه يذكر ذلك تماماً وكأنه البارحة، وكان حينها دون الثالثة عشرة بقليل.

لم يكذب على أمه قبل هذه المرة ألا مرة واحدة، ولكنه اعترف بها وطلب السماح ثم لم يكذب بعد ذلك أبداً. كان في السنة الخامسة الإبتدائية، وذات يوم في وقت الفسحة شاهد عصفوراً مع أحد زملائه فأعجبه وطلبه من زميله، إلا أن الزميل طلب ربع ريال ثمناً له، وكان ذلك مقدار مصروفه اليومي، فلم يتردّد في إعطائه المال رغم تحذيرات أمه في عدم إنفاق المصروف إلا في طعام أو شراب، فقد كان منظر

العصفور الخائف لا يقاوم. وعندما عاد بالعصفور إلى المنزل، خشي تأنيب أمه وعقابها القاسي الذي لا يوازيه إلا حنانها. دخل المنزل وهو يفكر في قصة مقنعة تبرّر وجود العصفور معه، وكان أول ما قابله عيني أمه اللتان أحس أنهما تخترقان جمجمته وتفضحان «جريمته».

ـ من أين لك بالعصفور؟

أتاه صوت أمه مرعباً مزلزلاً كل خلية في جسده.

ـ لقد اصطدته... نعم لقد اصطدته يا أمي.

ـ وكيف اصطدته؟

ـ وأنا في طريق العودة من المدرسة رأيته واقفاً فالتقطت حجراً ورميته به وأصبته...

ـ أصبته... من أول حجر؟ لا شك أنك صياد ماهر.. دعني أرى العصفور.

ومدّت أمه يدها وأخذت العصفور بينما كان هو لا يكاد يقوى على الوقوف على قدميه. أخذت أمه تقلب العصفور بين يديها، ثم قالت بهدوء:

ـ غريبة... ولكني لا أرى أثر جرح في العصفور! هل أصطدته بحجر من قطن؟

حاول أن يقول شيئاً، ولكنه لم يستطع. ألقت أمه العصفور جانباً، الذي لم يصدق بالنجاة فأخذ يرفرف في سماء الغرفة حتى وجد منفذاً إلى الخارج فطار بعيداً وصوت زقزقته لا يزال يملأ أرجاء الغرفة، ثم لم يشعر إلا وكفّ أمه يلتصق بوجهه في صفعة اهتزّ لها كل جسده. أجهش بالبكاء، ولكن أمه لم تأبه ببكائه، بل أمسكت بكتفيه عاصرة إياهما بقوة

وهي تهزّه بشدة قائلة بصوت غاضب مرتفع:

ـ هشام... أصدقني القول. من أين لك بالعصفور؟

تمنى في تلك اللحظة لو أن والده كان موجوداً كي يحميه من جبروت أمه، ولكن والده ما زال في العمل. وبكلمات متقطعة وسط النشيج، اعترف لأمه بكل شيء وكيف أنه اشترى العصفور بمصروفه اليومي وأقسم لها أغلظ الإيمان أنه لن يكرر هذه الفعلة مرة أخرى. هدأت حدة أمه وزال غضبها دفعة واحدة كما جاء دفعة واحدة، وأخذت تردد وهي لا تزال ممسكة به: «أهذه هي الحقيقة؟ أهذه هي الحقيقة؟»، فأخذ يقسم لها من جديد أن ذلك هو ما حدث فعلاً، فجذبته إلى صدرها وأخذت تكفكف دموعه وهي تقول:

ـ أريدك أن تكون صادقاً معي مهما كان الأمر... مهما كان الأمر. مفهوم.

ـ حسناً يا أمي... حسناً.

أخذ يردّد ذلك وهو لا يزال ينشج، ثم أمرته أمه بالذهاب إلى الحمام وغسل وجهه، وعندما عاد منحته ربع ريال مسح كل أثر للصفعة، حيث خرج من وقته واشترى به عدداً من مجلة بساط الريح.

وها هو يكذب مرة أخرى، ولا يدري كم سيكذب بعد ذلك، ولكن الكذب هذه المرة لا يتعلق بعصفور بل بعنقاء كبيرة. ولكن ماذا بإمكانه أن يقول لها؟ هل يقول إنه يعمل في تنظيم سري؟ شعر بذلك التقلّص المؤلم في المعدة عندما اجتمع التنظيم السري وأمه في ذهنه معاً، وشعر بالحقارة في الوقت ذاته، ولكنه لم يلبث أن استعاد بعض الصفاء وهو يحدث نفسه... كلا... إنه لم يكذب. لم يفعل أي خطأ. إنه جزء

من النضال، وسوف تفخر به أمه ذات يوم... ثم نهض من فراشه واتجه إلى مكتبته الصغيرة في الطرف الآخر من الغرفة وأخذ يقلب الكتب حتى وجد الكتاب الذي يبحث عنه. التقط الكتاب وعاد إلى حيث المكتب، فجلس غير بعيد عنه على الأرض، مستنداً إلى الحائط، وأخذ يقرأ «الأم» لمرة لا يدري عددها، ولم يلبث أن غرق في أحزان بيلاجي نيلوفنا...

ـ ٢٧ ـ

استمرت اجتماعات الرفاق الأسبوعية في بيت فهد، ولم يكن هناك شيء جديد، أحاديث حول حساسية المرحلة والمنعطف التاريخي الذي تمر به الأمة العربية، وقراءة بعض البيانات والمنشورات. وحين لا يكون هناك موضوع محدد، يخوض الجميع في حديث سياسي حول الأحداث الجارية والتعليق عليها. يتحدثون حول حرب الإستنزاف وأثرها، العمل الفدائي في الأردن وكيف أنه نقل المواجهة مع الإمبريالية والصهيونية إلى مستويات نضالية جديدة تتمثل في دخول الشعب مباشرة في الصراع عن طريق الإنتقال من أساليب الحرب التقليدية إلى أساليب الحرب الشعبية. وكان الحديث عن قوات «الصاعقة» الفدائية يستأثر بمعظم النقاش وكيف أنها وحدها هي من يحمل فكر وأمل المستقبل، فلا «فتح» ببرجوازيتها وعدم وضوحها النظري، ولا «الجبهة الشعبية» بصبيانيتها اليسارية قادرتين على قيادة الأمة، فقط «الصاعقة» والحزب بمنطلقاته الجديدة. بدأ الملل يتسرب إليه من هذه الإجتماعات مع أشخاص لا يشعر بأي رابط حميم يربطه بهم، وعاوده الحنين إلى أصحابه، عدنان وعبد الكريم والآخرين، سالم وسعود وعبد العزيز.

وعاد إلى أصحابه في لقاءاتهم اليومية في منزل عبد الكريم. رحّب به الجميع بالصياح عند ذهابه تلك العصرية، وكان أكثرَ الجميع إظهاراً للفرح عدنان وعبد الكريم اللذان عانقاه وكأنه قادم من سفر بعيد. وما أن جلس حتى التصق به عبد الكريم مقدماً له بيالة شاي وهو يقول هامساً: «أين أنت يا رجل؟... هل وقعت على كنز، أم أن نورة أنستك أصحابك؟...»، وضحك عبد الكريم باقتضاب فيما كان هشام ينظر إليه مبتسماً دون تعليق بحب وود صادقين. كم يحب هؤلاء الأصدقاء وكم يحبونه. الحب في التنظيم مسألة مرفوضة، والصداقة شيء لا وجود له، العلاقة الرفاقية هي كل شيء، ولكنها علاقة باردة وجافة تفتقد حرارة الحياة. الحياة هنا حيث الأصدقاء، والحب هناك حيث نورة. وابتسم حين طافت نورة بخياله وأحس بنسيم داخلي يرطب كل ذرة في جسده.

نورة... حبة مطر في أرض يباس، نسمة صبا في ليلة ساكنة. خمرية اللون تصغره بعامين تقريباً، من أسرة نجدية لا تعرف من نجد إلا إسمها، ومع ذلك ما زالت محافظة على اللهجة النجدية المميزة، وكثير من العادات النجدية القديمة التي تركتها أسر نجد ذاتها. كان أبو نورة من كبار تجار مواد البناء في المنطقة الشرقية، الذين يتعاملون مع أرامكو، وكان ثرياً بكل ما في الكلمة من معنى، إلا أنه في شكله ومسكنه لا يختلف عن أي شخص من متوسطي الحال. فبيته لا يختلف عن بيتهم كثيراً، ولا يستخدم إلا سيارة واحدة لا تختلف عن سيارتهم «البيجو» كثيراً، ويخلو بيته من الخدم والصبيان رغم قدرته على الإتيان بالكثير منهم. وكانت نورة ذات مظهر تقليدي صرف... فستان طويل غير مكسم يصل إلى الكعبين، بأكمام طويلة، وضفيرتين طويلتين من الشعر الأسود الفاحم تنسدلان على ظهرها متجاوزتين منتصف عجيزتها الآخذة

في التكور والإكتناز مع فورة الشباب. كانت أميل إلى القصر، ولكن ذلك منحها ملاحة فوق ملاحة. أما وجهها، فقد كان أبرز ما فيه عينان واسعتان شديدتا السواد، وأنف دقيق، وفم صغير جداً بشفتين مكتنزتين داكنتين بعض الشيء، تطبقان على أسنان بيضاء غير متناسقة، خاصة الأسنان العليا، ومع ذلك كان عدم التناسق هذا يجعل من فمها أكثر جمالاً، وتحت ذلك الفم، يرقد ذقن في غاية الدقة والرقة يخشى عليه الكسر لو مسّته يد. وكانت نورة تضع دائماً خماراً أسود على رأسها تنسدل أطرافه على صدرها، جاعلاً من وجهها وتلك الأجزاء العارية من أعلى الصدر والعنق أكثر جمالاً وجاذبية. وكان صدرها قد بدأ يتكور عندما لفتت انتباهه أول مرة.

كانت تجلب لهم اللبن المخضوض كل مساء، فقد كان أهلها يحتفظون في المنزل بثلاث بقرات تقوم أم نورة بحلبها وخض الحليب وتوزيع ما يفيض عن حاجة المنزل على بعض الجيران، وكانوا من هؤلاء. وذات مساء، كان في غرفته يقرأ رواية «المتصيدة» لأميل زولا، وكان مثاراً مع أحداث الرواية، إذ سمع طرقاً على الباب الخارجي. لم يحرك ساكناً لعلمه أن الطارق هو «بنت الجيران» كالعادة، وأن أمه ستفتح الباب كالعادة أيضاً. ولكن الطرق استمر دون أن يفتح أحد مما عكر عليه صفو اندماجه في الرواية، فنهض بتثاقل وهو يزفر متأففاً مردداً: «طيب... طيب...» فتح الباب الخارجي بسرعة وهو ينوي العودة إلى روايته، ولكن عندما وقعت عيناه عليها أحس أنه يراها لأول مرة. وقف في مكانه لا يتحرك وهو لا يحرك عينه من عليها، فيما أسبلت هي عينيها وطأطأت رأسها خجلاً، قائلة بصوت متعثر يشبه الهمس:

ـ هل خالتي أم هشام موجودة؟... لقد أتيت باللبن.

ابتعد عن الباب المفتوح قليلاً، مفسحاً لها مجال العبور وهو يقول:

ـ تفضلي. . . إنها في الداخل.

لم يكن يدري هل أمه في الداخل أم لا، ولكنه يريدها أن تدخل. ودخلت نورة وهي مطأطأة رأسها وسلكت طريقاً تعرفه جيداً إلى الداخل. لم يستطع منع نظراته من ملاحقتها وهي تسير، ولفت انتباهه ردفاها المتكوّران وهما يهتزان مع كل حركة تقوم بها، وزاد من اهتزازهما مشيتها المتعثرة. . . يا إلهي كم هي مثيرة ومليحة. . . كيف لم يلحظ ذلك سابقاً؟ كان يحدّث نفسه وهو يتبعها إلى داخل المنزل. عندما وصلت نورة إلى المطبخ، كانت أمه خارجة من الحمام لتوها وقد تناثرت قطرات الماء على وجهها ويديها، حيث رحبت بنورة وتناولت منها وعاء اللبن، بعد أن حدجت هشام بواحدة من نظراتها النارية، لم يلبث بعدها أن غادر المطبخ واتجه إلى حديقة المنزل الصغيرة. . . لقد كان يريد أن يراها عندما تخرج. وما هي إلا دقائق، حتى سمع صوت أمه مودعاً نورة وهي تقول: «سلامي إلى أمك. . .»، ثم ظهرت نورة في طريقها إلى الباب الخارجي. قفز من مكانه واتجه إلى الباب الخارجي فاتحاً إياه بسرعة قبل أن تصل إليه. وقال لها وهي تدلف إلى الخارج «شكراً. . .» وابتسم برقة. نظرت إليه، فالتقت العين بالعين، ثم ابتسمت بدورها وقد التهبت وجنتاها، وأشاحت بوجهها عنه بسرعة وانطلقت إلى الخارج. خرج وراءها وأخذ يراقبها وهي تسير بعجل واضطراب، حتى أن وعاء اللبن الفارغ وقع منها والتقطته على عجل دون أن تنظر وراءها. وعندما وصلت إلى المنعطف المؤدي إلى منزلها، نظرت إلى الخلف فوقعت العين بالعين مرة أخرى، فأشاحت بوجهها بسرعة، ثم اختفت في المنعطف، وقد هيء له أنه رآها تبتسم مرة أخرى وأحسّ بحرارة وجنتيها تشويه من جديد.

وأصبح ينتظر مواعيد مجيئها بفارغ الصبر، فإذا ما أزف موعدها، خرج إلى الحديقة متذرعاً بأي حجة لو صادفته أمه، فهو عادة لا يخرج إلى حديقة المنزل. وبمجرد أن يسمع قرع الباب، يفتحه على عجل ويملأ عينه منها قبل أن تختفي في الداخل. لقد أصبحت نورة مثل نفحة الحياة بالنسبة له، فقد أدمنها وكان لا بدّ من ملء العين منها في الوقت نفسه من كل يوم. وأصبح آذان المغرب ذا وقع خاص في قلبه، إذ بعده تأتي الحبيبة. حتى أصحابه في الشلة لاحظوا حرصه على الإنصراف قبل المغرب بوقت كاف للوصول إلى المنزل قبل الآذان، وكان مثار تعليقات الجميع، ولكن عدنان وعبد الكريم فقط يعلمان سبب تصرّفه. وقد لاحظت أمه تواجده الدائم قبيل المغرب في الحديقة، ولمح في عينيها بعض الشك، ولكنها لم تقل شيئاً، فما زال في نظرها ذلك الفتى البعيد عن الشبهات الذي عرفت كيف «تربيه» وليس من أولئك الشبان «قليلي الأدب» الذين كانت تحذّره من الإختلاط بهم دائماً.

ولاحظت نورة اهتمامه بها، فكانت لا تبخل عليه بتلك الإتسامة العجلى كل يوم وهي خارجة. ومع الأيام اتسعت هذه الإبتسامة وأصبحت العينان أكثر جرأة. وتشجع ذات مرة وكتب على ورقة صغيرة بأحرف كبيرة «أحبك...»، ودسها في يدها وهي خارجة بسرعة واضطراب. أخذت الورقة وأخفتها في يدها بسرعة وقوة، وخرجت وهي تكاد تقع في مشيتها المتعثرة. أغلق الباب وراءها بسرعة وقلبه يخفق بشدة، ولم يخرج لمراقبتها وهي تختفي في المنعطف كعادته كل يوم. وبقي في انتظار يوم الغد على أحرّ من الجمر، وسط بحر من الأحاسيس والمشاعر المتضاربة والكثير من القلق. ماذا تظن به يا ترى؟... هل ستعتقد أنه من أولئك الفتية؟... هل ستغضب وتخبر والدها أو

والدتها؟... وخفق قلبه بشدة عندما طافت هذه الفكرة بباله. إنها مصيبة لو حصل ذلك، وهو لا يستطيع الإنكار فلديها «دليل مادي» بخط يده. سيغضب والداها ويخبران والديه ويفقد ثقة أبيه ويحطم قلب أمه... كلا. إنها لن تفعل ذلك. لقد كانت تبتسم وأخذت الورقة... لا شك أنها تبادله المشاعر نفسها وإلا لما أخذت الورقة.

وجاء اليوم التالي، وأزف الموعد، وها هو المؤذن ينادي لصلاة المغرب، وتمر نصف ساعة ولكن الباب لا يطرق. وأخذ الخوف والقلق يعصفان به، هل أخبرت والديها فمنعاها من الحضور؟ لن تضربه أمه كما في السابق، ولكنه سيفقدها إلى الأبد، وسيعنّفه أبوه، ويزدريه إلى الأبد. وفجأة، وسط هذا المحيط من القلق، يطرق الباب، ينطلق بسرعة ويفتحه، وها هي أمامه بكل أنوثتها المبكرة. نظرت إليه وابتسمت على عجل ثم دلفت إلى الداخل تاركة إياه وقد أسند ظهره إلى الباب وهو يشعر ببعض الإرتياح... لقد جاءت وابتسمت. وبقي منتظراً عند الباب حتى ظهرت في طريقها إلى الخارج. فتح لها الباب، خرجت دون أن تلتفت إليه، ثم عندما أصبحت خارج الباب، نظرت إليه على عجل وقالت بسرعة وقد التهب وجهها ناراً... «وأنا أحبك»، أغلق الباب وأسند ظهره إليه وهو يبتسم وقد أحسّ كمن يملك الأرض والسماء معاً.

ـ ٢٨ ـ

وتطوّرت علاقته بنورة بعد ذلك، إذ أصبح يدبج لها رسائل الحب التي كان يدسها في يدها وهي خارجة، أو ينتظرها في الخارج ويدسها في يدها، إذا خشي عين والدته. وأصبحت هي تفعل الشيء نفسه،

فتلقي بردودها وهي خارجة على الأرض أو تدسها في يده إن كان هنالك فرصة، وكان هشام يفضل إستلام الردود من يدها مباشرة إذ إن ذلك يسمح له بملامسة يدها البضة. كانت رسائلها تكاد تحترق من فيض الحب، وإن عاب عليها ركاكة الأسلوب وضعف اللغة، ولكن كل ذلك لا يهم طالما أن الحروف قد كتبت بأنامل الحبيبة. لم يستطع إخفاء حبه الكبير، كان يريد أن يشاركه أحد فرحته بأول حب في حياته. أخبر عدنان، الذي حذّره من هذه العلاقة وطلب منه قطعها فوراً، وأخبر عبد الكريم، الذي كان مثاراً ويطلب المزيد من التفاصيل عن لقاءاتهما.

وهو يذكر إلى اليوم طعم وحرارة أول قبلة من فم الحبيبة، بل أول قبلة في حياته. كانت أمه في زيارة تهنئة لأحد نساء الجيران التي وضعت مولوداً جديداً، عندما جاءت نورة في موعدها. تركها تدخل كالمعتاد متجهة إلى المطبخ، دون أن تحدثه أو يحدثها، فقط تلك البسمة المعتادة. سار وراءها حتى دخلت المطبخ، دون أن تنتبه إلى أنه يسير وراءها. وضعت وعاء اللبن واستدارت وهي تنادي: «خالتي أم هشا...»، وتوقفت عن النداء حين وجدته يقف وراءها تماماً. تحول وجهها إلى لون النار، وسقطت منها الرسالة التي كانت تنوي أن تدسّها في يده. التقط الرسالة على عجل ودسّها في جيبه، فيما كانت هي قد خرجت من المطبخ وأصبحت في الصالة. لحقها على عجل وأمسك بيدها وهي تحاول أن تتملص، ولكن شدد قبضته على يدها حين أحس بتلك النار المنبعثة من جسدها. جذبها إليه وهي تهمس باضطراب: «لا... عيب... عيب يا هشام»، ولكنه كان في حالة لا تعرف الفرق بين العيب وغيره ولا تريد أن تعرف. أحسّ بيدها ترتعش بعنف بين يديه، مثل ذلك العصفور الذي اشتراه بربع ريال، وقلبه يدق بعنف مع

كل ارتعاشة من يدها. قادها إلى غرفته، وتبعته بتردد وتعثر وهي ما زالت تردد: «عيب... عيب... لا يجوز»، ولكنه لا يسمعها. دخلا الغرفة، وأغلق الباب وراءه بالمفتاح، ثم اتجه بها إلى السرير. أجلسها على حافة السرير وجلس إلى جانبها، ويده ما زالت قابضة على يدها. حاولت التملص عدة مرات، ولكنه لا يسمح لها بذلك، وأخيراً رضخت للأمر وبقيت جالسة ساكنة مطأطأة الرأس والدم يكاد يتدفق من وجنتيها. نظر إليها بعينيه الواسعتين بكل تدلّه وهو يقول:

ـ أحبك... أحبك يا نورة.

بقيت مطأطأة رأسها في سكون تام، ولكنها قالت بهمس لا يكاد يسمع:

ـ وأنا... وأنا أحبك.

ترك يدها، ومد يده إلى خمارها الأسود وأخذ يجذبه من على رأسها، ولكنها أمسكت بخمارها رافضة نزعه. أمسك بيدها مرة أخرى وأخذ يضغط عليها برفق بين يديه واقترب بوجهه من وجهها، ولثمها بسرعة على وجنتها الملتهبة. قفزت من مكانها وهي تردد: «عيب... عيب...»، ولكنه اقترب منها وهو ما زال ممسكاً بيدها ضاغطاً عليها برفق. مدّ يده مرة أخرى إلى خمارها وأخذ ينزعه رويداً رويداً دون ممانعة جادة منها، وبدأ ذلك الشعر الفاحم اللامع المضمخ بالزيوت يظهر مسترسلاً على جانبي الرأس يفصل بينهما خط نصفي لا اعوجاج فيه. أخذ يتحسس شعرها بكل رقة، وهو يحس أن يده تكاد تنزلق من فرط النعومة والزيوت. ثم اقترب أكثر وأخذ يشم شعرها بلذة، ثم مدّ يده وأخذ يتحسس نعومة وجنتيها، وانزلقت يده إلى ذقنها الدقيق وأمسك

به ورفع رأسها إليه. كانت عيناها مسبلتان وشفتاها ترتعشان. اقترب وجهه من وجهها بهدوء ومست شفتاه شفتيها، فأحس وكأن جمرة لذعته. أبعدت وجهها بسرعة وهي تردد: «لا يجوز... عيب...»، ولكنه أمسك بذقنها مرة أخرى، واقتربت الشفاه من جديد. إنه يريد قبلة حقيقة... قبلة مثل تلك القبلات التي يطبعها كمال الشناوي على شفتي شادية في تلك الأفلام التي يبثها التلفزيون كل ليلة. طبع شفتيه على شفتيها، فأحس بجمرة مرتعشة تشويه، ثم مد يده وأحاط ظهرها بها وأخذت يده تتحسس ظهرها بهدوء ونعومة. ألصق شفتيه أكثر، حتى أحس بأسنانه تصطدم بأسنانها، فيما الجمرة تزداد توهجاً. بقيا على هذه الحالة لفترة لا يعلمها، إذ يتوقف الزمن في مثل هذه اللحظات، وغمرهما السكون الكامل. ثم فجأة، تناهى إلى سمعه صوت الباب الخارجي وهو يفتح... لقد عادت أمه. لا شك أنها أمه، فوالده لا يأتي من عند أصحابه في «الشبة» إلا بعد العشاء بساعة على الأقل. ترك نورة بسرعة وقلبه يخفق بشدة، وانفضّ اشتباك الشفاه المحمومة، وقفزت نورة من على السرير، والتقطت خمارها الملقى على الأرض ووضعته على رأسها بسرعة واستعجال. جلس على مكتبه والتقط كتاباً كان ملقياً هناك وفتحه كيفما اتفق وهو يقول لنورة بسرعة واضطراب:

ـ اذهبي إلى المطبخ بسرعة... سأقول لأمي إنك جئت هذه اللحظة. هيا... أسرعي.

وأسرعت نورة إلى المطبخ وهي تتعثر في خطواتها، فيما تصنّع هو القراءة. بعد قليل سمع صوت أمه وهي تودع نورة بالتحية المعتادة:

ـ مع السلامة... سلامي إلى أمك.

وما هي إلا لحظات حتى أطلّ رأس أمه من الباب قائلة مباشرة:

ـ منذ متى ونورة هنا؟

تصنّع عدم المبالاة، وحاول أن يكون طبيعياً قدر الإمكان، ورفع رأسه إلى أمه قائلاً:

ـ مساء الخير يا أمي... لا أدري. ربما أقل من دقيقة. فتحت لها الباب وعدت إلى مكتبي مباشرة. لماذا؟...

ولم تتفوه أمه بكلمة، بل بقيت تنظر إليه طويلاً، ثم تركت الغرفة وهي تتمتم بكلمات لم يسمعها، وبقي هو غارقاً في ذكريات الجمر الذي كان في غرفته.

ـ ٢٩ ـ

كان سالم وسعود وعبد العزيز وعبد الكريم يلعبون «البلوت»، فيما كان هو وعدنان يجلسان غير بعيد عنهم في أحد أركان مجلس بيت عبد الكريم، يتحدثان عن آخر لوحة رسمها عدنان والتي أسماها «الحرية». رسم رجلاً بحجم كبير مقيد بالسلاسل، رافعاً يديه إلى السماء وقد بدأت إحدى الحلقات بالإنفكاك، وحول الرجل وجوه أصغر لرجال ونساء في أوضاع مختلفة وهم ينظرون إلى الرجل الكبير ويصرخون، وقد تمزّقت ثياب الرجال وتناثرت شعور النساء على وجوههن. لقد كان عدنان صديقه الأثير منذ أن تعرف عليه لأول مرة عندما جمعهما فصل واحد في السنة الأولى الإبتدائية. وقد كان والداهما صديقين من المدينة نفسها، ألقى بهما طلب الرزق في الدمام بعد أن جابا المنطقة شمالاً وغرباً، وامتدّت صداقة الوالدين إلى الولدين.

كان عدنان يتحدث إليه وهو غير مستوعب لما يقول إذ كان يفكر في شيء آخر. . . لِمَ لا يدعو عدنان إلى التنظيم؟ إنه واثق من قبول عدنان، إن لم يكن من أجل المبدأ، فمن أجل صديقه. . .

ـ هشام. . . هشام. . . أين أنت؟ ما أسعدكِ يا نورة!

وتنبه إلى رنة المزاح في صوت عدنان، فقال وكأنه مستيقظ من حلم لتوه:

ـ اسمع يا عدنان. . . أريد أن أراك على إنفراد. سأمر بك عصر الغد في المنزل. . . الأمر في غاية الأهمية.

بوغت عدنان بالأمر، إلا أنه وافق دون تردد قائلاً:

ـ لا بأس. . . لا بأس. كما تريد. سوف أكون بانتظارك.

ولاذ الإثنان بالصمت، فيما صيحات الأصحاب من حولهما تزداد علواً. . . صن. . . حكم. . . مية. . . سراء. . .

وانتهى الأصحاب من اللعب، فألقوا بورق اللعب جانباً وهم يتعاتبون حول الأخطاء التي ارتكبت أثناء اللعب. . . لقد هرّبت إليك السبيتي، فلماذا تعود به ثانية؟. . . لماذا لم تقل إكة عندما ألقيت بالبنت؟. . . لو فعلت ذلك لكبتت. . . لماذا تفرنكت؟. . . لقد أضعت علينا القهوة. . . كان من المفروض أن تشحط. . . بس وش اقول. . . غشيم. . . أنا لست غشيماً. . . انت الغشيم. . . هل هناك في الدنيا من يلعب الشايب ومعه الإكة؟. . . ليش ما سحبت كل الحكم. . . كان المفروض أن تسحب الحكم. . . بغيت اتفرنك. . . ايه. . . وضيعت القهوة علينا. . وجلس الجميع يتحدثون ويتمازحون ويرتشفون الشاي الحار دون نظام وقد علت أصواتهم. ثم رفع عبد الكريم طالباً الصمت قائلاً:

ـ هدوء يا جماعة... هدوء من فضلكم.

وصمت الجميع وأعينهم معلقة بعبد الكريم، الذي وضع قناعاً من الصرامة على وجهه وهو يقول:

ـ تعلمون أن جمال عبد الناصر سوف يخطب الليلة... ما رأيكم أن نجتمع ونستمع إليه سوياً؟

ونظر إلى الجميع منتظراً الإجابة. وافق هشام وعدنان على الإقتراح بهزّة من رأسيهما دون كلام، فيما رفض سعود معتذراً ببعض الواجبات الخاصة، ووعد عبد العزيز بمحاولة المجيء إذا أنهى أعمالاً كلّفه أبوه بها، أما سالم فقال إنه غير متحمس ولكنه سيحاول الحضور من أجلهم فقط.

ـ على أية حال سوف نكون هنا، وحيّا الله من جاء...

قال عبد الكريم، ثم صمت لحظة قال بعدها:

ـ وسوف يكون معنا جارنا إبراهيم الشديخي، وهو ناصري متحمس و... ملحد.

وصمت عبدالكريم مرة أخرى وهو يبتسم، جائلاً بنظره حول الجميع في محاولة لاستشفاف وقع كلمته الأخيرة على الحضور. لم يبدر من أحد أي بادرة تنمّ عن أي انطباع، فيما عدا سالم الذي قال باندهاش:

ـ ملحد!.. تعني أنه لا يؤمن بالله. استغفر الله العظيم...

ـ نعم...

قال عبد الكريم:

ـ إنه لا يؤمن بأي شيء لا يمكن إثباته علمياً...

كان الجميع يتوقعون ردة الفعل هذه من سالم، فهو أكثرهم تديناً، وملتزم بأداء كل الفروض الدينية، إذ كثيراً ما يكونون يلعبون البلوت أو يتسامرون ويؤذّن المؤذن، فيقوم من بينهم ويتوجه إلى القبلة ويؤدي الصلاة، ثم يعود إليهم مبتسماً وهو يقول: «ها... عسى ما فاتني شيء؟» ثم يواصل ما انقطع. كان سالم يتصور أي شيء، ومن الممكن أن يتقبل كل شيء، إلا أن يكون الإنسان غير مؤمن بالله جملة وتفصيلاً.

ـ إذا لم يكن الله موجوداً، والعياذ بالله، فمن خلق الخلق... كيف نشأت الأرض والسماء؟

قال سالم وقد صرّ عينيه وظهرت خطوط جبينه!

ـ هكذا... صدفة... تطور... الطبيعة هي أساس كل شيء. هي الخالق والمخلوق في الوقت ذاته. هكذا يقول إبراهيم...

قال عبد الكريم بهدوء ودون اكتراث وهو يرتشف الشاي بصوت مسموع وينظر إلى سالم بكلتا عينيه.

ـ كلام فارغ... كلام فارغ.

ردد سالم، ثم قال:

ـ لا بدّ لكل مصنوع من صانع... والصانع لا يكون مصنوعاً. الطبيعة مصنوعة فلا بدّ لها من صانع، ولا يمكن أن تكون صانعاً ومصنوعاً في الوقت ذاته.

ـ إذاً... من خلق الله؟!

تساءل عبد الكريم وهو يرتشف آخر جرعة من الشاي.

ـ قلت لك... الخالق لا يكون مخلوقاً. وأنت تحاول أن تدخلنا

في حكاية البيضة والدجاجة أيّهما وجد أولاً. . . وعلى أية حال ما تقوله هو من الجدل المكروه، بل المحرم الذي نهانا عنه رسول الله ﷺ لأنه لا يؤدي إلى نتيجة. لقد أمرنا بالتفكّر في آيات الله ومخلوقاته وليس في ذات الله. . . الله موجود. وهو يفصح عن ذاته في مخلوقاته ومن خلال رسله وأنبيائه.

وسكت سالم قبل أن يواصل الحديث قائلاً:

ـ هل يكفر صاحبك إبراهيم هذا بالرسل والأنبياء أيضاً؟

وضحك عبد الكريم وهو يقول:

ـ إنه لا يؤمن بمن أرسلهم فكيف تريده أن يؤمن بهم؟

وتقلص وجه سالم، وأخذ يهز رأسه يمنة ويسرة وهو يقول:

ـ استغر الله العظيم. . . أعوذ بالله العظيم.

ثم هبّ واقفاً وهو يقول:

ـ كنت أفكر بالمجيء الليلة. . . أما وصاحبك الكافر هذا سيكون هنا، فإني أفضل الابتعاد والبحث عن شيء أفضل أقوم به. بالإضافة إلى أني لا أحب صاحبكم جمال، ولا خطبه. . . ألا تكفي الهزيمة أيها الأغبياء. أنا لا أحب هذا الرجل. . . إنه شيوعي.

قال سالم بسرعة، ثم اتجه إلى الباب الخارجي، فيما عبد الكريم يناديه صائحاً:

ـ وين رايح؟. . . عسى ما زعلت؟

وجاء الرد من الخارج:

ـ وليش ازعل. . . لكم دينكم ولي دين. عسى الله ما يسلّط إبراهيم

وربعه علينا. ولا يسلّطكم على المسلمين. . .

ثم سمع صوت الباب وهو يغلق، والجميع يضحكون بحبور.

- ٣٠ -

اجتمع الأصحاب تلك الليلة، هشام وعدنان وعبد الكريم وعبد العزيز، وانضمّ إليهم إبراهيم الشديخي. رجل في حوالى الخامسة والثلاثين من العمر، قصير القامة، نحيف البنية، طويل شعر الرأس، أشيب العوارض، بلحية ضخمة مسترسلة يشوبها بعض الشعيرات البيضاء اللامعة، في وجهه أثر جدري خفيف، وفي إحدى عينيه حول طفيف، وتسكن وجهه مهابة واضحة. وكان إبراهيم يلبس ثوباً أبيض وغترة بيضاء من غير عقال، تفوح منه رائحة البخور الجيد ودهن العود.

جلب عبد الكريم جهاز الترانزيستور وأدار مفتاحه على إذاعة «صوت العرب»، حيث أعلن المذيع أن السيد الرئيس جمال عبد الناصر سوف يلقي خطابه بعد قليل. نهض عبد الكريم، وأحكم إغلاق النوافذ بعد أن نظر إلى جانبي الزقاق، ثم عاد إلى مجلسه وانضمّ إلى الجمع الصامت. وماهي إلا لحظات، وأتى صوت المذيع معلناً وصول السيد الرئيس، ثم بعد ذلك بقليل جاء صوت جمال عبد الناصر منساباً عبر الأثير، دقيقاً رقيقاً لا يعبّر عن الحجم الجسدي للرجل، بعكس صوت الملك حسين الفخيم الذي يوحي لك بضخامة صاحبه وهو على العكس. جاء صوت جمال وهو يقول: «أيها الأخوة المواطنون. . .»، ثم تحدث عن الإستعمار وتكالب القوى الإستعمارية ضدّ الأمة العربية وقواها التحررية، ثم تحدث عن مبادرة جديدة للسلام وقبول مصر لأي حل يؤدي للسلام

العادل. وانتهى الخطاب بعاصفة من التصفيق، ثم تلاه السلام الجمهوري: «والله زمان يا سلاحي. . .».

غريب أمر هذا الرجل. . . أخذ هشام يحدث نفسه. . . رغم الهزيمة ورغم كل شيء لا يزال صامداً، والغريب أنه لا يزال محبوباً. ولو خرجت الآن إلى أي شارع عربي من المحيط إلى الخليج، لما وجدت أدنى حركة. . . الكل يستمع لجمال. . . الكل تقريباً متفقون على جمال كما هم متفقون على أم كلثوم، وفي مساء أول خميس من كل شهر يقبع الجميع في دورهم أمام أجهزة الراديو يستمعون إلى «الست» وهي تحيـي حفلتها. جمال وأم كلثوم. . . عنوان هذا الزمن وليسا مجرد شخصين. والغريب أن جمال أصبح لا يطرح جديداً بعد الهزيمة، ولكنه لا يزال معبوداً للجماهير. حتى خطابه الليلة ليس فيه أي جديد، بل هو انتكاسة عن فكر جمال قبل النكسة وحتى عن لاآت الخرطوم، إذ إنه في هذا الخطاب أعلن قبوله للسلام والصلح، ورغم ذلك فإنه لا زال لكلماته ذلك الوقع والأثر الغريب. إنه لا زال يذكر ذلك الأثر الطاغي الذي يهزّ الجسد في خطابات ما قبل ٦٧، ووالده لا تزال ترن في أذنه كلمات جمال ٥٣، و٥٦، و٥٨، وما زال والده يردّد بنوع من السحر كلماته الأولى: «ارفع رأسك يا أخي. . . فقد ولّى عصر الاستعمار. . .»، وما زال يقول: «لو كان بعد محمد نبيّاً، لكان جمال. . .»، وهو نفسه ما زال أسير هذا الرجل، رغم أنه أصبح بعثياً من المفروض أن يكرهه، ومن المفروض أن ينتقده بلا هوادة، ولكن خيطاً يربطه بهذا الرجل لا يريد أن ينقطع رغم بعثيته وماركسيته وعلميته.

ـ ما رأيكم في الخطاب؟

قال عبد الكريم وهو يحاول فتح باب النقاش بعد أن أغلق جهاز

الراديو. وساد صمت قصير، أخذ فيه الجميع يتطلعون لبعضهم بعضاً، ثم قال إبراهيم بهدوء وقد اكتسى وجهه بالوقار وسمت الحكماء:

ـ أنا أثق بجمال... لا شك أنه لم يقبل مبدأ الصلح والسلام إلا عندما وجده مفيداً... هذه المرحلة على الأقل.

كان واضحاً من جملة إبراهيم الأخيرة أنه يبحث عن مبرّر لموقف الزعيم الذي لم يكن أحد يتوقعه بعد اللاءات وحرب الاستنزاف وكل ذلك الحديث عن الاستعمار والصهيونية والمؤامرة الأميركية. وهنا قال عبد الكريم بتعجب:

ـ غريب أمرك يا إبراهيم... ألم نكن نتحدث عن هذه المسألة بالأمس وقلت بثقة إن جمال لن يقبل بغير التحرير الكامل لفلسطين!

اضطرب إبراهيم قليلاً، ثم قال:

ـ نعم... ولكننا نحلل على الظن دون معلومات مؤكدة... أما جمال فلا شك أنه يتخذ قراراته بناءً على معلومات دقيقة... وهو لا يتخذ قراراً إلا ويعرف أنه القرار الأصوب والأكثر فائدة للأمة.

وهنا علّق عبد العزيز بسخرية واضحة قائلاً:

ـ نعم... مثل قرار إغلاق مضائق تيران في وجه الملاحة الإسرائيلية عام ١٩٦٧... أليس كذلك يا أخ إبراهيم؟

وانتفض إبراهيم غاضباً، فاقداً كل وقاره دفعة واحدة وهو يقول:

ـ ٦٧ كانت مؤامرة واضحة. نعم مؤامرة... اشترك فيها الجميع، حتى الإتحاد السوفييتي الذي كان يظهر الصداقة لجمال... قالوا له لا تهجم أولاً. ووثق بهم جمال. إنها مؤامرة محبوكة من جميع الأطراف.

وصاح عبد العزيز وهو يحرك يديه في كل اتجاه:

ـ بلا مؤامرة بلا بطيخ، إن كل إنسان بسيط يعلم أن إغلاق المضائق يعني خنق إسرائيل... أي الحرب. فكيف بالزعيم المبجل... إذا لم يكن مستعداً للحرب فلماذا يستفز الآخرين للحرب؟... إنه زعيم «أونطة» كما يقول المصريون...

وهنا قال إبراهيم وقد ثارت أنفاسه وجحظت عيناه وبرزت عروق وجهه:

ـ كان مستعداً للحرب، ولكنها الخيانة... خيانة المشير وانسحابه الأهوج من سيناء.

وهنا علق عبد العزيز قائلاً بسخرية:

ـ يا سلام... وما تريده أن يفعل؟... لقد دمر سلاح الجو، وأصبح الجيش مكشوفاً في الصحراء... لو لم يفعل ذلك، لكانت مجزرة بحق وحقيق.

ثم وهو يبتسم ساخراً:

ـ خيانة؟... مؤامرة؟... أبحث عن مشجب آخر يا أخ إبراهيم.

وبحنق بدا واضحاً على وجهه، ردّ إبراهيم قائلاً:

ـ كان من المفروض أن يصمد حتى آخر جندي... ما كان يجب أن يستسلم بهذه السهولة.

وضحك عبد العزيز وهو يلقي برأسه إلى الوراء ويقول:

حتى آخر جندي في سبيل الزعيم الخالد... أليس كذلك؟ المعذرة يا أخ إبراهيم... ألا ترى أن حبّك لجمال جعلك لا ترى

الحقيقة العارية؟ أنظر إلى سوريا... لم تسقط الجولان إلا بعد سقوط سيناء وانهيار الجيش المصري، أقوى قوة ضاربة في الشرق الأوسط.

قال عبد العزيز جملته الأخيرة، ورسم ابتسامة ساخرة على فمه، فيما كان هشام يتابع الحوار وقد شدّه كلام عبد العزيز... عنصر جيّد. قد يدعوه للتنظيم يوماً ما... فيما قال إبراهيم وهو ينظر إلى عبد العزيز شزراً:

ـ لا ريب يا أخ عبد العزيز أنك بعثي! البعثيون فقط هم من يكره جمال بهذا العنف.

واعتدل عبد العزيز في جلسته وقال بحدة:

ـ ليست المسألة حب أو كره... المسألة أين الصحيح. إنك تحور النقاش بعد أن فقدت الحجّة.

ثم التقط أنفاسه وعاد إلى الإسترخاء من جديد، قبل أن يقول:

ـ ولنفرض أني بعثي... ما العيب في ذلك؟ ألست ناصرياً؟ يؤسفني يا أخ إبراهيم أن أقول لك إنك ساذج مع الإحترام... ساذج في تحليلك للسياسة... وساذج في إلحادك... إذا كنت تحلل الدين بمثل تحليلك للسياسة، فلا شكّ أن الحق مع سالم.

وامتقع وجه إبراهيم، ونظر إلى عبد الكريم نظرة لوم وعتب... لا شكّ أنه أخبرهم بكل شيء... وبقي ساكناً للحظات لا يتفوّه بأي كلمة، وقد بان الحرج على وجهه، ثم نهض بعجلة متجهاً إلى الخارج، وهو يلوح بيده بعجلة واضطراب، ويقول بصوت مرتعش: «فرصة سعيدة يا جماعة... في أمان الله...»، ونهض عبد الكريم في أثره، وبقي الإثنان عند الباب الخارجي يتهامسان بكلام مبهم غير مفهوم، ثم عاد

عبد الكريم وهو عابس الوجه، وقال موجهاً حديثه إلى عبد العزيز، وهو يهم بالجلوس:

ـ لقد أهنت الرجل يا عبد العزيز... ما كان لك حق أن تتحدث عن مسألة الدين. لقد أحرجتني فعلاً.

وهب عبد العزيز واقفاً وهو يقول:

ـ ولا تحرجني ولا أحرجك... الوجه من الوجه أبيض.

ثم وهو يتجه إلى الخارج بغضب:

ـ الحق عليّ أن جئت من الأساس. لقد كان سالم على حق...

وكان قد وصل إلى باب الخروج، عندما نهض عبد الكريم وراءه، ولكن عبد العزيز كان قد أصبح في الشارع، فعاد عبد الكريم أدراجه وهو يردّد:

ـ لا حول ولا قوّة إلا بالله... لا حول ولا قوّة إلا بالله... ليش شانت النفوس بهذا الشكل؟

وجلس بجانب هشام وعدنان، وأخذ يصب لنفسه «بيالة شاهي» فيما كان هشام يقول:

ـ الحق عليك يا عبد الكريم... نحن شلة واحدة، وقد أتيتنا برجل غريب. أكبر منا سناً يريد أن ينظر علينا ويصبح زعيماً علينا. ما لك حق. ما لك حق...

نظر إليه عبد الكريم وهو يرتشف الشاي دون أي تعبير على وجهه، ثم أخذ ينظر إلى «براد» الشاي وهو يردد: «هذا اللي صار عاد... هذا اللي صار...»، فيما كان الصمت يلف الجميع...

- ٣١ -

عصر اليوم التالي، ذهب إلى منزل عدنان، حاملاً أحد منشورات التنظيم الذي يتحدث عن أمور داخلية، طاوياً إياه بحرص، مخفياً إياه بين الفانلة الداخلية والجسم. وعندما طرق الباب، فتحت له أخت عدنان الصغرى سمية، ثم اتجه إلى المجلس الذي يعرفه جيداً، وهناك كان عدنان وأخاه ماجد يلعبان «الكيرم». وشعر هشام بغضب شديد، لقد وعده عدنان أن يكون وحيداً، وها هو يلعب بلا مبالاة مع أخيه. اتخذ لنفسه مجلساً بين الاثنين، وهو يتصنع الهدوء ومتابعة المعمعة التي يبدو أن ماجد كان متحمساً لها، فيما كان داخله يغلي بالغضب، ويزداد شعوره بالغضب وهو يرى لامبالاة عدنان. وجاءت صينية الشاي، تحملها ابتهال، أخت عدنان وماجد غير الشقيقة من زوجة أبيهما الشامية، ومعها بعض أقراص الغريبة والمعمول والمبرومة، حيث وضعت الصينية بجانب هشام ثم نفحته بنظرة من عينيها العسليتين وبسمة سريعة قبل أن تغادر وقد توردت وجنتاها الصافيتان. وتابع هشام ابتهال وهي تخرج وتختفي وراء الباب، وبدون شعور أخذ يقارن بين ابتهال ونورة. لقد كانت ابتهال أجمل، بعينيها العسليتين وبشرتها البيضاء الصافية، وشعرها الكستنائي المتموج وقامتها الممشوقة، ولكن نورة تبقى أكثر ملاحة وجاذبية. وأيقظه من سرحانه صوت ماجد وهو يصيح بفرح بعد أن أسقط «الحبة» الحمراء وأتبعها بحجر التأمين معلناً عن نهاية المباراة لصالحه، فيما كان عدنان يصف الأحجار من جديد استعداداً لجولة أخرى، وهو يحاول تجنب نظرات هشام الغاضبة. وفيما كان الأخوان ينخرطان في معمعة جديدة، سكب هشام لنفسه بيالة من الشاي الساخن

أخذ يحتسيها وهو يقضم قرصاً من الغريبة دون شهوة وقد عاد إلى سرحانه من جديد.

وانتهت المباراة بصرخة أخرى من صرخات ماجد، فيما كان عدنان يصف الأحجار استعداداً لجولة جديدة، إلا أن ماجد استوقفه وهو يضحك ساخراً: «كلا... لن ألعب معك... أحتاج إلى متحد حقيقي... ايش عرفك انت بالكيرم؟... خليك في الرسم أحسن»، ثم صبّ لنفسه بيالة شاي أخذ يرتشفها على عجل وهو لا يزال يضحك، ثم قال لهشام: «فيك شدة؟... أم أنك مثل صاحبك؟ أراهنك على أربعة قروش إنك لن تستطيع هزيمتي مهما لعبنا»، فاغتصب هشام بسمة سريعة وهو يرفع حاجبيه الكثيفين إلى الأعلى ويومىء برأسه وهو يقول: «لا يا عم... دعني في حالي، فأنت لا يعلى عليك في هذه الأمور»، وارتسمت بسمة زهو على محيا ماجد وصبّ لنفسه بيالة شاي أخرى أخذ يرتشفها بهدوء وتلذّذ وهو ينظر إلى أخيه قائلاً: «يبدو أنه ليس هناك غيرك في الميدان يا أخي العزيز... هيا... صف الأحجار»، وبدون تردد أخذ عدنان في الصف وهو يتجنّب نظرات هشام الذي بادر بالقول، قبل أن تبدأ جولة جديدة: «عدنان... هل نسيت موعدنا مع عبد الكريم؟»، ونظر إليه عدنان بسرعة ثم حول نظره إلى إبريق الشاي وأخذ يصب لنفسه بيالة وهو يقول بصوت هامس: «لا... لا... أنا لم أنسَ... أنا جاهز متى أردت الذهاب»، فوضع هشام بيالته نصف الممتلئة في الصينية وتأهب للنهوض وهو يقول: «إذاً فلنتحرك... عن إذنك يا ماجد»، نهض هشام بسرعة وعدنان في أثره وخرجا من المنزل، غير أن هشام ألقى نظرة سريعة إلى الداخل قبل أن يصبح خارج المكان، فيما كان صوت ماجد الساخر يأتي من المجلس وهو يقول: «يا لكم من

سخفاء!... كل يوم هذه الجلسات السخيفة. ألا تملّون. مضيعة وقت صحيح...».

كان ماجد الإبن الثاني لعائلة العلي وهو شقيق لعدنان من الزوجة الأولى لأب لديه ثلاث زوجات وستة أولاد وسبعة بنات، كلهم يعيشون في المنزل نفسه. كان ماجد يصغر عدنان بسنة واحدة فقط، ولكنه كان يختلف عنه كل الإختلاف، بل هو على عكسه تماماً. فقد كان عدنان ذا حس مرهف، وشخصية لا تحب الاصطدام، بحيث أنه لا يحبّ الدخول في مناقشة أو جدل، وإن فعل ذلك، ترك المبادرة وقيادة دفّة الحديث للطرف الآخر. وكانت أفضل الأوقات لديه هي تلك التي يكون فيها وحيداً مع فرشاته ولوحاته، أو مع هشام صديق الطفولة حيث يتحدث بحرية وانطلاق عن لوحاته ومشاريعه المستقبلية. أما ماجد، فقد كان عملياً إلى أبعد الحدود، واجتماعياً إلى أبعد الحدود إذا كانت العلاقات الاجتماعية تؤدي إلى منافع مباشرة. وكان يعيب على أخيه عدنان انشغاله «بالكلام الفاضي»، على حدّ تعبيره، وانشغاله بالرسم وجلسات الشلّة التي لا يعرف أحداً خارجها، وكان يردد على مسمعيه دائماً: «المال هو كل شيء في هذه الدنيا... وليس الوقت إلا لصنعه وجمعه». لذلك كان ماجد يستغل كل وقت ممكن لجني المال، فعندما يخرج من المدرسة يسارع في الانتهاء من واجباته الدراسية ويبحث عن أي شيء يمكن عمله لجمع المال. ففي بعض الأيام كان يشتري زجاجة عصير توت مركز ثم يمزجها بالكثير من الماء ويبيعها على أطفال الحارة، وفي بعض الأحيان «يبسّط» ببعض الحلوى واللبان، وفي أيام الجمع يشتري الخضروات واللحم والسمك لبعض الجيران مقابل أجر بسيط، أو يذهب إلى الحراج ويدخل في مزادات بسيطة يعيد بيعها بربح لا بأس به بالنسبة

له. أما أيام إجازة الصيف الطويلة، فكان يعمل في أحد الحوانيت براتب شهري، أو يقضي وقته في الحراج إذا لم يتيسّر العمل الدائم. وكانت الذّ لحظات ماجد هي تلك التي يسرع فيها إلى البنك ويدخل ما حصل عليه من مال في حساب التوفير دون أن ينفق شيئاً على نفسه أو البيت، بل على العكس من ذلك، كان يأخذ مصروفه من والده مثله مثل أي فرد آخر من أخوته. وحتى هذا المصروف البسيط كان يحاول المستحيل كي يوفر منه شيئاً. أما أيام الأعياد فقد كانت هي الفردوس عند ماجد، إذ ينهض من الصباح الباكر ويعيد على أبيه وأمه ويحصل على العيدية ثم ينطلق إلى الأقارب والمعارف وعينه على العيدية التي يجمعها قبل أن ينتصف النهار ثم يتجه إلى أحد التجار الذين يعرفهم ويشتري منه كمية من الألعاب النارية يبيعها إلى أطفال الحي، ولا تنتهي أيام العيد إلا ويكون ماجد قد جمع ثروة صغيرة، ولا يحس بالعيد فعلاً إلا بعد إيداعها في البنك آمنة مطمئنة.

وكان والد عدنان معجباً بولده ماجد أيّما إعجاب، وكثيراً ما كان يؤنّب عدنان على انشغاله «بالكلام الفاضي» على مرأى من ماجد ويقول له: «لما لا تكون مثل أخيك وأنت الأكبر؟... إنه يستفيد من وقته وأنت تبدّده في الرسم والخرابيط. رسم!... أي مستقبل لهذه الخرابيط»، ثم يضرب كفاً بكف وينصرف وهو يهزّ رأسه ويحوقل، تاركاً ماجد في حالة انفجار من الزهو، وعدنان في حالة غليان وهو ينظر إلى أخيه دون أن يقول شيئاً، ثم يغادر إلى الشلة أو إلى فرشاته.

خرج الصديقان إلى الشارع وهشام يفكر بسرعة في مكان ينفردان فيه. وأخذ ينظر حوله فوقعت عينه على المسجد القريب من منزل عدنان، مسجد الشيخ موسى، الزاهد الذي ترك الدنيا بعد أن عبّ من

ملذاتها حتى الثمالة، وبنى مسجده هذا وتفرّغ للعبادة فيه، وتقديم الخدمات لمن يحتاجها من قاصديه الكثر. ابتسم هشام ونظر إلى صديقه وهو يقول:

ـ المسجد في هذا الوقت خير مكان للانفراد... سوف يكون خالياً تماماً... هيا بنا.

وانطلقا إلى المسجد، فيما كانت الشمس تميل نحو الغروب. وكان المسجد خالياً فعلاً عندما دخلا، إلا من شيخ مسنّ كان مستنداً إلى أحد الجدران وهو يتلو القرآن من مصحف صغير يحمله بيده اليمنى وهو يهزّ رأسه، عرفا فيه الشيخ موسى، بلحيته الكثّة الناصعة البياض، وذلك الشارب المحفوف بأناقة لا يجيدها إلا الشيخ موسى، وتلك الطاقية البيضاء المشخلة التي لا تفارق هامة الشيخ، وفوق كل ذلك، أريج «دهن العود» المميز للشيخ. نظر إليهما الشيخ عندما دخلا نظرة سريعة وابتسم بود صاف دون أن يتوقف عن التلاوة وهزّ رأسه، ثم عاد إلى مصحفه باستغراق. بحث هشام بنظره عن مكان مناسب، ثم اتجه إلى ركن قصي في جهة بعيدة عن موقع الشيخ، وعدنان في أثره. جلس الاثنان كل منهما مسنداً ظهره إلى أحد الجدران وصمتا لوهلة، فيما كانت عينا عدنان تحملان كل التساؤلات عن ذلك «الشيء الهام» الذي حدثه عنه صديقه. ودون أي كلمة نظر هشام حوله ثم دسّ يده في صدره وأخرج ورقة مطوية بعناية دفعها إلى عدنان بسرعة وهو ينظر حوله من جديد ويقول هامساً:

ـ خذ هذه... اقرأها بسرعة.

تناول عدنان الورقة بيد مرتجفة وبسطها على حجره وأخذ يقرأ،

وكانت عيناه تزدادان اتساعاً كلما أمعن في القراءة، فيما كان هشام يحثّه على الانتهاء مردّداً، وهو يلتفت يمنة ويسرة: «بسرعة. بسرعة»، وعندما انتهى عدنان من القراءة، كانت عيناه قد وصلتا إلى أقصى مدى من الاتّساع، فيما أخذت حبات عرق بارد تتصبّب من على جبينه، وكانت يداه ترتعشان وهو يعيد المنشور إلى هشام. أخذ هشام المنشور وطواه بسرعة ودسّه في صدره من جديد وهو يقول بسرعة:

ـ ها؟... وش رأيك؟

وكان عدنان يحاول الكلام، إلا أن لسانه لم يكن يطاوعه، وكانت يداه ترتعشان بشكل واضح، وأخذت حبات العرق البارد تبدو واضحة على جبينه وأنفه. وأخيراً استطاع أن يجمع شتات نفسه ويقول بتلعثم وصوت شديد الجفاف والخفوت:

ـ هذ... هذ... هذا كلام خطير... كلام يودي السجن.

ثم بلع ريقه ومسح جانبي أنفه بكفه وقال:

ـ من أين أتيت بالورقة؟ وما هو هذا الاتحاد الوطني لطلبة الجزيرة العربية؟... و...

وقاطعه هشام بعجلة قائلاً:

ـ دع الأسئلة فيما بعد. ما رأيك في المكتوب؟

ـ كلام زين...

قال عدنان وهو ما زال مضطرباً، ثم واصل قائلاً:

ـ ولكنه يودي في داهية. من أين...

ـ قلت لك دعك من الأسئلة الآن. سوف تعرف كل شيء لاحقاً.

كل ما أستطيع قوله الآن هو أنها صادرة عن تنظيم سري. . .

ثم وهو يتلفت من جديد:

ـ تنظيم يناضل من أجل الحرية. . . أنت تؤمن بالحرية، أليس كذلك؟

ولأول مرة يبتسم عدنان وهو يقول:

ـ بالطبع!. . . هل رأيت فناناً لا يؤمن بالحرية؟! أنت تعرف ذلك. . .

ـ إذاً فالتنظيم يدعوك إلى ما نؤمن به.

ـ نعم. . . ولكن.

ـ ليس هناك ولكن. الإيمان وحده لا يكفي. يجب أن يدعمه العمل.

ثم بعد صمت يسير، واصل هشام قائلاً بلهجة صارمة:

ـ أنا أدعوك إلى هذا التنظيم.

وسادت لحظة صمت كان هشام خلالها ينظر إلى صديقه الذي طأطأ برأسه، وهو يقبض على إحدى يديه بالأخرى في محاولة لوقف الارتعاش دون جدوى. ثم قطع هشام الصمت قائلاً:

ـ على أية حال ليس مطلوباً أن تجيب الآن. . . فكّر على مهل ثم أخبرني بقرارك.

وتهيّأ هشام للنهوض وهو يقول:

ـ لقد تأخّرنا على الشباب. . . هيا بنا.

ونهض هشام فيما بقي عدنان جالساً لعدة لحظات، ثم لم يلبث أن

لحق بصديقه عند باب المسجد حيث كان أول المصلّين لصلاة المغرب قد وصل، فيما كان صوت الشيخ موسى الرخيم يأتي مرتّلاً من بعيد: ﴿طه، ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى...﴾.

ـ ٣٢ ـ

كان هشام واثقاً من موافقة عدنان على الانضمام للتنظيم، فهو أعرف الناس به وبشخصيته، ثم إنه يعرف مدى محبّته وتعلّقه به منذ أن كانا في المدرسة الابتدائية. إنه يقف به بشكل مطلق ولذلك فإنه لن يتردّد في الموافقة. أما عدنان، فقد كان داخله يشتعل بجملة من المتناقضات المتعاركة التي لا يعرف كيف يمنحها الانسجام. كان خائفاً، بل مرعوباً خاصة وأن أحد أخواله دخل السجن بعد إضرابات ومظاهرات عمال أرامكو الشهيرة، حيث كان من المشاركين في أحد المسيرات العمالية، ولبث فيه بضع سنين خرج بعدها وهو في حالة يرثى لها، وبقي عاماً كاملاً بعدها وهو يرتعد، خوفاً كلما أقبل الليل لسبب لا يدريه أحد ولا هو يخبر أحداً بذلك، وإلى الآن يسير ويحدث نفسه ويضحك ثم يعود رزيناً كأفضل ما تكون الرزانة. وقد قاطع السياسة نهائياً بعد ذلك حتى أنه يترك أي مجلس تفوح منه رائحة السياسة. وكانت جدّته لأمه تردّد دائماً أمامه وأمام إخوته مقولتها الشهيرة وهي ترى ولدها في هذه الحالة: «هذا حبس الشيوخ... الداخل مفقود، والخارج مولود»، ثم تحمد الله على كل حال. ورغم أن كلمات جدّته ترن في أذنه دائماً وتصيبه بالرعب، إلا أنه لا يريد أن يخيّب أمل صديقه فيه. فهشام صديقه الوحيد الذي يفهمه ويقدّر فنه ويبثّه مشاعره وأحاسيسه، ولو خيّب أمله فربما

فقده إلى الأبد، وكان مجرد التفكير بفقده يصيبه بالهلع والخوف. فهو يحب هشام لدرجة أنه يحسّ بالغيرة عليه عندما يراه يتحدث مع شخص آخر بودّ أو يسير مع شخص جديد. ورغم أن ذلك لا يحدث إلا نادراً، فقد كان عدنان يشعر بغليان في داخله ثم لا يلبث أن يقحم نفسه بين هشام وأي شخص آخر. وفي الوقت نفسه كان عدنان يحسّ بالزهو لأن هشام دعاه هو بالذات وليس أي شخص آخر، وذلك يدلّ على مكانته عنده وثقته فيه. كان يودّ لو يستطيع الصراخ في وجه أخيه ماجد ووالده ويقول لهما: «انظرا... لقد دعاني هشام إلى التنظيم ولم يدعُ ماجد أو أي فرد آخر من الشلّة... أنا أفضل الجميع وسوف أحرّر الإنسانية في يوم من الأيام، وليبقَ ماجد عبداً للدرهم والدينار...»، ولكن هذا الإحساس بالزهو لا يلبث أن يتلاشى فجأة عندما يرد إلى خاطره أن هشام ربما دعا شخصاً آخر من الشلّة غيره وتأخذ الوساوس كل مأخذ... وما يدريه أنه فاتحه هو فقط في الموضوع؟ ألا يجوز أنه تحدّث إلى عبد الكريم أو سعود أو عبد العزيز قبله؟ ولكنه لا يلبث أن يطرح هذه الوساوس جانباً ويعود الإطمئنان إلى نفسه... لا. ليس هناك غيره. لو كان حدّث أحداً غيره لقال له. فهو صديقه الأثير... ثم يعود إلى فرشاته ويأخذ في الرسم وهو في غاية الابتهاج. الرعب والوفاء والفخر... ثلاثة براكين كانت تتلاعب بعدنان طوال الأيام الثلاثة لدعوته إلى التنظيم.

أثناء ذلك، كان هشام قد أبلغ مسؤول الخلية، فهد، عن ترشيحه لعدنان للانضمام إلى التنظيم، ولم يخبره بمفاتحته بذلك فعلاً، لأن ذلك مخالف لقواعد الأمن التنظيمي. وطلب فهد منه أن يكتب تقريراً مفصّلاً عن عدنان والأسباب التي دعته لترشيحه، ومعارفه ووضع أسرته الطبقي

ومعلومات أخرى. وشعر هشام بالمهانة والامتعاض من مثل هذا الطلب إذ كيف يكتب تقريراً عن صديقه؟! وكان يعلم تماماً أن التقارير لا تكتب إلا لتلك الأجهزة المعروفة سيئة السمعة، تقارير يكتبها أناس يكنّ لهم الناس كل احتقار بقدر ما يخافون منهم كل الخوف، فهل أصبح هو واحداً من هؤلاء؟ رافقه هذا الإحساس المقيت فترة ثم أخبر فهد أنه لن يكتب تقريراً. غضب فهد أول الأمر ثم أبلغه هشام أنه لن يتحول إلى مخبر مهما كلّف الأمر، وهنا ضحك فهد ضحكته المجلجلة، وأشعل سيجارة امتصّ منها نفساً عميقاً ثم قال لهشام إنه مناضل وليس مخبراً، ولأجل النضال يجب معرفة كل شيء عن المرشحين الجدد إذ قد يكونون من رجال تلك الأجهزة السيئة السمعة والمندسّين لكشف التنظيم. ولكن هشام لم يقتنع وأخبره أنه يعرف عدنان تمام المعرفة ولا داعي للتقارير، غير أن فهد أصرّ وبيّن له أن هذه هي القواعد التنظيمية ويجب الانصياع لها دون مناقشة، وأن الجميع قد فعلوا الشيء نفسه وفُعل بهم الشيء نفسه. ورضخ أخيراً وكتب التقرير على مضض وهو يحس باحتقار شديد يبصق عليه من الداخل، إذ مهما كانت المبرّرات فإنه أصبح لا يختلف في شيء عن أولئك الناس من مسترقّي السمع، وعزم على أن لا يرشح أحداً آخر كي لا يتعرّض لمثل هذه التجربة مرة أخرى.

وفي التقرير رشح عدنان لعضوية اتحاد الطلبة وليس الحزب، وعندما سأله فهد عن السبب، أجاب أن عدنان ليس جاهزاً بعد لعضوية الحزب والعمل الحزبي، فهو وطني حقاً، ولكن لا علاقة له بالأفكار والمعتقدات، والحزب قائم على فكر وعقيدة قد لا يحبذها عدنان وتجعله ينفر من العمل التنظيمي كله. وقبل فهد هذه التبريرات ورفع التقرير إلى القيادة التي سرعان ما جاء ردّها بالموافقة على انضمام عدنان

للاتحاد، وأمر الرفيق أبو هريرة القيام باللازم. والحقيقة أنه لم يكن صادقاً تماماً في تبريره بعدم ترشيح عدنان للحزب. صحيح أن عدنان ليس في مستواه الفكري، ولكن أفكار الحزب ليست من التعقيد بحيث تحتاج إلى مستوى فكري رفيع لفهمها، كما أن من يوافق على العمل التنظيمي السري ليس لديه مانع من دخول الحزب من البداية ثم يثقف حزبياً بعد ذلك. لم يكن يريد أن يدخل عدنان الحزب كي يبقى له ميزة عليه، فهو عضو في الحزب الذي يهيمن على الاتحاد، وبالتالي فهو أعلى مرتبة منه دائماً. فرغم حبه لعدنان، إلاّ أنه لم يعتبره ندّاً له في يوم من الأيام. كان يعتبره شيئاً من أشيائه لا يود لأحد أن يستولي عليه أو يسيطر عليه غيره، لذلك يجب أن يكون تابعاً له دائماً، حتى في العمل السرّي، وهذه العلاقات الرفاقية الجديدة.

بعد أكثر من أسبوع من دعوته عدنان، كانت الشلة مجتمعة كعادتها في منزل عبد الكريم. كان عبد الكريم وعبد العزيز يتحدثان حول رواية جديدة حصل عليه عبد العزيز من قريب له قادماً لتوّه من بيروت. وكان الاثنان يتحدثان بإثارة واضحة، خاصة عبد الكريم الذي كان كثير الحركة وصرّ فخذيه إلى بعضهما. وكانت الرواية مع عبد العزيز الذي كان يقرأ مقاطع منها بهمس على مسامع عبد الكريم. كانت إحدى روايات ألبرتو مورافيا بعنوان «مغامرات كارلا»، يزين غلافها صورة فتاة بيضاء بشعر أشقر وشفتين قرمزيتين وعينين خضراوين واسعتين، وقد جلست بإغراء على ساقين طويلتين وأفخاذها مكشوفة تماماً، في غاية البياض مشرّبة بحمرة، وقد وضعت ذراعها خلف رأسها وهي تنظر إلى القارىء بشبق وإغراء، بعينيها شبه المغلقتين وقد انفرج فاها نصف انفراجة، كاشفاً عن سنّين في غاية البياض. لم يكن هشام قد قرأ الرواية بعد، ولكنه قرأها

بعد ذلك عدة مرات، وخاصة تلك المقاطع التي تصف فضّ بكارة كارلا ليلة نام معها عشيق أمها، وبقيت أحداث ليلة فض البكارة عالقة في ذهنه لأيام عديدة بعد ذلك، حين كان يستعيد صور تلك الأحداث مرة بعد مرة في لحظات العزلة الخالصة في ليالّي الشتاء الدافئة، وسكون القيلولة أيام الصيف الحارة...

كان سالم وسعود يلعبان الكيرم في أحد الزوايا، فيما كان هشام وعدنان يجلسان متلاصقين في زاوية أخرى، وإبريق الشاي المزخرف يتوسط الجميع. كان الجميع مرهفين آذانهم للكلمات التي تخرج من فم عبد العزيز ويتابعون حركات عبد الكريم وهم يضحكون ويعلّقون: «لِمَ لا تذهب إلى الحمام يا عبد الكريم وتفكّ الأزمة...»، قال سعود ضاحكاً: «الآن عرفت سر الصابون الكثير في حمامكم...»، قال سالم وهو ينظر إلى عبد الكريم: «لا أدري عن عبد الكريم، ولكن عبد العزيز يستخدم وسائل أخرى... وسائل مبتكرة»، قال سعود ذلك وانطلق في ضحكة طويلة وهو يصفق بيديه ويهزّ رأسه بعنف، «يا جماعة حرام عليكم... لا تفضحوا خلق الله»، قال هشام وهو يتصنع الجد ثم انطلق ضاحكاً مع الجميع، «الله وأكبر. يعني ما يسوي ها الأمور إلا حنا... هشام يلبس نظارة، وأنت يا سعود وجهك مثل الكركم. وانت يا سالم سعابيلك تقطر دائماً. من ايش كل هذا؟...»، قال عبد الكريم وهو يصنع بيده حركة ماجنة أخذ الجميع يضحكون بعدها وهم يكرّرون: «غربلك الله يا عبد الكريم. عز الله إنك فضيحة. صحيح... يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي. أبوك مطوع وأنت داشر»، ويستمر الضحك ويعود سالم وسعود إلى الكيرم، وعبد العزيز وعبد الكريم إلى الرواية. خلال كل ذلك، كان عدنان هادئاً على عادته

لا يشارك إلا بالابتسام والضحكة المكبوتة دون تعليق. وعندما عاد الجميع كل إلى شغله الشاغل، اقترب عدنان برأسه من هشام وألصق فاه بأذنه وقال هامساً: «موافق. . .» نظر هشام إلى صاحبه وقد افترّ فاه عن بسمة سريعة ثم هزّ رأسه وعاد إلى بيالة الشاي يرتشفها بهدوء، فيما انسحب عدنان قليلاً واستند بمرفقه إلى إحدى المساند وأخذ ينظر إلى الجميع دون أن يحمل وجهه أي تعبير.

ـ ٣٣ ـ

أبلغ فهد عن موافقة عدنان، الذي أتاه في اللقاء التالي للخلية بكلمة السر التي عليه إبلاغها لعدنان، وكانت «حوران خوش مكان»، آمراً إياه في الوقت ذاته بقطع علاقته نهائياً به. كيف يقطع علاقته بعدنان؟ هذا «الفهد» لا يعرف طبيعة العلاقة التي تربطه بعدنان، فهو الصديق والزميل والتابع الأمين، ولولا هذه العلاقة لما وافق عدنان على الانضمام إطلاقاً. إنه لا يشعر بأهميته القصوى ومدى نفوذه إلا مع عدنان، فكيف يقطع علاقته به؟ إنه لم يدْعُه إلى التنظيم إلا لكونه صديقاً وليس لأي سبب آخر، فهل يضحي بعدنان من أجل التنظيم؟ مستحيل. مستحيل. وناقش فهد بالموضوع الذي أصرّ على قطع العلاقة رغم كل شيء، قائلاً إن العلاقات الرفاقية تسمو على أية علاقات أخرى، ومن أجلها تهون كل علاقة وتضحية. وعندما أصرّ على استمرار العلاقة، أجابه فهد بغضب وحزم أن قطع العلاقة أمر حزبي وعليه التنفيذ بدقّة وإلا فإنه يعرّض نفسه للعقوبات التنظيمية التي قد تكون في غاية القسوة. عقوبات!. . . أوامر!. . . نهرب من أوامر الحكومة والأم والأب، ونثور على عقوبات

الدولة والناس، لنقع في شبكة أوامر جديدة وعقوبات أخرى؟... لقد هربنا من الرمضاء إلى النار. طاعة الحكومة لا تؤدي إلى السجن على الأقل، أما طاعة هؤلاء!.. وكلها في النهاية طاعة في طاعة، ورضوخ في رضوخ. كان يحدّث نفسه بذلك وهو عائد إلى المنزل بعد نهاية الاجتماع، وعزم على الرضوخ ظاهراً وعدم الطاعة فعلاً، وليذهب الحزب والتنظيم إلى الجحيم.

وأبلغ عدنان بكلمة السر، وبيّن له أن المسائل مرتبة وما عليه إلا الانتظار. كان في قرارة نفسه يود لو أن عدنان يخبره فجأة أنه غيّر رأيه ولا يريد الانضمام إلى التنظيم، أو أن يقول له أن ينسى الموضوع فقد كان يمزح ثم يخبر فهد أن عدنان غيّر رأيه، أو أي شيء يبعده عن التنظيم، ولكن أي شيء من ذلك لم يحدث، فلا عدنان غيّر رأيه، ولا هو كانت لديه الشجاعة أن يخبره بغير ما أخبره به سابقاً.

وفي هذه الأثناء، أخذ يراقب عدنان مراقبة دقيقة في المدرسة، إنه يريد أن يعرف حلقة الوصل، هل هو وجه العنز أم غيره. لم يغب عدنان عن ناظريه لحظة واحدة، وكان عدنان واضح السرور بهذا الاهتمام الزائد الذي يلاحظه من هشام. وفي أحد الأيام، وبينما كان الأستاذ وصفي، أستاذ مادة الفيزياء، منشغلاً في شرح الدرس، لاحظ أن منصور عبد الغني يمرّر ورقة صغيرة لعدنان حيث كان يجلس على «ماصة» تقع وراء ماصة عدنان مباشرة... إذاً فوجه القرد هو حلقة الوصل. فتح عدنان الورقة وما لبث أن فغر فاه على اتّساعه ثم نظر إلى الخلف بعينين مفتوحتين على اتساعهما، وأخذ العرق ينزّ من جوانب أنفه. بقي عدنان على هذه الحال حتى جاءه صوت الأستاذ وصفي مؤنباً. أثناء ذلك، كان هشام في غاية الغليان يعدّ الثواني حتى تنتهي الحصة وتبدأ الفسحة.

وضع عدنان الورقة داخل كتاب الفيزياء وأخذ ينظر إلى السبورة وهو يمسح جانبي أنفه بين الحين والآخر.

وأخيراً قرع الجرس، ونهض منصور بسرعة وهمس في أذن عدنان ثم خرج الاثنان معاً، فيما بقي هشام جالساً حتى غادر آخر طالب الفصل، ثم انطلق إلى ماصة عدنان وأخرج كتاب الفيزياء وفتحه ووجد الورقة هناك، «حوران خوش مكان»، هذا ما توقعه. وانطلق إلى الخارج بسرعة، بعد أن أعاد الورقة والكتاب إلى مكانيهما، ولمح عدنان ومنصور يتهامسان في نهاية الممر المؤدي إلى إدارة المدرسة. شعر بشيء كالنار يسري في داخله وودّ لو باستطاعته خنق وجه القرد، ولكن كبت مشاعره وتصنّع عدم الاهتمام وأخذ ينظر إلى الطلاب في الساحة وهو لا يرى شيئاً. وبعد أقلّ من دقيقة، كان منصور قد أنهى حديثه مع عدنان واتجه إلى الدرج المؤدي إلى الساحة، مارّاً في طريقه بهشام حيث التقت النظرات للحظات خاطفة، ثم حوّل هشام نظره إلى عدنان الذي كان قد وصل إلى حيث كان. لم يقل عدنان أي شيء، بل بقي واقفاً ويداه ترتعشان بشكل واضح فيما كانت حبات العرق لا تزال تغطّي جانبي أنفه. بقي الاثنان لفترة صامتين وهما ينظران ولا ينظران إلى جموع الطلبة في الساحة، ومن بعيد كان يلوح منصور، الذي وصل الساحة، وهو ينضم إلى فريق من الطلبة كان يجلس في أحد الأركان القريب من باب الخروج الخلفي للمدرسة.

ـ ها؟... خير إن شاء الله؟ ماذا كان يريد الأخ؟

قال هشام وهو يومىء بقرف واضح برأسه نحو الساحة، ولكن عدنان بقي صامتاً ومسح جانب أنفه بأحد كفيه.

ـ هل اتفقتما على مكان اللقاء؟

قال هشام وهو يحاول دفع عدنان للحديث، موحياً له أنه يعرف كل شيء. التفت عدنان بعنف وسرعة نحو هشام وقد فغر فاه واتّسعت عيناه وقال باندهاش شديد:

ـ وما أدراك أنه هو؟ لقد أخبرني أنك لا تعرف شيئاً ويجب عدم إخبارك بأي شيء.

وافترّ ثغر هشام عن بسمة حملت كل معاني الزهو، ورفع رأسه قليلاً وقال وهو ينظر مباشرة في عيني صاحبه:

ـ يا سلام!... وهل نسيت أني أنا من دعاك إلى المشروع! أنا أعلم أشياء كثيرة لا تعلمها.

قال هشام جملته الأخيرة وقد زوى زاوية فمه اليمنى في شبه ابتسامة، وكأنه يريد أن يقول «لم يتغير شيء... ما زلت أنا صاحبك القديم الذي تعوّدت وتعرف». ونكس عدنان رأسه واتكأ على جدار الشرفة وهو يقول بصوت خفيض لا يكاد يسمع:

ـ سوف نلتقي اليوم بعد العصر أمام حديقة البلدية.

ـ ثم؟...

ـ لا أدري... منصور مرتب كل شيء.

وفي هذه اللحظة كان منصور قد أقبل من بعيد في طريقه إلى الفصل، فسكت هشام، حتى إذا وصل إلى حيث كانا، نظر إلى هشام وابتسم سريعاً ثم دلف الفصل، أما هشام فقد نظر إليه والكره يغلي في أعماقه، ثم اتجه هو وعدنان بدورهما إلى الفصل. لكم يكره وجه القرد

هذا وغروره. . . لقد عاد كل الكره القديم دفعة واحدة وأكثر. ودقّ جرس الانصراف، وخرج هشام وعدنان معاً كعادتهما دائماً، وسارا دون كلام حتى وصلا منزل هشام الذي ودع صاحبه بإشارة من يده قائلاً: «أراك غداً. . . مع السلامة»، إنه يعلم أنه لن يرى عدنان اليوم عند الشلة.

دخل المنزل وكانت رائحة السمك المقلي تملأ المكان، إنه يوم الخميس وقد اعتادت أمه أن يكون غداء ذلك اليوم أرز أبيض وسلطة خضراء وسمك مقلي، أما بقية الأيام فكبسة اللحم أو الدجاج هي سيدة المائدة، ما لم يعن لأمه أن تعد «خرابيط الشوام» من المقالي والمهروسات والمكبوسات، كما يسمي والده غير الكبسة أو الجريش والمرقوق والمطازيز والقرصان، التي تعدّها والدته عادة في ليالي الشتاء. دخل المطبخ وحيا أمه المشغولة بالقلي ولم يكن أبوه قد عاد بعد، ثم اتجه إلى غرفته حيث خلع ملابسه وأخذ حمامه اليومي السريع في الحمام الخارجي، ثم عاد واستلقى على السرير بانتظار الغداء وهو يتصفح العدد الأخير من سوبرمان، ثم أغفى قليلاً دون أن يشعر. لا يدري كم طالت إغفاءته حين أيقظه صوت أمه القادم كالحلم من بعيد داعياً إياه إلى طعام الغداء. كانت المائدة قد أعدّت في غرفة المكيف، وكان والده جالساً وهو يجبل لقمة أرز في يده، فيما كانت الوالدة ما زالت مشغولة في المطبخ. جلس في مكانه المعتاد بعد أن حيّا والده الذي مازحه قائلاً بفم مملوء بالأرز: «وينك؟. . . جوعتنا»، وأشفع جملته ببسمة حبّ صافية ردها هشام بأحسن منها. كان الوالدان يأكلان ويتحدثان أحاديث مألوفة لا يدري ما هي، إذ كان يأكل بطريقة آلية فقد كان ذهنه مشغولاً بشيء غير الطعام. ثم سمع صوت المؤذن يأتي من المسجد القريب، فنهض

بسرعة وكأن عقرباً لدغته، والأرز يتناثر من يده اليمنى وسط نظرات الاستغراب من أمه وأبيه الذي تابعه بنظرات غاضبة فيما كانت أمه تقول: «خير إن شاء الله!... عسى ما شر؟ ما هذه العجلة، إنك لم تكمل طعامك!»، فعاد هشام أدراجه وهو يعتذر قائلاً: «المعذرة يا أبي. المعذرة يا أمي. لقد تذكرت أن لديّ بعض الكتب التي استعرتها من المكتبة العامة، ويجب إعادتها بعد العصر مباشرة وإلا ألغوا اشتراكي. عن إذنكما...»، ثم انطلق إلى الحمام وسط نظرات والده الفخورة وهو يقول وهو يدفع بقطعة من «الشعور» المقلي إلى فيه: «هشام ليس له مثيل... ليس له مثيل...»، فيما كانت أمه تردد: «الله واحد وهو واحد... لقد عوضنا الله خيراً»، ثم مستدركة: «استغفر الله العظيم. استغفر الله العظيم».

غسل يديه على عجل وهو يفكر... لقد أصبح الكذب سهلاً عليه منذ أن انضمّ إلى الحزب، وما عاد ضميره يؤنّبه كالسابق، بل أصبح في مقدوره اختلاق الأعذار والمبرّرات بشكل سريع وثبات أعصاب يحسد عليه، وإن بقي شيء من وخز الضمير بين حين وآخر فهو لا يلبث أن يتلاشى بسرعة ودون بقايا. عاد إلى الغرفة حيث ارتدى ثوبه على عجل ووضع الطاقية والغترة بسرعة ثم انطلق إلى الخارج. إنه يكره الثوب والغترة والطاقية ويفضل القميص والبنطلون، ولكن والده كان يؤنبه على ارتداءالقميص والبنطلون إلى المدرسة بعض الأحيان، أو حين زيارة بعض المعارف ويجبره على ارتداء الثوب والغترة والطاقية. كان الثوب محتملاً، أما الغترة والطاقية فلم يستطع تحملهما، وبعد شدّ وجذب مع أبيه، أصبح يرتدي الثوب فقط إلى المدرسة وتبقى الغترة والطاقية للمناسبات والزيارات، وفي غير هذه الأوقات كان يمارس راحته في

ارتداء القميص والبنطلون كلما عنّ له ذلك. ومن الغريب أنه أصبح بعد ذلك يفضل الثوب ويلبسه أكثر الأحيان.

عندما وصل إلى حديقة البلدية، كانت الشوارع المحيطة خالية تقريباً، إلا من بعض عمّال عمانيين ويمنيين يضطجعون باسترخاء حول سور الحديقة، فهو وقت قيلولة عند البعض، ووقت صلاة العصر عند البعض الآخر. واختفى في أحد الأزقة حول الحديقة الصغيرة وأخذ يراقب من بعيد باب الحديقة حيث كان منصور يقف وهو يحمل حقيبة كتبه، في حركة لا تهدأ ذهاباً وإياباً ثم يقف بعض الأحيان وهو يفرقع أصابعه بعصبية، ثم لا يلبث أن يعود إلى الحركة. غريب منصور هذا... أخذ يحدّث نفسه... لقد خرجا من المدرسة باكراً هذا اليوم، فأين قضى الساعات الماضية وهو لا يعيش في الدمام؟. أكيد عند بعض الرفاق، فهو لا يستطيع تناول الطعام في مطعم ولا أهل له هنا... وقطع حبل أفكاره ظهور عدنان من بعيد بجسمه الضئيل ووجهه الشاحب، مرتدياً ثوباً رمادياً وشماغاً أحمر، رغم أن الجو في غاية الحرارة والرطوبة، قادماً من اتجاه سوق الخضرة والسمك... تلثم بغترته وعدل وضع نظارته وأخذ يراقب بتمعن شديد. اتّجه منصور إلى عدنان قبل أن يصل إليه وصافحه بسرعة واتجه الاثنان إلى وسط البلد، وهشام يتبعهما من بعيد دون أن يلحظا وجوده، رغم تلفت منصور المستمر. وصل الاثنان إلى موقف السيارات وركبا حافلة صغيرة لم تلبث أن تحركت واتجهت غرباً في شارع البلدية. وعاد هشام أدراجه إلى المنزل وهو يفكر في أين يمكن أن يكونا قد ذهبا، كان عازماً على الذهاب إلى الشلة، ولكنه وجد رغبة في الانفراد بنفسه وعدم الحديث لأي أحد.

ـ ٣٤ ـ

خلال الأسبوعين اللذين سبقا بدء الدراسة، أراه عبد الرحمٰن رياضاً غير الرياض. رياض لا تمنح أسرارها إلا لمن يبحث عن هذه الأسرار وتضنّ بها على العابرين حتى لو عاشوا فيها عمراً بأكمله، فقد يعيش الإنسان في بلد منذ الخروج من الرحم وحتى الولوج في اللحد، ولكنه يبقى عابراً في زمان عابر. هذا الفتى الصغير يعرف أموراً وأسراراً عن الرياض وفي الرياض لا يعرفها أفراد خلقوا من طينة الرياض وعادوا إليها.

في الرياض سقطت باقي المثل التي زرعتها أمه في ذاته مع لبنها، واكتسب مفاهيم وسلوكيات جديدة لا علاقة لها بفضيلة أمه القاسية ولا بأوامر التنظيم الصارمة. في الحزب عرف كيف يكذب بسهولة ويسر وسلاسة دون إحساس بتأنيب الضمير ووخزه المؤلم، محطماً بذلك أول أسس الفضيلة كما علمتها إياها أمه. قد يكون ذلك النوع من الكذب مبرراً وضرورياً، بل قد لا يكون كذباً على الإطلاق إذا نظر إليه من زاوية معينة، فهو ممارسة نضالية ضرورية يتطلبها العمل السري، كما شرح له ذلك فهد ذات يوم، إلا أنه يبقى كذباً مهما كانت المبرّرات وفق مقاييس أمه الصارمة. الدنيا كانت بالنسبة لأمه إما أبيض أو أسود، جنّة أو نار، وليس هناك منطقة رمادية أو برزخية. أن لا تقول الحقيقة، أو تدلسها هو الكذب بعينه. ولكن الحياة قد لا تخضع لمقاييس أمه أو مقاييس الأخلاق المثالية، لأن الحياة لست تجريداً والممارسة ليست فضيلة بحتة. الدول تكذب على بعضها بعضاً وعلى أفرادها وتسمي ذلك سياسة. وما الدعاية إلا نوع من الكذب، وما الدبلوماسية إلا كذب

منمّق، ولكنه كذب مبرر ومقبول، وذاك ما كان يفعله الحزب أيضاً. الدولة ذاتها عبارة عن تنظيم، فهل الكذب جزء حيوي من أي تنظيم؟ أم أن المسألة نسبية وليس هناك مطلق في هذه الحياة، فما ينطبق على حالة لا ينطبق على أخرى، وما هو حق عند هذا قد يكون باطلاً عند ذاك؟... أصبح لا يملك الجواب الشافي أكثر الأحيان، وضاع ذاك اليقين الذي اعتقد أنه ملكه ذات يوم.

في الرياض دخن أول سيجارة وشرب أول قطرة خمر في حياته. وفي الرياض عرف طعم المرأة بعيداً عن تلك الرومانسيات التي كانت تؤطر علاقته بنورة. وفي الرياض تعلّم كيف يغازل النساء في سوق سويقة وشارع الثميري وشارع الوزير. تعلم كيف يبحث عن بائعات اللذة المحرمة الرخيصات في أزقة الشميسي وحواري الديرة، وتعلم الأوقات المناسبة لعمل ذلك. وكان أستاذه في كل ذلك عبد الرحمٰن الذي أراه كل شبر في هذا العالم الجديد والمثير. وكان هو بدوره مقبلاً على هذا العالم المثير بشبق لم يعرف له مثيلاً من قبل. وهو لا يدري سبباً واضحاً لهذا الشبق الذي أتاه دفعة واحدة. أهو حرمان كان يكبته طوال السنوات الماضية ولم يلبث أن انفجر عندما أتيحت له أول فرصة، أم هو الإحساس بالخروج من القمقم الذي وضعته فيه أمه، أم هو الإحساس أنه أصبح حر نفسه له أن يفعل ما يشاء، أم هو خوف دفين يحاول الهروب منه بأي طريقة بعد أن انكشف التنظيم وغيره من تنظيمات، وعمّت الاعتقالات. إنه لا يدري ولا يريد أن يدري، كل ما يدريه هو هذا العالم الجديد من اللذة والإثارة بعيداً عن صرامة أمه وقسوة الحزب. لقد كانت حياة الحزب مثيرة، ولكنها كانت إثارة مخيفة ومرعبة، أمّا هذه الإثارة فهي اللذة كل اللذة.

في الرياض كل شيء ممنوع، وكل شيء مباح. لا وجود لدور السينما، ولكنه شاهد أحدث الأفلام في الرياض، أفلاماً لا وجود لها حتى في بيروت أو القاهرة. تذهب إلى أي ناد رياضي، أو تقوم بجولة على حوانيت تأجير الأفلام السينمائية في «المربع» و «الناصرية» فتشاهد أو تستأجر أي فيلم تشاء مع آلة العرض السينمائية. في الرياض، وليس في غيرها، شاهد «أبي فوق الشجرة» بقبلاته المحمومة وجسد نادية لطفي الذي يضج باللذة والرغبة، وشاهد «البعض يفضلونها شقراء» لمارلين مونرو التي يراها لأول مرة في صورة متحركة، وكان حكمه عليها أنها ليست جميلة ولا مليحة، ولكنها جسد متفجر بالجنس واللذة الجسدية الصافية. ومن مشاهدته لهذه الأفلام خرج بفلسفة جديدة حول المرأة التي لم يرها بهذه الإثارة، إلا في تلك الأحلام التي كانت تزوره منذ أن بلغ سن الحلم. فالنساء ثلاثة أنواع، هناك الجميلة وهناك المليحة وهناك المثيرة. قد تكون المرأة في غاية الجمال ولكنها تفتقد الملاحة أو الإثارة أو هما معاً. وقد تكون المرأة مليحة الأثر في العين والنفس رغم أنها تفتقد كل أثر للجمال، وقد تكون مثيرة أو لا تكون. وقد تكون المرأة غير جميلة ولا مليحة، ولكنها مشتهاة تبعث أحاسيس الرغبة واللذة إلى كل ذرة من الجسد. القمة عندما تكون المرأة جميلة ومليحة ومثيرة في الوقت ذاته ولكن أين تكون مثل هذه المرأة. وحتى لو كانت موجودة في مكان ما، فقد تكون ذات عقل صغير، وهنا تفقد جمالها وملاحتها وإثارتها بعد أوّل لقاء وبعد أول اتّصال.

وفي الرياض شاهد أفلاماً جنسية مباشرة، ولكنها أصابته بالتقزّز الشديد بعد انتهاء المشاهد الأولى. غريب أمر هذا الجنس، الكل يفكر فيه ويسعى إليه، ولكن مرأى العملية الجنسية مباشرة يصيبك بالتقزّز

لمرأى تلك الأماكن المحرمة التي لا تتمتع بأي جمال أو إثارة. وهنا أدرك الحكمة من وراء ستر هذه الأماكن حتى ولو بورقة توت، فهي أماكن قبيحة رغم أن كل شيء يدور حولها وينتهي إليها ويخرج منها، أليست الحياة ذاتها تخرج من هناك؟ الجمال والإثارة ليس في تلك الثقوب التي تنتشر على أجسادنا، ولكنها في ستر تلك الثقوب رغم أن الهدف في النهاية هو تلك الثقوب ذاتها.

جاءه عبد الرحمٰن ذات صباح في غرفته بالطابق العلوي، بعد أن ذهب الجميع إلى أعمالهم، وكان يتصفح بعض المجلات طرداً للسأم، وهو يقول له بعجلة: «هيا. . . ارتد ملابسك بسرعة. . . هناك مشوار عاجل يجب أن نقوم به. . .». نهض بسرعة وارتدى ملابسه دون أن يتفوّه بأي كلمة، وانطلق وراء عبد الرحمٰن إلى الخارج. وعند الباب الخارجي كانت سيارته المرسيدس البيضاء القديمة تقف ومحركها لا يزال دائراً. انسلّ عبد الرحمٰن وراء المقود وجلس هشام بجانبه وانطلقت السيارة في طريقها. وفي الطريق الترابي الفاصل بين الشميسي القديم والجديد، قال له عبد الرحمٰن بحماس:

ـ أتذكر الفتاة التي حدثتك عنها في حارتنا؟. . . لقد واعدتها عند دوار أم سليم.

ثم وهو ينظر إلى هشام ويبتسم وقد رفع حاجبيه:

ـ آن لك أن تذوق طعم اللحم.

ثم أطلق ضحكة خافتة وواصل القيادة دون أن ينبس هشام بأي حرف. كان قلبه يدقّ بعنف، فهذه أول مرة سوف يرى فيها جسد امرأة عارياً وعلى الحقيقة. وأحسّ بحرارة تسري في أرجاء جسده ثم تتركز في

تلك المنطقة حيث تلتقي كل الطرق، وكل ذلك ممزوج بشيء من الخوف والتوجّس. لطالما حذّرته أمه من النساء منذ ذلك اليوم الذي أخبرها فيه بخوف عن السائل الأبيض الذي تدفق من داخله عندما كان يستحم، وعاد إليه إحساسه القديم بالذنب ووخز الضمير، ولكنه أزاح هذا الإحساس بسرعة وتذكر أنه حطّم تمثال أمه منذ أن انضمّ إلى الحزب، ليتحطم ما بقي منه وليكن ما يكون. . .

وعند دوار أم سليم، انحرف عبد الرحمٰن بالسيارة ودخل شارعاً ترابياً ضيّقاً وسار مسافة لا تتجاوز الخمسين متراً عندما لاحت فتاة تسير الهوينى، وقد اتشحت بالسواد الكامل حتى لا يرى منها إلا أطراف أصابعها. مرّ عبد الرحمٰن من جانبها وأطلق بوق السيارة ثم تجاوزها وأوقف السيارة غير بعيد، ثم فتح باب السيارة الخلفي من الجهة المقابلة لجهة السائق. وبكل خفة وثبات، انسلّت الفتاة إلى المقعد الخلفي مغلقة الباب وراءها، وانطلقت السيارة مثيرة الكثير من الغبار وراءها. قاد عبد الرحمٰن السيارة لبعض الوقت دون هدى في الأزقة والحارات قبل أن يعود إلى شارع الشميسي الجديد، ثم التفت لهشام قائلاً، وقد بانت الحيرة على وجهه: «ما عسانا أن نفعل؟. . . أين نذهب؟»، فنظر إليه هشام بسذاجة قائلاً: «وما أدراني!. . . أنت من يعرف الرياض. . .». وهنا صرخ عبد الرحمٰن قائلاً: «وجدتها. . . وجدتها. . . ما رأيك في الذهاب إلى غرفتك؟ إنها منعزلة ولا أحد في المنزل الآن»، ولكن هشام نظر إليه وقد جحظت عيناه وهو يقول: «هل جننت؟. . . إن موضي وسعيد هناك. كما أن ذلك لا يجوز»، ووافقه عبد الرحمٰن قائلاً باستسلام: «معك حق. . . ولكنها كانت فكرة على أية حال. ولكن أين نذهب؟. . .». وساد الصمت لبرهة ثم صرخ عبد الرحمٰن مرة أخرى:

«وجدتها... وجدتها... ليس للمساكين أمثالنا إلا طريق خريص»، ودون أن ينتظر إجابة، انحرف بالسيارة شرقاً مخترقاً «البطحا» ثم شارع الجامعة فشارع الإحساء، وعند الكلية الجوية حيث ينتهي العمران، اتجه شرقاً على طريق خريص حيث البرية على الجانبين. وقبل أن يصل إلى «خشم العان» بمسافة بسيطة، انحرف بالسيارة إلى اليسار داخلاً الرمال الحمراء. سار عبد الرحمٰن ما يقارب الكيلومتر داخل الصحراء حتى وصل إلى بقع منخفضة وقف عندها وهو يقول مبتسماً: «هذا أفضل مكان...»، ثم فتح «شنطة» السيارة وأخرج بساطاً صغيراً أزرق اللون لا يخرج من السيارة أبداً، وبسطه على الرمال الناعمة ثم فتح الباب الخلفي للسيارة وطلب من الفتاة النزول. طوال تلك الفترة كانت الفتاة في حالة صمت مطبق وكأنها لم تكن موجودة، بل إن هشام كان قد نسيها تماماً ولم يتذكرها إلا حين وقفت السيارة. كان في حالة شديدة من القلق ينظر يميناً ويساراً متسائلاً: «أخشى أن يرانا أحد... إنها فضيحة لو حصل ذلك»، ويردّ عليه عبد الرحمٰن وهو يضحك بثقة: «لا عليك... الجن نفسه لا وجود له هنا. وطعم اللحم سوف ينسيك أمك وأباك»، ثم يواصل الضحك ويتجه إلى حيث كانت الفتاة قد جلست على البساط، ولكن القلق ما زال مسيطراً عليه.

عندما نزلت الفتاة من السيارة، قامت بنزع خمارها وعباءتها وألقتهما في السيارة، كاشفة عن جسم ممتلىء معتدل الطول، يضمه فستان مشجر طويل ينشق بفتحة كبيرة عند الصدر، كاشفاً عن نصف ثدييها الضخمين، وبشرة بلون القهوة المحموسة على نار هادئة، كان من الواضح أنها ملساء جداً من خلال ذراعيها العاريتين حتى منتصف الكتف، وردفين ضخمين دون ترهل، فعندما سارت إلى حيث البساط، كان يرتجان

بإيقاع منتظم متوازن. لم تكن بملاحة نورة أو موضي، ولا بجمال ابتهال أخت عدنان، ولكنها كانت مثيرة وشهية بكل ما في الكلمة من معنى وخاصة شفتيها المكتنزتين المنفرجتين وكأنهما دعوة لجحيم من القبل، على رأي مطربه المفضل محمد عبد الوهاب. ورغم أن شعرها كان قصيراً جداً وأجعد، إلا أنه كان في غاية الإثارة تلك اللحظة. كان كل ما فيها ضخماً، ولكن بتوازن عجيب وإثارة تستدعي كل شهوات الداخل.

جلس الثلاثة على البساط جاعلين السيارة بينهم وبين الطريق العام، وتحدثت الفتاة لأول مرة، بلهجة «رياضية» بدت في غاية الإثارة في تلك اللحظة، قائلة بغنج:

ـ غربلك الله يا عبد الرحمٰن... ما لقيت تجيبنا إلا في ذا؟

وضحكت ضحكة مكتومة كاشفة عن أسنان في غاية البياض والجمال، ثم غطت فمها بكفها وهي تنظر بعينيها الصغيرتين إلى عبد الرحمٰن. كان صوتها دقيقاً جداً والشهوة تفوح منه وتلسع أذن من يسمعه. فردّ عبد الرحمٰن قائلاً وهو يضحك بدوره:

ـ الشكوى لله... لا مكان آخر.

لم تكن الفتاة قلقة أو خائفة ولا يبدو عليها أي إمارات للاضطراب، بل كانت ثابتة وهادئة وكأنها اعتادت مثل هذه المغامرات، أما هشام فقد زال خوفه قليلاً وبدأ يعتاد على الجو المحيط، وعادت الحرارة تغزو من جديد وتتركز هناك... في روما... حيث تلتقي الطرق.

ذهب عبد الرحمٰن إلى السيارة وأحضر «زمزمية» مليئة بالشاي وثلاث بيالات وضعها على البساط. هذا الفتى شيطان، متى حضر الشاي ومتى أتى به، إنه لم يره يفعل ذلك. صبّ الشاي في البيالات

وأخذت الفتاة في احتسائه وهي تقول:

ـ ما لقيت غير الشاي تجيبه؟... لِمَ لم تأت بشيء من العرق؟

ضحك عبد الرحمٰن ضحكته المعتادة، وقال وهو يلقي بالشاي دفعة واحدة في جوفه:

ـ الشاي هو حدي... أما العرق فتجدينه عند أخي حمد...

ـ لا بد أن أتعرّف عليه إذاً...

قامت الفتاة وهي تغمز عبد الرحمٰن بعينها وقد وضعت طرف البيالة على فمها. ثم أخرج عبد الرحمٰن علبة سجائر مارلبورو حمراء، تناول منها سيجارة وناول الفتاة واحدة أخرى. أشعل سيجارتها بعود كبريت ثم أشعل سيجارته بالعود نفسه، وأخذا يمتصان السيجارتين بلذة بالغة. هذا الفتى مليء بالمفاجآت:

ـ ظننتك لا تدخن!

قال هشام موجهاً حديثه لعبد الرحمٰن الذي واصل التدخين بنهم دون أن يلتفت إليه وهو يقول:

ـ أحياناً، وفي المناسبات السعيدة.

ونظر إلى الفتاة مبتسماً، التي علقت دون أن تغيّر من جلستها التي تكشف عن ساقين يلمعان:

ـ أخيراً تكلم صاحبك! أخيراً عرفنا أنه غير أخرس.

وضحك الاثنان بحبور فيما تحوّل وجه هشام إلى شبه حبة طماطم معصورة، وابتسم بخفر وهو ينظر إلى الأرض ويلعب بالرمل بأصابعه، ثم قال عبد الرحمٰن:

ـ هذا ابن عمتي هشام. . . لا عليك من صمته فهو خجول، كما أنه «توه عليمي».

ثم موجهاً الحديث إلى هشام وهو يشير إلى الفتاة:

ـ وهذه رقية. . . أجمل فتيات حارتنا.

ـ يا منافق. . . ولكن نفاقك يعجبني.

قالت الفتاة، ثم مستدركة:

ـ وأنت يعني. . . كمان عليمي. . . أتذكر ذلك اليوم؟

وتوتر عبد الرحمٰن قليلاً وهو يقول:

ـ ومن قال لك ذلك؟ كنت متوتراً ذلك اليوم فحسب. لقد كان كل أهلك في المنزل، وكانت الغرفة مظلمة. هذا كل ما في الأمر. . .

وضحكت الفتاة بغنج وهي تقول:

ـ زعلت حبيبي؟. . . أنا آسفة.

ثم اضطجعت على جانبها الأيمن، تاركة الحرية للساق اليسرى وجزءاً كبيراً من الفخذ أن يظهر، فيما كان الفستان عاصراً بقية الجسد بحيث برز الردف الأيسر بكل وضوح وتفصيل. . . لقد كان منظراً قاتلاً جعل حرارة روما عند هشام تصل إلى درجة الغليان. وهنا نهض عبد الرحمٰن داعياً هشام إلى الطرف الآخر من السيارة، حيث قال له:

ـ ها؟. . . أنت الأول أم أنا؟

ثم دون انتظار جواب قال:

ـ تدري. . . أنت الأول. أنت ضيف وإكرام الضيف واجب.

وأخذ يضحك ثم قال:

ـ سوف أذهب وأتمشى قليلاً. هيا... بيّض وجوهنا.

واتجه عبد الرحمٰن إلى البرية المحيطة وهو يضحك بعد أن أشعل سيجارة وأخذ ينفث دخانها في الهواء.

كان هشام في حالة اضطراب كبيرة، فهو لا يدري كيف يبدأ وأين يبدأ، وأخذ يسبّ ابن خاله في سرّه الذي وضعه في هذا الموقف المحرج. لو كانت هذه الفتاة هي نورة لعرف ماذا يفعل، قبلة وعناق وأحاديث. أما هذه الفتاة... المسألة أبعد عمقاً من ذلك. بقي على حاله تلك مدة لا يدريها وهو لا يعلم ماذا يفعل غير قادر على الحراك، والعرق يتصبّب منه بغزارة وقد أحسّ أن الشمس أكثر حرارة مما هي عليه، وكان قلبه يخفق بشدّة حتى أنه يحس به في رأسه من الداخل...

ـ عسى مارحتو وخليتوني؟... وينك يا عبد الرحمٰن؟

جاء صوت الفتاة وكأنه قادم من بعيد وقد سئمت الانتظار، ويبدو أن عبد الرحمٰن سمعها إذ نظر إلى هشام من مكانه البعيد وهو يشير له بالتقدم. وجرّ قدميه بتثاقل وهو يشعر أن الدم سوف يخرج من مسام جسده، وأن قلبه قد أصبح لا ينتمي إليه. وجدها قد اضطجعت على ظهرها متوسدة ذراعيها وقد انزاح الفستان عن كامل الفخذين اللذين كانا يلمعان تحت أشعة شمس حارقة، وكأنهما قد طليا بزيت زيتون نابلسي. وكان وسطها يرتفع عن الأرض قليلاً، صانعاً فرجة صغيرة بين حدود العجيزة العليا، وحدود الظهر السفلى، وكانت تلبس سروالاً داخلياً قصيراً بلون الدم يُظهر بوضوح التفاصيل الدقيقة لملتقى الطرق عندها الذي كان بارزاً مثل ربوة صغيرة في واد محصور بجبال شامخة قد تشربت لتوها بماء شتاء قريب، وبرزت أعشابها المتمردة من خلال نسيج

السروال. وما أن رأته الفتاة حتى صاحت:

ـ وينكم؟... هل تنوون قضاء النهار هنا؟ لقد أحرقتني الشمس.

واقترب منها هشام وجلس قبالتها، وهو يستنشق تلك الرائحة المميزة من اختلاط العرق بعطر الورد والليمون الذي أغرقت به الفتاة نفسها، مما زاد في توتر كل الزوائد اللحمية لديه. ومدّ يده المرتجفة وأخذ يمرّ بها على الفخذ المكشوف أمامه والمنطرح بإغراء أمام ناظريه. أحس بنعومة وطراوة لم يحسها في السابق، وحتى تلك المناطق الخشنة التي كانت يده تقع عليها، كانت تبعث فيه لذة غريبة. وأخذت الحرارة تغزو جسده بسرعة ونسي كل المخاوف ولم يبقَ في ذهنه إلا هذه اللذة المنطرحة أمامه. وعدلت الفتاة من ضجعتها، فانقلبت على جانبها الأيمن واضعة الفخذ الأيسر على الأيمن بعد أن لوت الساق وجعلت الركبة في اتجاه هشام. واضطجع هشام قبالتها واستمرّ في تحسّس ذلك اللحم القاسي، ثم مدّ يده من تحت السروال وأخذ يتحسّس ردفاً ناعماً قاسياً شديد التكوّر، وكانت يده تسقط كثيراً في ذلك الفج بين الردفين فيبقيها لوهلة ثم يبدأ الرحلة من جديد، والفتاة أثناء ذلك مغمضة العينين نصف إغماضة وتطلق تأوهات ضعيفة وكأنها في حالة احتضار. ووصلت حرارة هشام إلى درجة الغليان حتى أحسّ أن ملتقى الطرق لديه يكاد أن ينفجر. ثم نهضت الفتاة فجأة ونزعت فستانها كاشفة عن ثديين مكورين قاسيين ناهضين دون حمالات ترفعهما، فما كانا بحاجة إلى الرفع، وحلمتين داكنتين نافرتين مثل بسرتين في أوائل حزيران. أمسك هشام بهما وأخذ يعصرهما حتى أحس أن الحلمتين قد توترتا وأصبحتا مثل حبتي عنب طائفي لم ينضج بعد. واقترب منها وألصق شفتيه بشفتيها فما أحس إلا وهي تمتص شفتيه بعنف مؤلم، وتدسّ لسانها الخشن في فمه. شعر

بشيء من القرف عندما أحسّ بلعابها يرطب كل فمه، ولكنه سرعان ما نسي ذلك مع تلك اللذة التي طغت على الألم والقرف معاً. ثم خلعت الفتاة سروالها وألقته جانباً، ونزعت ثوبه من عليه، ووضع كفيه على ملتقى الطرق لديه دون شعور، فضحكت الفتاة بغنج وهي تقول: «يا زين العليمية. . .»، وأحس هشام بخجل شديد، ثم أخذ يطيعها بكل استسلام في كل ما تفعل، ثم اضطجعت على ظهرها وفرجت ما بين ساقيها المنتصبتين وجذبته من يده إلى صدرها وأخذت تمتص شفتيه بنهم من جديد. كانت يده تمر على كل جزء في جسدها، حتى إذا وصلت إلى ملتقى طرقها أحس برعشة عندما مست يده ذلك الشعر الخشن الذي بدأ يمتزج بشيء أشبه بلعاب لزج وحار، وكان يحسّ بالحرارة تنبعث من ذلك الفج في الوسط. كانت تأوهات الفتاة قد بدأت في الارتفاع عندما نهض هشام وأخذ يلبس ثوبه على عجل وسط تساؤلات الفتاة نصف الغائبة عن الوعي: «إلى أين؟. . . ماذا حدث؟»، إلا أن هشام انطلق غير ملتفت وراءه. لقد أحس بالتقزّز فجأة عندما رأى مثلثها الشديد السواد ذا الفم الأحمر الداكن القبيح، وسيطر عليه فجأة إحساس باحتقار ذات مؤلم، ولسبب لا يدريه، برزت صورة أمه قوية في ذهنه فأحسّ أن البرودة قد اجتاحته وهبطت درجة حرارة روما إلى الصفر، وتراخى كل شيء. اتجه إلى حيث عبد الرحمٰن الذي سأله بفضول شديد:

ـ ها؟. بشر؟. خلصت؟

ـ لم أستطع. كنت. . . كنت. . .

وضحك عبد الرحمٰن وهو يقول:

ـ لا عليك. . . المرة الأولى دائماً تكون صعبة. خيرها بغيرها.

ثم اتجه إلى السيارة، وقبل أن يصل هناك ناداه هشام وطلب منه سيجارة. أعطاه عبد الرحمٰن السيجارة دون تعليق ثم ذهب إلى حيث الفتاة، فيما جلس هو على الأرض وأشعل السيجارة وأخذ منها نفساً بحذر. وما أن استقر الدخان في رئتيه حتى أخذ يسعل بشدة. ثم أخذ نفساً ثانياً بعد أن هدأت نوبة السعال وسعل مرة ثانية بشكل أخف، ومع النفس الثالث هدأ السعال نهائياً. عندما انتصفت السيجارة، أحس بدوار لذيذ وباللعاب المتحلب يملأ فمه، والشهوة تغزوه من جديد وروما تستعيد نشاطها مرة أخرى، وتعود إليها الحياة، فيما كانت تصل إليه تأوهات الفتاة المحترقة من بعيد. وانتهت السيجارة، فنهض وهو يتمايل قليلاً ثم ألقى السيجارة وسحقها بقدمه في الوقت الذي كان فيه عبد الرحمٰن يطل من وراء السيارة. عاد إلى السيارة وكان عبد الرحمٰن يلتقط أنفاسه وهو يربط أزارير ثوبه ويحاول أن يرتب شعره المنكوش بعنف، وعلى الطرف الآخر، كانت الفتاة تحاول حشر ردفيها في ذلك السروال الضيق، وثدياها يرتجان مع كل حركة تقوم بها، وقد استطالت الحلمتان مثل طرثوثين يبزغان لتوهما.

كانوا في الطريق ثانية إلى الرياض، والشمس تتوسط القبة الزرقاء المعكرة بالغبار، والصمت مطبق على الجميع، فيما كان صوت طلال مداح ينبعث من الراديو: «كم تذكرت سويعات الأصيل. . .».

ـ ٣٥ ـ

أنزل عبد الرحمٰن الفتاة في المكان الذي أخذها منه، بعد أن أعطاها عشرة ريالات كاملة دسّتها في صدرها دون تعليق. عادا إلى المنزل

وصعدا إلى غرفة هشام حيث استلقى هشام على الفراش، فيما جلس عبد الرحمٰن غير بعيد عنه مسنداً ظهره إلى الجدار. كان لا يزال يشعر ببعض الغثيان من أثر السيجارة، بعد إنتهاء الإحساس باللّذة والرغبة، وأخذت عيناه في الإغفاء تدريجياً. ومن بعيد جاءه صوت عبد الرحمٰن مغادراً وهو يقول: «أرى أنك نمت... أراك على الغداء»، وأخذت الصور تتزاحم في ذهنه...

- ٣٦ -

ذهب إلى المدرسة وحيداً في اليوم التالي للقاء منصور وعدنان، فعدنان لم يمر به في الصباح للذهاب سوياً إلى المدرسة كالعادة. كما لاحظ أن عدنان يتجنّبه في المدرسة. فهو لم يحيّه تحية الصباح بعد انتهاء الطابور والدخول إلى الفصل، ولم يهرع لمحادثته بعد انتهاء الحصة، بل إنه اعتذر عن مرافقته وقت الفسحة لتناول الطعام سوياً، بحجة أن لديه واجبات مدرسية لم يؤدّها بعد. وكان وهو يعتذر متلعثم الصوت، ويفرك يديه ببعضهما وقد أخذتا تلمعان من العرق المتصبّب، وينظر بزاوية عينه إلى منصور الذي كان يراقبهما من خارج الفصل، وقد استند إلى حائط الممر شابكاً ذراعيه على صدره. وأدرك هشام أنهم قد طلبوا من عدنان قطع علاقته به، مثلما طلبوا منه ذلك من قبل، ولم يشك في أن منصور سوف يشي به عند الحزب، ولم يزعجه ذلك، بل أحسّ بشيء من السرور، إذ قد يغضبون منه ثم يفصلونه من التنظيم ويتخلص بذلك من هذا الكابوس الذي لا يدري كيف يفيق منه.

عصر ذلك اليوم ذهب مبكراً إلى منزل عبد الكريم، ولم تكن الشلة

قد وصلت بعد. كان عبد الكريم مسترخياً وقد مدّ رجليه أمامه، ولا يرتدي إلا سروالاً نصفياً وفانيلة بيضاء نصف كم، ويحتسي الشاي الذي لا يفارقه أبداً، وقد أمسك برواية «الغريب» لألبير كامو وهو مستغرق في قراءتها. كان باب «الحوش» مفتوحاً كالعادة في مثل هذا الوقت، ولذلك لم يشعر عبد الكريم إلا وهشام يقف أمامه وهو يقول: «يا عيني على الأفخاذ الندية. . .». ألقى عبد الكريم الرواية من يده وابتسم محيياً هشام، ثم دعاه للجلوس فيما هو ينهض وقد حمل صينية الشاي قائلاً: «دقيقة واحدة ويكون الشاي جاهزاً»، ثم انطلق إلى داخل المنزل. وما هي إلا دقائق وعاد عبد الكريم وقد ارتدى ثوباً أبيض، أو كان أبيض فقد كان مليئاً بالبقع الصفراء والبنية، وجلس مقابل هشام وقال دون مقدمات: «أنا يا أخي لا أفهم. . . هل هناك فعلاً أشخاص مثل الغريب الذي يتحدث عنه كامو، أم أن المسألة مجرد إبداع مؤلف أو تعبير عن حالته النفسية في لحظة ما؟. . . شخص عبثي لهذه الدرجة! لا يأبه بوفاة أمه ولا بمحاكمته وموته هو شخصياً!. . . أعتقد أن هذه مبالغة. . . أليس كذلك؟» ومدّ هشام إحدى رجليه، وشبك ذراعيه خلف رأسه، واستند إلى الحائط وهو يقول: «ربما يكون مثل هذا العبث مبالغة بالنسبة لنا، ولكن لو عرفت الظروف التي عاشها كامو، وحالة المجتمع الأوروبي بعد الحرب، لربما أدركنا أن العبث قد يكون جزءاً من الحياة. . .»، ثم اعتدل هشام في جلسته وهو يقول: «ما الفرق بين العبث والقدر؟»، «لم أفهم. . .» قال عبد الكريم، «ما نسميه قدراً قد يكون عبثاً، وما يسمونه عبثاً قد نسميه قدراً. المسألة يا عزيزي هي في كيف ننظر إلى الأمور وليس في الأمور ذاتها. ليس هناك حقيقة في ذاتها، بل إن المسألة تكمن في. . .»، وقطع هشام حديثه إذ بدأ

الأصدقاء في المجيء: عبد العزيز، ثم سعود، وأخيراً سالم. جلس الجميع وأخذ سعود يصبّ الشاي الذي دفعته أم عبد الكريم من وراء الباب وهي تقول بصوت ضعيف: «الشاهي يا عبد الكريم... مساكم الله بالخير يا عيال»، وصاح الجميع بأصوات متداخلة: «مساك الله بالخير يا أم حمد»، وحمد هو الأخ الشقيق الأكبر لعبد الكريم وهو يعمل في أرامكو ولا يرونه إلا في المناسبات، فقد كان العمل في أرامكو يستهلك كل وقته، بالإضافة إلى انشغاله مع زوجته الأميركية وأولاده الثلاثة الذين لا يكادون يتكلمون العربية، فقد ولدوا في أوستن، ولاية تكساس، حيث كان حمد يدرس هندسة البترول في بعثة من أرامكو، وهناك تعرف على زوجته «باربرة»، وأنجب ولديه «شادي» و «فادي» وابنته «سارة»، وهم يعيشون الآن جميعاً في «السينير ستاف»، حي كبار الموظفين في أرامكو، ويذهب الأولاد إلى مدارس أميركية في ذلك الحي.

أخذ الجميع يحتسون الشاي ويتحدثون في شتّى المواضيع، والوقت يمر دون أن يظهر عدنان. وبدأت مشاعر من القلق والتوتّر والغيرة والفضول تغزو هشام: «أين يمكن أن يكون هذا الأحمق؟... أتراه مع وجه القرد؟ أم أنه رضخ لأوامر التنظيم السخيفة وقطع العلاقة به؟ يا له من رعديد وإمعة إن كان أطاعهم في ذلك»، كان هشام يحدّث نفسه غافلاً عمّا حوله، ولم يتنبه إلا على صوت قهقهات الأصدقاء وتعليقاتهم: «غربلك الله يا سعود... ما تبطل عن خرابيطك هذي»، لا شك أن سعود قد أتحفهم بواحدة من تلك النكت الخارجة التي لا تخلو منها جعبته. ولاحظوا أن هشام لم يكن معهم، فبدأت التعليقات تنصب عليه: «ايه... هذا هو حال المحبين...»، «يا عيني على اللي حب ولا طال...»، «احم... احم... نحن هنا»، غير أن هشام غيّر

الموضوع بسرعة وهو يقول باسماً ويحاول أن يكون طبيعياً إلى أبعد الحدود:

ـ يا لكم من مجموعة من القردة الماجنة... لقد كنت أفكر في عدنان وسبب غيابه إلى الآن... لكن الظاهر أنه ليس لكم صاحب.

ـ أنت من لديه الجواب...

قال سعود:

ـ أنت أقرب واحد منّا إليه... لا تقلق على أية حال، سوف يأتي... إن لم يكن اليوم فغداً؟

وضحك سعود باقتضاب وهو ينظر إلى الآخرين ويغمز بعينه، وأخذوا ينظرون إلى هشام ويضحكون بدورهم. ونهض هشام فجأة وهو يقول:

ـ صحيح مجموعة من القرود... أنا ذاهب على أية حال.

وهنا صاح سعود: «عسى ما زعلت؟... لقد كنت أمزح فقط»، ونهض عبد الكريم وراءه وهو يقول: «أنت تعرف سعود ومجونه. إنه لا يعني شيئاً»، «لا عليك» قال هشام، ثم موجهاً كلامه للجميع: «اللي يقعد مع القرود لازم يكون قرد. والقرود ما تزعل من بعضها... أليس كذلك يا وجه القرد؟»، قال وهو ينظر إلى سعود ويبتسم، الذي رد بدوره مبتسماً: «هو كذلك يا أحلى قرد... لما لا تجلس إذاً؟» «لدي بعض المشاغل. أراكم غداً... باي...»، وانطلق إلى الخارج فيما صوت سالم يعلو طالباً ورقة اللعب ومتحدياً في جولة بلوت، وسعود يدندن: «أهل الهوى صحيح مساكين...».

لقد أغضبه تعليق سعود، وشعر بمقت شديد تجاهه في تلك

اللحظة، ولكن فضوله لمعرفة أين كان عدنان طغى على كل شيء آخر. نسي الشلة وسعود حالما خرج واتجه دون وعي إلى منزل عدنان بخطى سريعة مسموعة من جراء صفق الشبشب بقاع القدم. عندما طرق الباب، فتح له ماجد الذي حيّاه بسرعة وخرج وهو يقول: «إن كنت تبحث عن صاحبك فهو يلهو في صومعته... أرجو المعذرة فلن أستطيع البقاء، لقد حصلت على عمل في متجر أبي صالح ولا أريد التأخر... سلام...»، وانطلق ماجد فيما اتجه هشام إلى بيت الدرج المؤدي إلى السطح، مقابل مجلس الرجال في ذات الممر المؤدي إلى باب الخروج حيث كان مرسم عدنان، وقبل أن يدخل، ألقى نظرة سريعة إلى صالة المنزل الرئيسية من خلال الباب المشرّع المؤدي إلى داخل المنزل. كانت مساحة بيت الدرج ضيّقة جداً، غير أن يد عدنان حوّلتها إلى شيء ساحر بتلك الرسومات والزخارف التي تزيّن الجدران. وجد عدنان جالساً هناك مستغرقاً في رسم لوحة جديدة، وكان العرق ينضح من كل أجزاء جسمه النحيل في ذلك الجوّ الخانق الذي لا يتحمّله إلا عدنان وهو يرسم. كان جالساً على الأرض وقد شبك رجليه ببعضهما، وأسند اللوحة التي يرسم إلى الحائط، جاعلاً الباب من ورائه. وكان يلبس فانيلة «علاقي» بيضاء مبللة بالعرق، وسروالاً أبيض طويلاً، وحبات العرق اللامعة تسري من أسفل عنقه في طريقها إلى أعماق الظهر. كان في غاية الاستغراق، في جوّ رطب وحار اختلطت فيه روائح الألوان الزيتية بالعفونة القادمة من بلاّعة المنزل غير البعيدة، مع آثار رائحة قلي، فعلم أن هناك ما يقلقه فقد كانت هذه هي حاله كلما أحسّ بالضيق. لم يحس بدخول هشام الذي اقترب منه بهدوء ودون أن يحيّيه، وضع يده على كتفه الرطب قائلاً: «عسى ما شر؟... افتقدناك اليوم»، وجفل عدنان أول الأمر،

ونظر من وراء ظهره ثم عاد إلى الرسم بيد مرتجفة قائلاً بصوت إلى الهمس أقرب: «أهلاً يا هشام... وجدت في نفسي الرغبة في الرسم. هذا كل ما في الأمر»، ثم عاد إلى لوحته وهو يتحاشى نظرات هشام الذي بقي واقفاً يحاول أن يعرف ماذا يرسم صاحبه. وساد صمت قصير قطعه عدنان وهو يقول دون أن يتوقف عن الرسم، وكأنه يحدّث نفسه: «تباً لهذا المكان... إنه ضيّق جداً. سوف أبني عشّة على السطح حيث الرحابة وعدم الإزعاج»، وعاد الصمت من جديد. كان هشام يتصنّع الهدوء كل ذلك الوقت، ويحاول أن يكون رزيناً إذ لعلّ عدنان يفاتحه بالموضوع دون طلب منه، ولكنه بقي يرسم دون أن يتفوّه بكلمة واحدة. وأخيراً عيل صبر هشام فقال: «عدنان... أريد أن أتحدث إليك. إذا لم يكن لديك مانع». لم يتوقف عدنان عن الرسم وهو يقول: «أرجو المعذرة... فلدي رغبة ملحّة في الرسم»، ولم يستطع هشام صبراً، فوضع يده على عاتق صديقه وهو يقول بصوت حاول من خلاله السيطرة على إنفعالات الغضب في داخله لاعتقاده أنه أُهين: «لن أعطّلك كثيراً... خمس دقائق على الأكثر». والتقت نظرات الصديقين، فوضع عدنان الفرشاة وهو ينهض قائلاً باستسلام: «دقيقة واحدة وألبس الثوب»، «حسناً... سوف أنتظرك في الخارج»، واتجه عدنان إلى الداخل وهو يهزّ رأسه، فيما كان هشام يتجه إلى الخارج.

اتجه الإثنان إلى مسجد الشيخ موسى، الذي كان خالياً تماماً في مثل هذا الوقت بعد صلاة المغرب مباشرة، حتى من الشيخ نفسه الذي يقضي هذا الوقت عادة في منزل الضيافة الذي أعدّه لعابري السبيل. جلسا في مكان قريب من المنبر، ودون مقدّمات قال هشام بسرعة وتوتر وفضول:

ـ ماذا فعلتما بالأمس. أنت ووجه... أقصد أنت ومنصور؟

ـ وما أدراك أننا تقابلنا؟ هل كنت تتجسّس عليّ؟

وضحك هشام باقتضاب، ثم قال بسخرية واضحة:

ـ أتجسّس عليك... ومن تكون حتى أفعل ذلك؟ أنت من قال لي ذلك، كما أني أعلم أشياءَ لا تعلمها.

قال هشام جملته الأخيرة ونظر إلى عدنان بطرف عينه موحياً له بالأهمية والأسرار الخفية. وطأطأ عدنان رأسه باستسلام ثم قال:

ـ لا شيء... قابلته عند حديقة البلدية بعد العصر، ثم تحدثنا قليلاً وانصرفنا.

لقد تعلّمت الكذب سريعاً يا عدنان... قال هشام محدّثاً نفسه، ثم قال بحزم:

ـ هذا ليس صحيحاً... لقد ركبتما سيارة. أين ذهبتما؟

وفغر عدنان فاه، وجحظت عيناه قليلاً وهو يقول:

ـ إذن كنت تتجسّس علينا...

وبشيء من نفاد الصبر، قال هشام بحدّة وهو يلوح بيده في الهواء بعصبية:

ـ هذا ليس مهماً الآن... أين ذهبتما؟

وأخذ العرق يتصبّب من جبين عدنان وهو يقول بصوت متلعثم:

ـ لقد ذهبنا إلى منزل في القرية، وكان هناك شخصان... تحدثنا لبعض الوقت، ثم أعطاني بعض الكتب وعدت.

وصمت عدنان قليلاً قبل أن يقول:

ـ الحقيقة أنه ما كان يجب أن أقول لك شيئاً. . . هكذا أفهمني الرفيق جعفر. . . أقصد منصور. . .

إذاً هو الاسم الحركي لوجه القرد. . . أسرّ هشام لنفسه قبل أن يقول:

ـ القرية؟ ايش تطلع هذي؟

ـ قرية قريبة من القطيف. . . هناك يسكن منصور.

ـ بلا قرية بلا زفت. . . المهم. . . لماذا تحاول تجنّبي؟ ألست صديقك؟

ـ أنا لا أتجنّبك. . . أنت تتهيّأ.

وبعصبية قال هشام:

ـ أتهيّأ. . . ما باقي إلا تقول مهبول.

وأخذت حبات العرق تتجمّع على أنف عدنان الذي قال وهو يرتعش بوضوح:

ـ الحقيقة. . . الحقيقة. . . الحقيقة أنه طلب مني قطع العلاقة بك. يجب ألا تقوم علاقة صداقة خارج إطار العمل التنظيمي. هناك مخاطر أمنية في ذلك. هكذا أفهمني منصور.

طز فيك وفي منصور وفي التنظيم. . . حدّث نفسه قبل أن يقول:

ـ تبّاً لك يا عدنان. وهل تطيع كل من يقول لك شيئاً؟ نحن أصدقاء منذ الطفولة، هل تضحي بذلك من أجل أي شيء؟

وكان عدنان في غاية الاضطراب وهو يقول:

ـ والله ما أدري اسمع كلام مين واخلي كلام مين. . .

ضحك هشام بسخرية وهو ينهض ويقول:

ـ افعل ما بدا لك يا عدنان. . . لقد طلب مني الشيء نفسه، ولكني وضعت علاقتنا فوق كل اعتبار. ولكن يبدو أنك لا تستحق. . .

وغادر المسجد على عجل فيما بقي عدنان متردّداً. . . أراد اللّحاق بصديقه، ولكنه عدل عن ذلك، ثم فكر في اللّحاق به مرة ثانية ولكن شيئاً أمسكه عن ذلك. وبقي قابعاً في مكانه حتى بدأ البعض في الحضور إلى المسجد، فنهض جارّاً رجليه إلى المنزل حيث الريشة واللوحة.

ـ ٣٧ ـ

في الأيام التالية لجلسة المسجد، تجنّب هشام عدنان بشكل كامل، بل تجاهله وكأنه لم يكن. كان من الممكن أن يتحمّل أي شيء، إلا أن يحس أنه قد أُهين، وقد أهانه عدنان، الشخص الذي كان يعتقد أنه أحد أشيائه. كان هشام يريد أن يقول له «أنا من يقطع العلاقة معك باختياري. . . أنا صاحب القرار، وسأبقى صاحب القرار، وسنرى من يفتقد الآخر. سنرى من يحتاج الآخر. ولينفعك منصور الزفت. . .». ولم تمضِ عدة أيام على ذلك، حتى بدأ عدنان في الاقتراب من هشام تدريجياً، فتارة يحييه ببسمة واسعة، وتارة بالجلوس إلى جانبه وقت الفسحة كما كانا يفعلان في السابق. ولكن هشام كان مصمّماً على الإعراض عنه، إذ ما إن يجلس بجانبه حتى ينهض مبتعداً، ولا يردّ على أي من تحيّاته. وحتى عندما كان عدنان يأتي إلى جلسات الشلة، كان هشام يبتعد عنه ويجفوه بشكل ملحوظ، حتى أن أفراد الشلة لاحظوا هذا التصرف غير المعهود بين الصديقين وحاولوا إصلاح ذات البين، قائلين

إن المسألة المختلف عليها مهما كانت لا يجب أن تقف في وجه صداقة مثل صداقتهما. ولكن هشام حاول أن يقنعهم أنه لا جفاء ولا خصام، وأنه مشغول بأمور أخرى تحتلّ تفكيره هذه الأيام، وبدأ يحسن علاقته مع عدنان أمام الشلة ولكنه حرص على الجفوة فيما عدا ذلك.

ولم يستطع عدنان التحمّل أكثر من ذلك، فعلاقته الرفاقية لم تعوّضه عن صداقة هشام. مع الرفاق لم يكن بمقدوره بثّ شجونه وعواطفه وانفعالاته، أما هشام فكان يجد الملجأ الذي يلوذ إليه عندما تتوتّر علاقته بأبيه أو أخيه. لقد افتقد حديث هشام عن لوحاته وإطرائه لها، فأحسّ بوحشة قاتلة. إنه بحاجة إلى التقدير والإعجاب وذلك شيء لم يجده إلا عند هشام.

وفي أحد الأيام، وبينما كان جالساً في مكانه المعهود يتناول طعام الفسحة، اقترب منه عدنان وجلس بجانبه. أراد النهوض، غير أن عدنان جذبه من مرفقه وهو يقول: «هشام. . . أنا آسف. من الممكن أن أخسر كل شيء إلا أنت. أنا آسف. . .»، وأخذ يبكي. نظر إليه هشام بحب وصفاء، وقد أحسّ أن كل مشاغر البغض قد زالت قائلاً: «كنت أعلم أن صداقتنا فوق كل علاقة»، ثم مال على صديقه وتعانقا. قال عدنان بعدها بانكسار: «أنت تعلم أني لم أدخل التنظيم إلا لأجلك. . .»، ونهض الاثنان متشابكي الأيدي متجهين إلى الفصل، فقد كان صوت الجرس يأتي من بعيد مؤذناً بنهاية الفسحة. . . ونهاية الجفاء.

إعتذار عدنان وعودته أرضيا هشام وأعادا إليه إحساسه بالتفوّق والأهمية القصوى التي لا يجدها إلا في علاقته بعدنان. لقد شعر أنه استعاد شيئاً من أشيائه سلب منه، وكان ذلك انتصاراً على منصور وفهد

وراشد وكل التنظيم، إنه أقوى من هؤلاء جميعاً. . . لقد هزمهم في النهاية، وليذهبوا إلى الجحيم هم وأوامرهم.

ـ ٣٨ ـ

في الأيام التالية حدثت أحداث خطيرة في المنطقة، قام إنقلاب عسكري في ليبيا أطاح بالملك إدريس السنوسي وأعلن قيام الجمهورية. وكان واضحاً أن الذين يقفون وراءه ذوو اتجاه ناصري، سواء من خلال الشعارات والمبادىء التي أعلنوا عنها، أو من خلال الاعتراف المصري السريع بالثورة في ليبيا. لم يكن معروفاً بعد من هو «جمال عبد الناصر» ليبياً، ولكن كان من المؤكّد أن الجميع ناصريّون.

وكانت جلسة الخلية بعد هذه الأحداث مخصّصة لمناقشة هذه التطوّرات من أجل بلورة موقف الحزب من هذه الأحداث. فبعد أداء الطقوس المعتادة، افتتح فهد الجلسة قائلاً:

ـ أيها الرفاق. . . كلنا يعلم مجريات الأحداث في ليبيا، والقيادة تريد أن تستشف آراءكم من أجل الوصول إلى موقف حزبي تجاهها. . . فما رأيكم؟

ساد صمت قصير، ثم قال الرفيق حديجان بحماس:

ـ أنا مع هذه الثورة قلباً وقالباً. . . إنها ثورة ضدّ الاستعمار والإمبريالية والاستغلال، ويجب أن ندعمها بكل قوانا وإمكانياتنا. إنها دعم للقوى التقدّمية في الوطن العربي وسوف تعزّز من وضع القوى التقدمية في الجزيرة. . . أنا معها بدون تحفّظ.

غير أن الرفيق حسن الصباح عقب قائلاً:

ـ ولكن من الواضح أن القائمين بها هم من الناصريين... وذلك سيؤدي إلى دعم جمال عبد الناصر، خاصة وأن ليبيا مجاورة لمصر وتتمتّع بثروة نفطية هائلة.

ـ وما العيب في ذلك؟

قال الرفيق حديجان وأنفاسه تتهدج من فرط الحماس، فقال حسن الصباح وظل ابتسامة يلوح على فيه:

ـ العيب يا رفيق هو أن قوة جمال ضعف للحزب الذي لن يكون متمتعاً بالموارد التي ستتاح لجمال...

ـ ولكن الحزب يحكم في العراق منذ ثورة تموز، وهو قطر ثري وموارد غير محدودة، كما أن...

ولكن حديجان لم يكمل جملته، إذ قاطعه الرفيق فهد بحدّة وغضب قائلاً:

ـ أحبّ أن أصحح لك يا رفيق حديجان... من يحكم في العراق ليس الحزب. إنهم زمرة من الانتهازيين والخونة الرجعيين الذين لا علاقة لهم بحزبنا الثوري العظيم. سبق أن ناقشنا ذلك العام الماضي عندما حدثت حركة الرجعيين الخونة في العراق. ولكن يبدو أنك تنسى سريعاً يا رفيق، أو أنك لم تستوعب مبادىء الحزب.

ثم أخذ ينظر إليه شزراً لبعض الوقت، في حين أرخى حديجان نظره ونكس رأسه وصمت. وبعد أن تأكد فهد أن الرسالة قد وصلت، عاد إلى هدوئه ثم قال:

ـ الذين يحملون إسم الحزب وهم خونة له أشدّ خطراً من الأعداء الظاهرين.

ـ معك حق يا رفيق...

قال حسن الصباح:

ـ وعلى أية حال أنا لا أثق بالمغامرين العسكريين وانقلاباتهم...

ثم مستدركاً:

ـ إلا إذا كانوا من المنتمين إلى حزب منظم.

ـ هذا صحيح...

قال فهد:

ـ ولكن يجب ألا ننسى أنه لا مجال للثورة في الوطن العربي إلا عن طريق الجيش... ليس بالإمكان قيام ثورة شعبية مثل الثورة الفرنسية أو الروسية أو الصينية... الجيش هو الطليعة وهو الأمل، بشرط أن يكون منتمياً إلى حزب تقدمي حقيقي، وليس هناك حزب تقدمي حقيقي في الوطن العربي غير حزبنا وغير حركتنا... حركة بعث الأمة من رقادها.

كان هشام وأبو ذر صامتين خلال ذلك يتابعان النقاش، إلى أن فاجأ فهد هشام قائلاً:

ـ الرفيق أبو هريرة... لم نسمع رأيك بعد!

وبدون تردد قال هشام وهو ينظر بطرف عينه إلى حديجان:

ـ الحقيقة أن أية حركة ضدّ الاستعمار والإمبريالية والاستعباد هي ثورة حقيقية يجب أن نؤيّدها، بغضّ النظر عن القائمين عليها واتجاهاتهم السياسية... وعلى أيّة حال، فإن يحكم الناصريون في ليبيا أفضل من

أن تبقى في يد الإمبريالية وأعوانها من الرجعيين والخونة.

وهنا تدخل حسن الصباح بشيء من الحدّة وبصوت مرتفع قليلاً قائلاً:

ـ أنت مخطىء يا رفيق... هذا موقف ساذج... أن يبقى الاستعمار وعملائه أفضل للحزب.

ثم عدل جلسته ومال بجسمه إلى الأمام بحيث أصبحت أذنيه البارزتين أكثر بروزاً، وكان واضحاً جحوظ عينيه وهو يقول مشيراً بسبابته في اتجاه هشام:

ـ الاستعمار وأعوانه عدو ظاهر يستطيع الحزب أن يعبىء الجماهير الثورية ضدّه وقيادة الثورة... أما الآن... أما الآن فقد أصبح العدو مستتراً، لأن الحزب لا يستطيع معاداة حركة تدّعي الثورية والتقدّمية والعروبة وهي خلاف ذلك في الحقيقة.

وصمت حسن الصباح وعاد بجسمه إلى الوراء وقد ارتسمت بسمة صغيرة على فيه، فيما أحسّ هشام بالإهانة لوصف موقفه بالسذاجة، ولكنه كان في غاية الهدوء وهو يقول:

ـ وما أدراك أن الحركة في ليبيا ليست ثورية ولا تقدمية في الحقيقة؟

ـ وهذه سذاجة أخرى يا رفيق... المسألة في غاية الوضوح. ليس هناك إلا حزب ثوري واحد في الوطن العربي، وليس هناك إلا حركة تقدمية واحدة. حزبنا وحركتنا، وما عدا ذلك لا شك أنه غير ذلك... هل فهمت يا رفيق؟

وتحوّل وجه هشام إلى شيء أشبه بدم محبوس، وبركان يغلي في داخله ودّ لو يستطيع أن يصفع هذا الوقح الذي يكيل له الإهانة تلو

الإهانة، واستجمع نفسه وأراد الرد، غير أن الرفيق أبو ذرّ سبقه قائلاً:

ـ أنا من رأي الرفيق أبو هريرة... كل ثورة ضد الظلم والاستعباد هي جزء من حركة الثورة العربية... مهما كان القائمون بها...

ثم علّق حديجان قائلاً:

ـ الحزب أو الحركة أداة لتحقيق المبادىء والمثل وليس العكس... إذا ثبت أن حركة ما تخدم فعلاً ما نؤمن به، فلماذا لا نؤيّدها بغضّ النظر عن إسم الحركة أو الحزب الذي قام بها...

قال ذلك ونظر إلى هشام وأبو ذرّ مبتسماً، فيما ابتسم له هشام بالمقابل، وكانت عينا فهد تتابع كل ذلك. لكم يحب الرفيق حديجان هذا بقدر بغضه لحسن الصباح وفهد وذلك منذ أن رأى الجميع لأوّل مرة. ثم قال فهد:

ـ يجب أن يكون معلوماً يا رفاق أن الحزب فوق كل شيء.

ـ حتى لو كان ذلك الشيء هو المبادىء؟

تساءل حديجان:

ـ الحزب هو المبادىء يا رفيق... وبدونه لا مبادىء.

أجاب فهد بحسم وصرامة منهياً النقاش في هذه النقطة. ثم استمرت الجلسة لبعض الوقت، قرأ خلالها الرفيق فهد بعض التوجيهات الحزبية الداخلية، ثم طلب من الجميع في النهاية كتابة تحليل للأحداث في المنطقة وذلك لرفعها إلى القيادة القطرية، التي بناءً على ذلك سوف تتّخذ موقفها من هذه الأحداث وترفع بذلك إلى القيادة القومية التي سوف تحدد موقف الحزب العام على مستوى الأمة... هكذا أخبرهم الرفيق

فهد، معقباً أن هذه هي الديموقراطية الحقيقية، ثم هاجم الديموقراطية البرجوازية بصفتها وعي طبقي زائف، لا يعبّر إلا عن مصالح البرجوازية وحدها. . .

- ٣٩ -

عندما خرج من الجلسة في ذلك اليوم الحار والرطب من أيام أيلول في الدمام، فكّر في العروج على شارع الحب والتسكّع قليلاً قبل الذهاب إلى المنزل، فهو لا يشعر اليوم بالرغبة في الذهاب إلى الشلة. أخذ يتسكع دون هدى، متلصّصاً على أرداف النساء الضخمة المترجرجة في السوق عند أقلّ حركة، وقد ظهرت تلك الخطوط المثيرة بوضوح من خلال تعرجات العباءة السوداء الملتصقة بالجسد بإحكام، مما جعل المنظر أكثر إثارة. أخذ يتفرج على حوانيت القماش وحاجيات النساء، وخاصة الملابس الداخلية وملابس النوم، حتى انتهى به المطاف عند مقهى صغير في آخر الشارع حيث يلتقي شارع الحب مع شارع ثمانطعش. كان مقهى صغيراً يتناول فيه العمّال والعاطلون والمتسكعون المرطبات والشاي بالحليب وساندويشات البيض والطماطم بالشطة الحمراء، والجبنة مع مربى البطيخ. لا يذكر أنه جلس في مقهى في حياته إلا في مناسبات الأعياد، حين كان يذهب هو وعدنان إلى الخبر ويتناولان الطعام في أحد المطاعم في شارع الأمير خالد أو في شارع السويكت، ثم يجلسان في أحد المقاهي ويتناولان القهوة بالحليب كجزء من الاحتفال بالعيد. وفي الشام والأردن، عندما يكون هناك في الصيف، كان كثيراً ما يجلس برفقة والده في مقاهي الميدان والمرجة في

دمشق، ورأس العين وطلعة المصدار وشارع الملك طلال في عمان، حيث كان والده يقضي الوقت مع أصحابه من العقيلات يدخنون الأرجيلة ويتحدثون، فميا هو يتمتع بشراب تمر الهند وأحياناً طبقاً من الكنافة النابلسية أو الهريسة المزينة باللوز. في غير تلك المناسبات، كان لا يعرف إلا المدرسة والشلة وغرفته، والآن التنظيم.

كان يريد التوجه يساراً في شارع ثمنطعش في الطريق إلى المنزل، عندما حانت منه التفاتة إلى المقهى فلمح حديجان وأبو ذر يجلسان هناك، ولمحاه بدورهما. ابتسم لهما فرد حديجان ببسمة مماثلة وواصل طريقه دون أن يلتفت مرة أخرى. ولكنه فوجىء بيد تجذبه من منكبه وصوت يقول: «تفضل يا أخي... يجب أن تشرب شيئاً معنا. هذا إن لم يكن لديك مانع»، كان ذلك حديجان الذي لم يعطه مجالاً للتفكير، إذ كان قد جرّه من ذراعه إلى داخل المقهى وأجلسه على الكرسي الذي كان يجلس عليه، فيما سحب لنفسه كرسياً آخر، ثم صفّق بيديه صائحاً: «يا ولد»، والتفت إلى هشام باسماً وهو يقول: «ماذا تشرب؟... شاي والا بارد»، «شاي... شاي... إذا سمحت»، أجاب هشام بتلعثم. كانت كلمة «يا أخي» التي ناداه بها حديجان لا تزال ترنّ في أذنه، فقد كاد ينساها في الآونة الأخيرة. لقد أصبح معتاداً على كلمة «رفيق» التي كانت تثير فيه الضحك عندما سمعها لأول مرة، ثم أصبحت مثيرة للنفور والخوف أخيراً. كان حديجان يلبس ذات الملابس التي لا تتغيّر أبداً: بدلة سوداء رغم الحرارة والرطوبة، قميص أبيض، وصندل أسود دون جوارب. أما أبو ذر فقد كان يرتدي مثل هشام ثوباً أبيض ونعلين من البلاستيك. لا يدري كيف يطيق حديجان هذه الملابس في مثل هذا الجو الذي يكاد يكتم الأنفاس، فجوّ الدمام لا يطاق من أواخر أيار

وحتى منتصف تشرين أول، وفيما عدا ذلك فالجوّ مقبول، بل هو جميل فعلاً، عدا أيام من كانون الثاني وشباط يكون الزمهرير فيها قاسياً.

وجاء النادل بالشاي في كأس تنتشر البقع على جوانبها، وهو يحاول طرد الذباب العنيد الذي لا يريد مفارقة وجهه، وقد مزج الشاي بحليب العلب المركّز مع كمية كبيرة من السكر كانت تستقر في قاع الكأس. إنه لا يستسيغ الشاي بهذه الطريقة، إذ يفضّله دون حليب وقليل من السكر، ولكنه أخذ يرتشفه دون اعتراض فيما كان حديجان يقضم سندويش بيض يشاركه فيه الذباب الذي لا يكفّ عن الدوران والطنين، ويشرب كوكاكولا، وأبو ذر يشرب زجاجة من شراب البرتقال «سوبر»، والجميع يحاولون طرد الذباب العنيد المصمّم على الالتصاق بالجلود اللّزجة بكل إزعاج ممكن. كان واضحاً أنهما يعرفان بعضهما خارج التنظيم، فقد كانا يتحدثان ويضحكان عندما لمحهما أوّل مرة. وازدرد حديجان آخر لقمة من الساندويش، أتبعها برشفة كبيرة من الكولا، ثم قال وهو يحاول ابتلاع اللقمة:

ـ أقدم لك نفسي... مرزوق إبن ضيدان المطراني

ثم مشيراً إلى أبو ذر:

ـ وهذا صديقي زكي باقر عبد النبي...

ثم صمت وهو يرمق هشام بنظرات ذات مغزى جعلت عينيه الصغيرتين أكثر ضيقاً، فيما هو يحاول إرتشاف آخر ما في زجاجة الكولا من شراب. وأدرك هشام أنه يدعوه للتعريف بنفسه بدوره. وبدون تردد قال هشام:

ـ وأنا هشام إبراهيم العابر... طالب ثانوي.

ـ أما نحن، فموظفان في بنك هولندا العام في الخبر، ونأتي هنا بعد. . .

وبتر حديجان كلامه، وأخذ يتلفت حوله ثم قال:

ـ لتزجية الوقت في انتظار سيارة الأجرة.

وفي هذه الأثناء كان أبو ذر في أشدّ حالات الضيق، ينظر إلى حديجان بغضب كان واضحاً على ملامح وجهه، غير أن حديجان لم يكن مبالياً، إذ واصل كلامه قائلاً: «أنا من هجرة الأرطاوية، أكيد تعرفها إذا كنت تعرف ابن دويش. . . وأكيد تعرفه».

قال حديجان وقد بان الزهو في عينيه، ثم واصل قائلاً:

ـ ولدت هناك وجاء والدي إلى الشرقية وأنا في حدود السنوات الخمس، حيث عمل في أرامكو عامل حفر وتنقيب. . .

وصمت حديجان لحظات كان يرفع خلالها زجاجة الكولا الفارغة إلى فيه ويبحث عن أي نقطة من الممكن أن تكون قد بقيت، ثم يعيد الزجاجة إلى الطاولة وهو يلعق أسنانه بصوت مسموع ويقول:

ـ تركت الدراسة بعد شهادة الكفاءة المتوسطة، وعملت في البنك، غير أني أدرس في المدرسة الليلية، وعندما أحصل على التوجيهية، سوف أترك العمل في البنك وألتحق بالكلية الحربية. . . أريد أن أصبح ضابطاً.

وصمت حديجان فيما كانت نظرات هشام الفضولية، ونظرات أبو ذر الغاضبة تتابعه. ثم صفق بيديه وهو يصيح: «واحد بارد يا ولد. . .»، ثم ملتفتاً إلى هشام وأبو ذر: «هل تشربان شيئاً؟»، وهز الاثنان رأسيهما دلالة الرفض، بابتسامة تعلو فم هشام الذي وضع يديه على الطاولة أمامه

وقد مال بكل جسمه إلى الأمام، وتكشيرة علت وجه أبو ذر وقد تراجع بجسمه إلى الوراء وطوى يديه على صدره. ثم قال حديجان وقد وضع رجلاً على رجل، ورجع بجسمه إلى الوراء وهو يشبك كفّيه خلف عنقه:

ـ وأنت... ماذا بشأنك؟ لهجتك توحي بأنك من القصيم.

ـ هذا صحيح...

قال هشام:

ـ والدي من القصيم، أما أنا فقد ولدت ونشأت هنا. لذا فأنا «شرقاوي» في الحقيقة.

وابتسم هشام باقتضاب وهو يقول ذلك، فيما قال حديجان:

ـ ولكن لهجتك توحي بأنك قادم لتوك من القصيم. ليس فيها كلمة شرقاوية واحدة.

ـ يعني أنت اللي لهجتك دمامية... عندما سمعتك لأول مرة ظننت أنك قادم لتوك من أعماق الربع الخالي.

وضحك الاثنان فيما كانت بسمة صغيرة تحاول أن تجد لها مكاناً على فم أبو ذر، ثم قال حديجان وأسنانه البيضاء ما زالت بارزة:

ـ يقولون إن «القصمان» لا يتغيّرون أبداً... لا تختلف لهجتهم أو عاداتهم مهما تغيّرت الأماكن بهم. وهي تتغيّر كثيراً فهم أهل تجارة...

ويضحك حديجان وهو يقول:

ـ حتى أن البعض يسمّيهم يهود نجد...

ـ ولِمَ لا تقول يهود الجزيرة.

قال هشام مجارياً حديجان في ضحكه، إلا أن حديجان هزّ سبابته وهو يضحك قائلاً:

ـ لا . . . لا . . . هذا اللقب محجوز للحضارم.

وضحك الجميع بمن فيهم أبو ذرّ هذه المرّة، الذي ما لبث أن نهض فجأة بعد أن هدأت عاصفة الضحك، وهو يقول ناظراً إلى حديجان: «سأسبقك إلى الموقف. . . لا تتأخر.»، ثم انسلّ من المقهى وغاب في شارع الحب.

بقي الاثنان صامتين لبرهة وهما ينظران إلى باب المقهى، ثم قال هشام:

ـ وماذا بشأن صديقك؟. . . هو صديقك، أليس كذلك؟

وبدون اكتراث قال حديجان: نعم. . . عرفته في البنك. وهو شاب طيب ولطيف، ولكنه كثير الشك، لا يثق بأحد بسهولة، ولكن ما أن يثق بأحد حتى تجده أدمث الناس خلقاً.

وبعد أن شرب حديجان بقية زجاجة الكولا دفعة واحدة، قال وهو يتجشأ بصوت مسموع:

ـ إنه من صفوى، ويعيش أهله في رحيمة، وهو يدرس معي في المدرسة الليلية ويريد أن يحصل على شهادة جامعية في المحاسبة وإدارة الأعمال.

ثم نهض حديجان وهو يقول بعجل: «يجب ألا أتأخر وإلا غضب مني أكثر. . .»، ثم صاح: «الحساب يا ولد. . .»، إلا أن هشام رفض إلا أن يدفع الحساب، فغادر حديجان بخطواته العجلى ثم اختفى بين النساء والعمال في شارع الحب.

وتكرّرت اللقاءات الشخصية بعد ذلك، وأصبحت تتم على ساحل البحر القريب، ليس بعيداً عن مبنى الإمارة، بعد انتهاء اجتماع الخلية،

فالمكان هناك أهدأ بعيداً عن الناس والضجة، رغم الرائحة الكريهة المنبعثة من البحر حيث تمتزج رائحة البحر في مثل هذا الوقت من السنة، مع مخلّفات الناس وبقاياهم، ولكن الإنسان يعتاد عليها ويبقى البحر بجماله رغم كل شيء. كانت هذه اللقاءات تتمّ أول الأمر بين مرزوق وهشام، ثم انضم إليهما زكي الذي كان فعلاً خلاف أول لقاء تمّ في المقهى، فقد كان دمثاً ورقيقاً بخلاف أبو ذر الذي يراه في اجتماعات الخلية. كان الثلاثة يجتمعون على الساحل لما بعد غروب الشمس، حيث يجلسون في مواجهة الساحل وقد خلعوا أحذيتهم ومدوا أرجلهم، ثم يأخذون في الحديث في كل شيء، وإن كانت السياسة تستهلك معظم الوقت. وعلم من مرزوق أن زكي أنّبه على سلوكه ذلك اليوم في المقهى، ولكن زكي بعد ذلك كان في غاية السرور لتلك الصدفة السعيدة، كما يسمّيها، التي جعلته يتعرّف على صديق جديد، فالصداقة أسمى علاقة، هكذا عبّر عن علاقتهم لاحقاً. وعلم هشام من صديقيه الجديدين الأسماء الحقيقية للرفاق في الخلية. ففهد هو فريد المدراسي، موظف في البنك التجاري في الدمام، وحسن الصباح هو موافق الميجاري، طالب في الثانوية. وكان هشام مندهشاً من معرفتهما للأسماء الحقيقية للرفاق، فأخبره زكي أنه كان يعرف فريد قبل انضمامه للحزب، بحكم العمل في البنوك وبحكم كونه دائم الذهاب إلى الدمام في أعمال بنكية متعلّقة بالبنك الذي يعمل به، وأنه تعرّف على فريد خلال ذلك وهو من ضمّه إلى الحزب لاحقاً، كما ضمّ هو مرزوق بعد ذلك. أما موافق، فقد عرف اسمه الحقيقي من رحلة حزبية في أحد المزارع القريبة، كان من غير الممكن خلالها استخدام الأسماء الحركية طوال يوم كامل هو زمن الرحلة. واستغرب هشام كيف أن زكي ومرزوق أصدقاء

قبل الانضمام للحزب ومع ذلك هما في خلية واحدة، وكذلك فهد الذي يعرف زكي ويعرفه قبلاً، وذلك شيء مخالف للتعليمات الأمنية. وضحك الاثنان لسذاجة هشام، وقال زكي إن الأمور ليست بالدقّة التي يتصوّرها. فهو عندما ضمّ مرزوق إلى التنظيم كان ذلك من خلال الاتحاد، ثم ضمّ مرزوق إلى الحزب برتبة نصير، والصدفة وحدها هي التي جمعتهما في خلية واحدة.

كانت جلسات الرفاق الثلاثة على الساحل مصدر قلق جديد لهشام. فقد كانت المعلومات التي حدّثوه بها تكشف زيف الكثير من الانطباعات التي كوّنها عن الحزب طوال الفترة الماضية. فالحزب ليس بالحجم الذي تصوّره، فهو من الصغر بحيث يلتقي زكي ومرزوق في ذات الخلية، وهو من اللامبالاة بحيث تنظم رحلة جماعية لجميع الأعضاء يتعرّفون من خلالها على بعضهم بعضاً، ناسفين كل أوامرهم التنظيمية والأمنية عرض الحائط. ما معنى كل ذلك إن لم يكن عبثاً ولا مبالاة بمصير أناس وثقوا بالتنظيم والمبادىء التي يدعو لها، أو حتى عدم إيمان بتلك المبادىء بل مجرد مغامرة غير محسوبة العواقب. وكان هذا القلق الجديد مختلطاً بقرف واشمئزاز سيطرا عليه بعد ذلك، وأخذ يفكّر جدياً في ترك التنظيم قبل أن تحلّ كارثة لا ريب فيها.

ـ ٤٠ ـ

أنجز هشام التقرير الذي طلب منه حول الأوضاع في الوطن العربي بعد حركة أيلول الليبية، وحاول أن يجعله علمياً قدر المستطاع، مستعيناً في ذلك بالفلسفة الماركسية والتحليل اللينيني. ورغم القلق والقرف الذي

استحوذ عليه مؤخراً، إلا أنه حاول كل جهده أن يكون التحليل فريداً، متخيّلاً في بعض اللحظات أنه سوف يكون منظّراً للحزب كما «سوسولوف» هو منظّر الحزب الشيوعي السوفييتي، وكان ذلك يمنحه إحساساً لذيذاً رغم القلق والقرف. والحقيقة أن ما كتبه لم يكن غير الرأي الذي ذكره سابقاً، مدعماً ببعض اقتباسات من ماركس، خاصة في كتاب «الثامن عشر من بروميير، لويس بونابارت»، وأنجلز في «أنتي دوهرنغ»، ولينين في «الإمبريالية أعلى مراحل الرأسمالية»، وغيفارا في «الاشتراكية والإنسان»، وريجس دوبريه في «ثورة في الثورة»، وفرانز فانون في «معذّبو الأرض»، ومقتطفات متفرّقة من كتاب ماوتسي تونغ الأحمر، وخطب هوشي منه وكاسترو. لقد كان يستعرض ثقافته الماركسية الفخور بها، وكان واثقاً أن الحزب سيقدّر له هذه الثقافة ويضعه في الموقع الذي يستحق.

وفي الاجتماع التالي، قرأ الرفاق تقاريرهم، التي لم تكن بمستوى تحليل هشام، الذي كان في غاية الزهو وهو يقرأ تحليله العلمي الرصين، وسط نظرات الإعجاب من مرزوق وزكي، أما حسن الصباح فكان ينظر بعينيه الجاحظتين وهو يهزّ رأسه بين حين وآخر دلالة عدم الموافقة رغم إسمه، فيما بقي فهد ينظر ويستمع دون أن تبدر منه أية حركة، فقد اكتفى بمصّ سيجارته وشرب الشاي الفاتر دون تعبير عن أي شيء. وبعد أن انتهى من قراءة التقرير، طواه وسلّمه إلى فهد وهو يستعرض وجوه الرفاق بعينين كان الفخر فيهما واضحاً. استلم فهد التقرير ووضعه جانباً ثم قال بهدوء، موجهاً حديثه لهشام: «نحن يا رفيق أبو هريرة من المؤمنين بالفلسفة الماركسية، ولكننا لسنا شيوعيين. . . وأعتقد أنك قرأت المنطلقات النظرية للمؤتمر القومي السادس، وعرفت

الفرق بين أن تؤمن بالفلسفة الماركسية وأن تكون شيوعياً أو تؤمن بها وتكون بعثياً قومياً. . .»، ثم توقف فهد قليلاً ريثما أشعل سيجارة ورشف رشفة من الشاي، ثم قال وهو يقاوم سعلة سريعة: «إن من يقرأ تحليلك لا يشك في شيوعيتك. . . أين كتابات علي صالح السعدي أو ياسين الحافظ أو الياس فرح من تحليلك. . . أنت بعثي أولاً، ويجب أن يبقى البعث دائماً أمام ناظريك. . .»، وأنهى فهد كلامه فيما كانت عينا حسن الصباح تبرقان بنظرات لم يخطىء هشام في فهمها. ثم واصل فهد إدارة الجلسة، التي لا يدري هشام ما دار فيها، فقد كان في غاية الإحباط والغضب والمقت للحزب وكل الموجودين، حتى مرزوق وزكي.

ـ ٤١ ـ

في الاجتماع الأسبوعي التالي للخلية، جاء فهد بمنشورين، أحدهما للتداول التنظيمي الداخلي، والآخر للتوزيع بين الناس، وكان المنشوران يدوران حول الأحداث الليبية وموقف الحزب منها. كان الأول لا يخرج في مضمونه عن الرأي الذي سبق أن طرحه حسن الصباح، وكان موقّعاً باسم الحزب. أما الثاني، فكان موقّعاً باسم اتحاد الطلبة، وكان لا يخرج في مضمونه عن الرأي الذي طرحه هشام وحديجان وزكي، دون تحليلات هشام الماركسية. قرأ فهد المنشورين، وأبلغهم أن الأول سرّي للتداول الداخلي، والثاني سوف يوزع منشوراً جماهيرياً. لم يستطيع حديجان أن يمسك نفسه عندما سمع محتوى المنشورين، فقال بشيء من الحدّة:

ـ ولكن يا رفيق فهد... أي المنشورين يعبّر عن موقفنا؟... إنهما متناقضان تقريباً، الأول يقول بالتعامل الحذر مع الثورة الليبية وامتداد نفوذ جمال عبد الناصر، والثاني مؤيّد لها دون حدود... ما هو موقفنا الحقيقي يا رفيق؟

وضحك فهد والدخان الخارج من فيه يتخلّل أسنانه المتفرّقة، ثم قال:

ـ لم تتمرّس بعد في النضال يا رفيق. ما كل المواقف تقال وتذاع. موقفنا الحقيقي هو الموجود في منشور الحزب، أما منشور الاتحاد فهو للجماهير.

وصمت فهد بعد أن امتصّ سيجارته بشراهة، وهو ينظر إلى حديجان بعينين نصف مغمضتين، فيما كان التوتّر قد استحوذ على هشام. لقد تعلّم الكذب وفنونه، وكيف يمكن أن يكذب وهو في غاية الهدوء والبراءة، وأصبح ذلك جزءاً من النضال والعمل السرّي، ولكن ماذا بشأن النفاق؟ إن لم تكن هذه الممارسة نفاقاً مكشوفاً، فماذا تكون؟ ولم يستطع كبح جماح نفسه، رغم أنه في الآونة الأخيرة أصبح لا يكترث كثيراً بما يقال أو يناقش في الخلية، فقال بصوت حاول أن يكون هادئاً، وإن لم يفلح في ذلك، إذ كانت الحدّة واضحة:

ـ ولماذا لا نقول للجماهير موقفنا الحقيقي يا رفيق فهد؟ أنا لا أستطيع الدفاع عن موقفين متناقضين... بل لا أستطيع استيعاب موقفين متناقضين.

وضحك فهد مرة أخرى وهو يقول:

ـ ما زلت حديث عهد بالنضال يا رفيق... ثم... أليس التناقض

هو لبّ الماركسية التي تؤمن بها!؟

وضحك فهد من جديد وانشغل بإشعال سيجارة جديدة، فيما تدخل حسن الصباح قائلاً:

ـ يا رفيق أبو هريرة... إن المسألة...

وقاطعه هشام بحدة وهو يقول:

ـ المعذرة يا رفيق... ولكن هناك مسؤول هو الذي أتحدث إليه وهو الذي يجيب...

وصمت حسن الصباح وانزوى في ركنه وهو ينظر إلى الرفاق وإلى فهد وقد بدأت حبات من العرق تظهر على جبينه، ثم قال فهد:

ـ كلامك سليم يا رفيق بصفة عامة... ولكن للنضال ظروفه الخاصة. الجماهير متعاطفة مع جمال عبد الناصر وتؤيّد ما يؤيّده، فوعيها زائف، ونحن لا نستطيع إلا مسايرتها من أجل قيادتها وتوجيهها، حتى تأتي الفرصة التي نستطيع أن نعبّر بها عن موقفنا الحقيقي الذي هو من صالح الجماهير حتى وإن لم تكن واعية بصالحها... أنت مطّلع بما فيه الكفاية على الفلسفة الماركسية، وتعلم الفرق بين الوعي الحقيقي والوعي الزائف...

ـ هو النفاق إذاً!

أفلتت هذه الجملة من حديجان، ولم يلبث فهد أن ابتسم ساخراً وهو يقول:

ـ سمّه ما شئت... ولكن هذه المعايير الأخلاقية لا تنطبق على العمل النضالي، والسياسي عامة... حتى الدول تقول ما لا تفعل، وتفعل ما لاتقول.

ـ ولكننا لسنا دولة.

قال هشام بحدّة:

ـ نحن أصحاب مبادىء، ويجب أن تعرف الجماهير ذلك، وعندها سوف تحترمنا... احتراماً قائماً على الأخلاق وليس اللفّ والدوران.

كان هشام في غاية الحماس وهو يقول ذلك، غير أن فهد كان في غاية الصرامة وهو يقول:

ـ نعم يا رفيق، لسنا دولة... ولكننا سنكون كذلك.

قال ذلك ثم سرح قليلاً قبل أن يواصل قائلاً:

ـ ومن أجل ذلك يجب أن نمارس ما لا يعجبك، ودع الأخلاق للأنبياء والفلاسفة... إقرأ ما العمل للينين كي تتعلّم النضال.

ـ تقصد السياسة...

ـ لا فرق... كلاهما شيء واحد. إقرأ الكتاب وسوف تعرف الفرق بين النضال والأحلام الطوباوية.

قال فهد وهو يحاول إنهاء النقاش بالعبث في الأوراق التي بين يديه، إلا أن هشام واصل قائلاً:

ـ لقد قرأت لينين وغيره، ولكن ما تقول ميكافيلية وليست لينينية... إذا أصبحنا دولة بهذا الأسلوب، فما الفرق بيننا وبين أيّ دولة أخرى لا نتفق معها؟

ونفث فهد الدخان بنفاذ صبر وهو يقول:

ـ لدينا أهداف ومبادىء مختلفة نريد تطبيقها... أهدافٌ من أجل الأمة والجماهير. هذا هو الفرق يا رفيق.

ـ وهل من خير الأمة أن نكذب عليها من البداية!!

ـ ليس الأمر كذلك... عندما يصبح لدينا دولة، فسوف تختلف الأمور.

ـ إذا كنّا نمارس ذلك ونحن من المناضلين، فكيف يكون الحال ونحن من السياسيين؟

وهنا زفر فهد زفرة طويلة، ثم قال موجّهاً حديثه إلى بقية الرفاق.

ـ هذه هي آفة المثقفين... إنهم لا يصلحون للنضال.

ثم موجهاً حديثه لهشام بغضب، وقد جحظت عيناه واحمرّتا بشدة، وكانت السيجارة ترتجف بين أصابعه:

ـ كثرة النقاش والجدل ليست جيدة في العمل التنظيمي.

وأراد هشام أن يقول شيئاً، إلا أن فهد أوقفه بحدّة بإشارة من يده وهو يقول بعجل وقد أخذ الرذاذ يتطاير من فيه:

ـ يجب أن تعرف يا رفيق أنك لست في ديوانية... التنفيذ في التنظيم هو المهم وليس النقاش. لقد ناقشنا كل شيء في السابق وجاء دور التنفيذ.

ثم أخذ نفساً عميقاً من سيجارته وقال:

ـ ومن أجل إثبات التزامك بالحزب وقراراته، سوف تقوم أنت بالذات بتوزيع منشور الاتحاد في المدرسة...

وفغر هشام فاه، وانتابته رجفة سريعة، وأحسّ بالألم يغزو معدته بعنف، وبقي ساكناً غير قادر على الكلام، فيما كان فهد ينظر إليه بثبات وقد تركّزت عيناه عليه، وكانت ابتسامة غامضة ترتسم على فم حسن

الصباح، في الوقت الذي كان فيه حديجان وأبو ذر ينظران إلى هشام دون تعبير أو تعليق.

ـ غداً. . .

قال فهد:

ـ غداً سوف يستدعيك الرفيق خالد ويسلّمك مظروفاً فيه المنشورات، وعليك بتوزيعها في طاولات الطلبة. هذا أمر تنظيمي. مفهوم. . .

ولم يحر هشام جواباً، إذ بقي ساكناً والخوف يسيطر عليه تماماً، فهو لم يتصوّر أن يقوم هو نفسه بتوزيع منشورات. لقد كانت المسألة لا تتجاوز عنده حضور الجلسات والنقاش، أما توزيع منشورات. . . وانتابته الرجفة مرة أخرى. وانتهت الجلسة دون أن يعي منها هشام حرفاً واحداً.

وعلى الساحل، حين التقى بمرزوق وزكي، كان واضح القلق والخوف، فيما كانا يطمئنانه أن المسألة في غاية البساطة ولا تستوجب كل ذلك القلق والخوف، إلا أنه كان يردّد: «لم أدخل التنظيم لأوزع منشورات. . . منشورات لا أؤمن حتى بما فيها»، وكأن ما قاله أصاب شيئاً داخل مرزوق وزكي. فقد سرح مرزوق بعيداً وهو يراقب انعكاس قرص الشمس الأحمر الكبير وهو ينحدر نحو مياه الخليج ويقول وكأنه يحدّث نفسه: «كلنا كذلك يا صاحبي. . . كلنا كذلك»، ثم بعد صمت وجيز، «أنا أكره الأميركان. . . لقد تعلّمت كره الأميركان من أبي الذي يعاني من الظلم في أرامكو. . . ولأجل ذلك دخلت التنظيم»، ثم وهو يضحك بمرارة: «أنا أحب جمال عبد الناصر. وكذلك والدي. فهل انتهى بي المطاف أن أناضل ضدّه؟»، وأخذ يضحك بشدة، فيما كان زكي ينظر

إليه بإنكسار وهو يقول بهدوء وصوت خافت: «لقد كنت دائماً ضدّ الطبقية التي كنت ألمسها في قريتنا... لقد كان والدي نخلاوياً ينهض من الفجر ليعمل في المزرعة حتى آخر النهار، وعندما يطيب الثمر، كان يأخذ معظمه إلى السيد، ولا يبقى لنا إلا ما لا يصلح للسيد... أفضل الرطب واللوز والرويد والخضرة تذهب هناك»، ثم صمت زكي لفترة قبل أن يقول وهو يبتسم بمرارة: «لا يهمني البعث أو جمال أو ليبيا... ما يهمني هو العدل. لأجل ذلك دخلت التنظيم. والظاهر أنني أخطأت الطريق...»، وساد الصمت بين الثلاثة، وأخذوا يراقبون قرص الشمس وهو ينتحر في مياه الخليج، التي أصبحت بلون الدم لدقائق، ثم بدأ زحف فلول الظلام.

ـ ٤٢ ـ

«تتكون الرابطة الأيونية بين ذرتين نتيجة فقدان إحدى الذرتين إلكتروناً أو أكثر من ألكترونات التكافؤ فيها ولاكتساب الذرة الأخرى لألكترون أو أكثر في مجال التكافؤ فيها...»، كان الأستاذ وصفي يشرح درس الكيمياء، عندما فتح الباب فجأة وأطلّ منه رأس المراقب راشد عبد الجبار، ببسمته الواسعة المبالغ فيها، وشاربه الضخم، مستأذناً الأستاذ في استدعاء أحد الطلبة. توقف الأستاذ على مضض وهو ينظر إلى ساعته، فلم يبقَ من وقت الدرس إلا عشر دقائق تقريباً. وعرف هشام أنه هو المطلوب، وعادت إليه الرعشة وألم المعدة. نظر راشد إلى الفصل ثم نادى: «هشام إبراهيم العابر... مطلوب في الإدارة.»، ونهض هشام يجرّ رجليه بتثاقل، حيث مرّ بالأستاذ مستأذناً الذي تساءل

بتعجب: «ما حكايتك مع الإدارة يا هشام؟...»، الذي لوّح بيديه في الهواء، ومطّ شفتيه، ورفع حاجبيه عالياً دون أن يتفوّه بأي كلمة، ودون أن يتوقف عن السير. وفي الممر الخالي من الطلبة، أخرج راشد مظروفاً كبيراً من مظاريف المدرسة ودفعه بسرعة إلى هشام وهو يقول بعجل: «التوزيع خلال الفسحة، في كل درج منشور...»، وانطلق بسرعة إلى الإدارة. استلم هشام المظروف والرعشة تعتري كل جسده، ودسّه في صدره بين الفانيلة الداخلية واللحم مباشرة، وعاد أدراجه نحو الفصل وهو يحسّ بدوار شديد، والعرق ينساب بشدة من كل أجزاء جسمه.

عندما فتح باب الفصل، كان الجرس يقرع إيذاناً بانتهاء الحصة وبدء الفسحة، وكان الأستاذ وصفي يلملم أوراقه ويحشو بها حقيبته استعداداً للمغادرة، فيما كان الطلبة يتزاحمون عند الباب وقد علت جلبتهم وضوضائهم. بقي خارج الفصل لا يتحرك حتى خرج معظم الطلاب، ثم مرّ به الأستاذ الذي ابتسم له بصفاء وحاول هشام أن يبتسم بدوره، ولكنه لم يستطع إلا أن يغتصب شيئاً أشبه بالابتسامة، ولكن كان من الواضح أنها ليست ابتسامة. ثم مرّ به منصور وهو يبتسم بدوره، ولكن هشام نظر إليه دون مبالاة وهو يحسّ بالغثيان يجتاحه حيث دلف الفصل وكاد يصطدم بعدنان، آخر الخارجين. اعتذر لعدنان عن عدم قدرته على مرافقته لتناول الطعام سوياً، بحجة الصداع وأنه يفضل أن يرتاح قليلاً في الفصل قبل الحصة التالية. حاول عدنان أن يعرف لماذا طلبته الإدارة، ولكنه صرفه بسرعة بحجة الصداع وعدم القدرة على الحديث، واعداً إياه بملاقاته في مكانهما المعهود بعد أن يرتاح قليلاً.

وخلت الفصول من كل الطلاب، وأخذ قلبه يدقّ بعنف ووتيرة يحسّ بها في رأسه مباشرة. إنه يشعر بالرعب يكاد يشلّه، فهو مقبل على

عمل مصيره السجن لا محالة فيما لو اكتشف أمره. وكان يشعر بشيء من القرف أيضاً وهو يعلم أن ما في المنشور مجرد خداع ونفاق لا يعبّر عن الموقف الحقيقي للتنظيم الذي يحتويه المنشور الآخر. وأخيراً حاول تمالك أعصابه، وأخرج المظروف من صدره وفتحه بيد مرتعشة في غاية البلل. كان الظروف يحتوي على مجموعة من الأوراق الرقيقة الشفافة، مطبوعة بحبر أزرق رديء، ومسحوبة بالاستنسل. نهض وفتح درجه أولاً ووضع فيه منشوراً، ثم درج عدنان فمنصور حتى أكمل بقية الأدراج. وخرج من الفصل قاصداً بقية الفصول، وهو يتلفت بعنف وسرعة في كافة الاتجاهات، ونبضات قلبه تزداد سرعة والغثيان يكاد يدفعه للقيء. وفتح أول درج في الفصل المجاور ووضع فيه منشوراً، ثم التالي حتى أكمل بقية الفصل. وعندما اتجه للفصل التالي، خانته أعصابه ولم يعد يستطيع تمالك نفسه، فقد أخذت يداه ترتجفان بشدة، والعرق ينساب غزيراً، والدوّار يكاد يفقده توازنه ووعيه، وبرودة غريبة تجتاح جسده رغم العرق المنساب وحرارة الجو والرطوبة الخانقة. أخذ مجموعة من المنشورات وألقاها كيفما اتّفق في سماء الفصل، فتناثرت في كل اتجاه. وفعل الشيء نفسه في بقية الفصول، حتى إذا ما تخلص من آخر مجموعة من المنشورات، أحسّ براحة شديدة وكأن حملاً ثقيلاً انزاح عن كاهله. وألقى بالمظروف في أقرب برميل زبالة صادفه، وانطلق إلى الدرج المؤدي إلى الساحة. وبينما هو يضع قدمه على أول درجة، التفت لفتة أخيرة وأصابه رعب شديد. لقد كان هناك شخص يخرج من الحمام الواقع في آخر الممر، قريباً من الإدارة. وأحس كأن أحدهم يمسك بمعدته بقوة ويعصرها بعنف... لا بدّ أن أحدهم رآه... لا بدّ أن أحدهم كان يتجسّس عليه... وتجسّد أمامه طيف أمه وهي تبكي خلف

قضبان فولاذية يعلوها الصدء، وكاد أن يسقط من أعلى الدرج، ولكنه تمالك نفسه وأسرع الخطى هابطاً، ثم اختبأ تحت الدرج وهو ينظر إلى الأعلى... لا بد أن يعرف من الجاسوس. ولم يطل انتظاره، فقد سمع بعد قليل صوت ارتطام شبشب بمؤخرة قدم أحدهم... كان الصوت يدنو أكثر فأكثر، وهو يحاول أن يختفي تماماً، حتى ظهر الشخص الذي كان يلتفت بعصبية في كل اتّجاه، ثم أخذ طريقه على عجل إلى الساحة. وأحسّ هشام بقرف وغضب وغثيان، حلّ محل الرعب عندما تبين معالم وجه الجاسوس... لقد كان الرفيق حسن الصباح... موافق الميجاري.

عندما وصل إلى حيث عدنان، كان قد هدأ قليلاً، وكان عدنان قد أنهى طعامه وقد وضع طعام صاحبه وزجاجة كوكاكولا جانباً. أخذ هشام يمضع ساندويش الجبنة بالجام، ويشرب الكولا بآلية ودون إحساس بالطعم حقيقة، وهو ينظر من بعيد إلى موافق الذي كان يضحك مع أحد الطلبة وينظر إليه بنظرات خالها هشام غريبة.

ـ ٤٣ ـ

لم يثر اكتشاف الطلبة للمنشورات أي ردّ فعل غير عادي، فقد كان وجود المنشورات شيئاً عادياً تلك الأيام، مثل وجود التنظيمات الكثيرة في كل مكان. فهو نفسه، وقبل أن ينضمّ للحزب، قرأ منشورات «لجبهة التحرّر الوطني»، و «اتحاد شعب الجزيرة»، و «الجبهة الديموقراطية»، التي اتّهم بتوزيع منشورات لها عندما استدعاه المدير آخر مرة. ردّة الفعل القوية جاءت من الإدارة التي وجدت نفسها في حال لا تحسد عليها، خاصة بعد أن أصبحت الأجهزة إياها طرفاً في الموضوع، وتأنيب المدير

على عدم قدرته على ضبط المدرسة بخطاب رسمي شديد اللهجة، وذلك كما أخبره راشد عبد الجبار بعد ذلك بفترة، وهو في غاية الاغتباط والبهجة.

وأخذ المدير يستدعي الكثير من الطلبة إلى مكتبه، خاصة أولئك النشطين في الصحف الحائطية والجمعيات اللاصفية، ولكنه لم يستدعِ هشام. لقد أوقف نشاطه في الصحف الحائطية منذ زمن، ولا يشارك إلاّ في جمعية التاريخ لماماً، وذلك وفاءً لذكرى أستاذ كان متعلّقاً به. كان خائفاً من الاستدعاء، فهو مذنب هذه المرة، ولا يدري كيف يواجه المدير هذه المرة إذ قد تخونه أعصابه ويبدي ما يمكن أن يستدلّ به على ضلوعه في المسألة. ولكن الأيام مرّت دون أن يُستدعى، فأحسّ بالراحة مع كل يوم يمرّ، وإن بقي القلق ملازماً له، خاصة عندما أخبره راشد أنهم جنّدوا عدداً من العيون بين الطلبة، فقاطع حتى اجتماعات جمعية التاريخ.

في اجتماع الخلية الأول بعد توزيع المنشورات، وبّخه فهد على طريقة توزيعه لها، ولم يفاجأ بذلك بعد أن رأى حسن الصباح وهو يتجسّس عليه ذلك اليوم، ولكنه حاول الدفاع عن نفسه قائلاً:

ـ وما الفرق بين أن توضع في الأدراج أو تنثر في الهواء... أليس المهمّ أن تصل إلى أيدي الجماهير وتخبرهم بالحقيقة؟!

قال هشام الكلمات الأخيرة بلهجة لم يستطع أن يخفي رنّة السخرية فيها، رغم محاولته ذلك، فنظر إليه فهد غاضباً وهو يقول:

ـ لقد أُمرت بشيء محدّد، وطريقة محدّدة، وعليك التنفيذ كما أُمرت لا باجتهادك... وأنا أحذّرك لآخرة مرة من الجدل فيما تُؤمر...

هذه المرة سماح لأنها أول مرة توزّع فيها منشوراً، أمّا بعد ذلك، فإنك تعرّض نفسك للعقوبات التنظيمية. . .

قال فهد ذلك وهو يهزّ سبابته في الهواء بشدة، ثم أشعل سيجارة أخذ يمتصّها باضطراب واضح، فيما اعترى الخوف هشام فعلاً وأدرك لأول مرة أن المسألة أبعد من النقاش والمبادىء وكل ما كان يحلم به. ورغم الخوف والرهبة اللتين بعثهما تهديد فهد في نفسه، إلا أنه استجمع شجاعته وقال:

ـ ولكن يا رفيق فهد. . . من أدراك بطريقة توزيعي للمنشورات؟

ولأول مرة منذ بداية الجلسة يبتسم فهد بزهو وهو يقول:

ـ لنا عيوننا. . . أم تعتقد أن المسألة فارطة!

وصمت هشام وهو يحدّث نفسه قائلاً: «لكم عيون ولهم عيون، وكلّها عيون في عيون»، ولا يدري لماذا طاف بخاطره ذلك المثل الشائع مرة أخرى: «كالمستجير من الرمضاء بالنار. . .»، وهو ينظر إلى حسن الصباح وقد رسم نصف ابتسامة على شفتيه، فيما كان حسن الصباح منكساً رأسه وكأنه يتابع نملة كانت تحمل ذرّة من السكر بصعوبة على البساط المتهالك.

ـ ٤٤ ـ

عندما التقى بمرزوق وزكي ذلك اليوم على الساحل، لم يستطع أن يضبط انفعالاته التي انفجرت دون قيد أو حذر. انفجر معبّراً عن كل شيء في داخله، غير آبه بأي شيء. أخبرهم بحكاية حسن الصباح

وكيف رآه منسلاً من الحمام بعد توزيع المنشورات. أخبرهم أنه أصبح يكره هذا التنظيم الذي لا يختلف عن أيّة حكومة وأجهزتها، الحكومة التي يقولون إنهم يناضلون ضدّها. أخبرهم أنه ضاق ذرعاً بحكاية «نفّذ ثم ناقش» عندما انفجر وهو يقول: «ما فائدة النقاش بعد أن يتمّ التنفيذ؟... ما فائدة الوقاية بعد أن يستشري المرض؟ وحتى بعد التنفيذ لا نقاش أيضاً، بل هو نفّذ ثم نفّذ... لسنا إلا مجموعة أدوات لا أكثر ولا أقل»، ثم أخذ يسخر بمرارة وألم من حكاية «النضال» وترديده بمناسبة وبلا مناسبة، «ما هو النضال؟»، كان يردّد بألم دفين، «ولأي شيء نناضل؟... كنتُ أعتقد أن النضال هو من أجل مبادىء وغايات سامية، ولكنني أكتشف يوماً بعد يوم أننا نناضل من أجل أن يأتي أشخاص مكان آخرين. فما الفرق؟... ولِمَ لا يبقى ذات الأشخاص في مكانهم طالما أن المسألة سيان؟... نخاف من الأجهزة إياها ولا ندري أننا أصبحنا نعمل لأجهزة أخرى، وكلّها عيون في عيون... هذه سوداء وتلك زرقاء وأخرى عسلية... ولكنها في النهاية عيون»، ثم صمت قليلاً فيما كان مرزوق وزكي يستمعان بهدوء ودون تعليق، ثم انفجر مجدّداً وهو يقول: «لقد أصبحت كذاباً ومنافقاً محترفاً باسم النضال... إذا كان هذا هو النضال فأنا لا أريده... لا أريد»، وصمت الجميع، وأخذ هشام يمسح نظارته بطرف ثوبه وكل جسده يرتعش بشدّة، وقد اختلط عرقه برطوبة البحر فأخذ جبينه الواسع يلمع تحت الخيوط الأخيرة من أشعة الشمس.

أحسّ هشام براحة كبيرة بعد أن أفضى بما يعتمل في داخله، فملأ رئتيه بهواء البحر الرطب الملوّث برائحة السمك الميت وبراز البيوت، ولكنه كان لذيذاً رغم كل شيء. ثم أحسّ بالقلق مما بدر منه، فهو لا

يعرف هذين الشخصين إلاّ من فترة وجيزة، فما يدريه ما يمكن أن يفعلا. لقد غيّر التنظيم أخلاق صديقه عدنان، وحوّل حسن الصباح إلى جاسوس حقير، وجعله هو نفسه يكتب التقارير، فماذا يكون قد فعل بهذين الرفيقين؟ وحاول أن يجد له مخرجاً، فقال:

ـ أرجو المعذرة... فقد كان لا بدّ لي من أن أقول شيئاً أنفّس به عن نفسي، ولا أجد غيركما أستطيع أن أفعل معه ذلك.

وابتسم الرفيقان، فيما قال مرزوق وهو يلوّح بيده في الهواء:

ـ لا عليك... فأنا نفسي أحمل الكثير من المرارة... لا عليك.

ـ إذاً لماذا لا نترك التنظيم؟

أفلتت هذه الجملة من فم هشام، ثم ندم عليها بعد ذلك وحاول تلطيفها قائلاً:

ـ أقصد... لِمَ لا نبحث عن حل... أي حل... نحن لا نستطيع أن نبقى بهذا الوضع...

ما زالت بذور الشك موجودة، فقد علّمه التنظيم «فضيلة» الشك، رغم أنه قبل ذلك كان يفترض حسن النية في أيّ أحد، ولم يصادف في حياته ما يمكن أن يغيّر من هذه المسلمة التي عاش حياته كلها على هداها، حتى أصبح مناضلاً، فتغيّرت أشياء كثيرة في حياته وبشكل غير محسوس أكثر الأحيان. ولكن الغريب أنه لم يشعر بودّ تجاه حسن الصباح وفهد، منذ اللحظة الأولى التي قابل فيها الجميع. أتكون العلاقة بين الناس مثل العلاقة بين العناصر الكيميائية والفيزيائية التي يدرّسها الأستاذ وصفي والأستاذ محمود؟ هناك عناصر متنافرة وأخرى متجاذبة، وهناك عناصر قابلة للاتحاد وأخرى غير قابلة، فهل الناس مثل هذه العناصر؟

وهل يمكن أن يفسّر ذلك حكاية الحب من أول نظرة التي يراها في الأفلام ويقرأها في روايات إحسان عبد القدّوس ويوسف السباعي؟

ـ قرار غير حكيم. . .

قال زكي تعليقاً على كلام هشام:

ـ أنت لا تدري ماذا سيفعلون بك لو تركت التنظيم. . . هل تعتقد أنهم سيتركونك هكذا وقد علمت عنهم وعن أسرارهم؟! يجب أن نستمر. . . يجب أن نستمر حتى يقضي الله أمراً كان مفعولاً.

غريب. . . هذه هي المرة الأولى التي يسمع فيها إسم الله منذ أن دخل الحزب. إنه يسمعه كثيراً في كل مكان، إلاّ في التنظيم. وأصابه رعب شديد من تعليق زكي، فماذا فعلاً يمكن أن يفعلوا لو قرّر ترك التنظيم؟ ولم يرد التفكير أكثر في الموضوع، فنهض مودعاً رفيقيه، بعد أن ماتت الشمس في مياه الخليج، وطوال الطريق إلى المنزل كان شيء في داخله يردّد دون إرادة منه: «حتى يقضي الله أمراً كان مفعولاً. . . حتى يقضي الله أمراً كان مفعولاً».

ـ ٤٥ ـ

أصبح التنظيم جزءاً من حياته الروتينية. . . يذهب إلى اجتماعات الخلية دون حماس، لا يناقش ويردّد الشعار بتلقائية شديدة عند البداية والنهاية، دون أي انفعال أو مشاعر أو إيمان. وقد أراحوه كثيراً في الآونة الأخيرة، فلم يطلب منه أي عمل، سواء كتابة تقارير أو توزيع منشورات، فقد أصبح حسن الصباح هو المعتمد عليه في هذا المجال بناءً على قرار من القيادة. وبعد فترة قصيرة لم يعد حسن الصباح يحضر

جلساتهم إذ انتقل إلى خلية أخرى في مدينة أخرى، كما أفهمهم الرفيق فهد. ولكن ذلك لم يكن حقيقياً، فما زال موافق طالباً في المدرسة الثانوية وكان يراه بعض الأحيان في الساحة، ولذلك لا بدّ أنه ارتقى في السلم التنظيمي لإخلاصه وإيمانه، هكذا فسّر هشام انتقال الرفيق حسن الصباح. وحلّ محله رفيق جديد كان مفاجأة لهشام إذ لم يكن غير عدنان صاحبه، أو الرفيق «رنوار». لا يدري هشام متى أصبح عدنان حزبياً ولا كيف، رغم أنهما سوياً كل يوم، ولذلك كانت مفاجأته كبيرة ذلك اليوم عندما دخل منزل فهد ووجد عدنان جالساً هناك. وعندما قام فهد بتعريفهم بالرفيق الجديد، كان ينظر إلى هشام وعلى فمه ظلّ ابتسامة كان يعتقد أنه يعرف معناها. وأسرّ هشام هذه المفاجأة في نفسه وكره عدنان لحظتها، وأحسّ أن شيئاً قد انكسر في داخله لا يعرف ما هو.

وتوطّدت علاقته مع مرور الأيام بمرزوق وزكي، إذ أصبح يزورهما في الخبر أو يزورانه في الدمام حيث يقضون الوقت على الساحل أو في أحد مقاهي شارع الحب أو مقاهي الأزقة المتفرّعة من شارع الأمير خالد في الخبر. ودعاهما مرة إلى منزل عبد الكريم وعرّفهما على أصدقائه، ومنهم عدنان، فقضوا وقتاً ممتعاً هناك، وأعجب بهما أصحابه ودعاهما عبد الكريم إلى معاودة الزيارة، فوعدا خيراً ولكنهما لم يكرّراها إلا مرة واحدة وكان ذلك آخر عهد أصحابه بهما، فقد حدثت أمور جعلتهما لا يكرّران الزيارة وجعلت هشام يمقت التنظيم بشكل كامل، ويمقت عدنان لدرجة الاحتقار الكامل. وكان أصحابه يسألون عنهما، ولكنهما نسيا مع مرور الوقت وعادت الشلة كما كانت... ثابتة لا يعكّر انسجامها أحد.

خلال هذه الفترة، وقعت حادثتان كان لهما أشدّ الأثر على هشام وأعمق الأثر في نفسه، فبغض التنظيم لدرجة أنه أخذ يفكّر جدياً في

تركه وليكن ما يكون، إذ ليس في الإمكان أسوأ مما كان، كما كان يحدّث نفسه. فذات يوم كان يقف في الممر المطلّ على ساحة المدرسة وقت الفسحة، وهو يتابع الطلاب دون هدف. لم تكن لديه رغبة في الطعام أو مرافقة عدنان أو أيّ أحد. كان يريد الاختلاء بنفسه هذه الأيام أكثر من أي وقت مضى. وفيما هو غارق في أعماق ذاته، إذ به يشعر بيد تربّت على كتفه وصوت مألوف يقول: «العيال ماتعشوا البارح...»، ونظر وراءه فشاهد منصور يقف خلفه وهو يبتسم بصرامة كعادته. ابتسم له وقال: «أبداً... ضيقة صدر... الامتحانات على الأبواب كما تعلم»، فهزّ منصور رأسه وهو يقول: «أرجو ألاّ أكون قد أزعجتك وقطعت حبل أفكارك؟»، فقال هشام بآلية: «أبداً... أبداً»، ثم مردفاً وهو ينظر إلى منصور مباشرة: «أي ريح...»، أراد أن يقول «طيبة» ولكنه عدل عن ذلك في آخر لحظة وقال: «أي ريح أتت بك... أليس من المفروض ألا نتقابل؟»، «هو كذلك...» قال منصور، «ولكني لم أستطع مقاومة الرغبة في التحدّث إليك، خاصة وأنا أراك وحيداً والمكان خال... صدقني يا هشام... أنا أكنّ لك الكثير من الودّ والحب»، قال منظور ذلك وهو ينظر مباشرة في عيني هشام، وكان التأثّر والانفعال واضحين على وجهه الصارم. واضطرب هشام قليلاً قبل أن يقول: «وأنا أكن لك كل تقدير...»، ثم محدّثاً نفسه: «بل أنا أكرهك... ماذا يريد هذا المنصور، وما هي حكاية هذا الحب الذي يتحدّث عنه؟»، وأخذ طيف من شكوك يراوده حول مقاصد منصور الحقيقية، وحامت في ذهنه نصائح أمه بعدم مرافقة من هم أكبر منه سنّاً، ونصائح أبيه في عدم الاختلاط بالرافضة والبعد عنهم، فهم غير موثوق بهم في التعامل مع السنّة، ولكنه أزاح كل هذه الأفكار التي انسلّت دون إرادة منه، والتي

يعتبرها من الأوهام وهو الشاب المثقف، وهو يعرف زكي ويحبّه، ويعلم أنه شيعي، ولكن شتّان بينه وبين وجه القرد هذا. ووجّه حديثه إلى منصور قائلاً: «هل بدأت المذاكرة؟... ليس بيننا وبين الامتحانات إلاّ أقلّ من شهرين»، مجرد سؤال لإبعاد تلك الأفكار السوداء من رأسه. أمّا منصور فقد استند على سور الممر وأخذ ينظر إلى البعيد، وقد شبك كفيه بقوّة وهو يقول: «امتحان!... أمامنا امتحان مصيري أصعب... إنه امتحان الثورة التي لا ريب فيها. في تلك الثورة سوف يكرم البعض ويهان البعض»، ثم بعد لحظة صمت: «غداً... غداً سوف تمتد المشانق من جدة إلى الدمام. من الساحل إلى الساحل»، قال منصور هذه الكلمات ولوّح بقبضته في الهواء وقد ازداد وجهه صرامة على صرامة. أحسّ هشام بقشعريرة تعتريه من كلمات منصور، وأخذ ينظر حوله خشية أن يكون أحدهم يسترقّ السمع، ثم نظر إلى منصور قائلاً:

ـ مشانق؟!... ولماذا كل تلك المشانق من الساحل إلى الساحل؟

وبقي منصور ينظر إلى الأفق وهو يقول بحزم:

ـ لأعداء الوطن والأمة والإنسان...

ـ وهل هم بتلك الكثرة؟

ـ لن تعود الأمة قوية منيعة إلا إذا أُبيد نصفها وبقي النصف الآخر... النصف الجيّد. لقد وصلت العفونة إلى القلب، ولا بدّ من البتر كي يستعيد الجسد صحته وعافيته.

وضرب منصور الجدار وهو يقول عبارته الأخيرة، فيما كان هشام مرعوباً بشكل تام وهو ينظر إلى منصور بحيرة وارتباك وخوف، ثم قال:

ـ كلامك مرعب يا منصور... مشانق! دم! أيّ ثورة هذه التي تتحدث عنها؟!

ونظر إليه منصور وقد علت فاه نصف ابتسامة وقال:

ـ ثورة الجماهير الغاضبة... لا ثورة بغير دم. دم غزير.

ـ هذا انتقام وليس ثورة.

ـ سمّه ما شئت... ولكنه ما يجب أن يحدث. وهو ما سيحدث...

وشعر هشام بقشعريرة في الداخل والرعب ما زال مسيطراً عليه وأراد أن يقول شيئاً، إلا أن منصور نظر إليه مباشرة في العين وهو يقول:

ـ مشكلتك يا هشام أنك مثالي... طوباوي. مثقّف وجداني. نحن بحاجة إلى المناضل الذي لا تأسره العواطف.

وابتسم هشام عندما سمع كلمة «مناضل»، وطافت كلمات فهد الأخيرة في ذهنه وهو يقول:

ـ وماذا يبقى من الحياة إذا سلبناها العواطف والأحاسيس والمشاعر... إنها تفقد حرارتها ولذّتها. تفقد الحياة ذاتها ولا تبقى حياة.

ثم وهو يلتقط أنفاسه من فرط الحماس:

ـ ليس هناك شيء في الدنيا يستحق كل هذا العنف والدم الذي تتحدّث عنه... تبيد النصف من أجل نصف آخر!. ومن أدراك أن النصف الذي قضيت عليه هو النصف الفاسد. وبأيّ حق تجعل من نفسك قاضياً وجلاّداً؟! وقد تكتشف أن نصف النصف الذي بقي فاسد

فتقضي عليه حتى لا يبقى أحد من جماهيرك في النهاية... أهذه هي الثورة التي تتحدّث عنها؟ هذا هوس وليس ثورة.

وضحك منصور بحبور وهو يسمع هشام، ثم قال وهو يهزّ رأسه:

ـ يا حسافتك يا هشام... يا حسافتك.

ثم وهو يمسح دمعة من عينه بعد أن توقف عن الضحك:

ـ ألم أقل لك أنك طوباوي رغم ادّعائك الماركسية والعلمية. لكل شيء ثمن يا رفيق... وثمن الثورة هو الدم. ألم تقرأ فولتير وهو يقول: «لن ينجو العالم حتى يشنق آخر بورجوازي بأمعاء آخر قسيس». هذه هي الثورة يا صاحبي الحالم...

وابتسم هشام بوجه باهت وهو يقول:

ـ فولتير فيلسوف ساخر... وقد قال هذه الكلمات من باب السخرية والنقد، ولكنه لا يعنيه حرفياً.

ـ الحياة صراع... صراع طبقات. أم أنك لا تؤمن بذلك رغم ماركسيتك؟

ـ صراع طبقات نعم. ليس دماء طبقات. أعتقد أنك أنت من لم يفهم ماركس...

وغضب منصور لتعريض هشام بثقافته وقال غاضباً:

ـ لم أفهم ماركس!... لقد قرأت كل كتابات لينين وستالين...

ـ وهذه هي المشكلة.

ـ ماذا؟...

ـ لا شيء... لا شيء.

وفي هذه اللحظة كان الجرس يدقّ معلناً نهاية الفسحة، وظهر أول الطلاب العائدين من الساحة عند أعلى الدرج، فتحرّك منصور مغادراً وهو يقول بسرعة وبعجل ملوّحاً لهشام بيده:

ـ سيأتي ذلك اليوم... وسوف ترى. وسأذكّرك بذلك.

ـ هذا إذا كنت من النصف الطيّب...

قال هشام، فيما كان منصور يبتعد غير سامع تعليقه، واتّجه إلى الفصل ومنصور يهبط درجات الدرج، إذ يبدو أنه لن يحضر الحصة التالية، وكان الأستاذ ناجي قد دخل الفصل وبدأ في شرح درس اللغة العربية لذلك اليوم عندما استأذنه هشام في الدخول.

كان وقع حديثه مع منصور شديداً على نفسه، فقد أحسّ بالهلع والنفور من كل ما يمتّ إلى التنظيم وفكره بصلة. وبقيت علاقته الحميمية بالماركسية ولكنه كان يعتقد أن هناك بوناً شاسعاً بين الماركسية كما يجدها في «بؤس الفلسفة» و «مقدمة في نقد الاقتصاد السياسي»، و «الأيديولوجيا الألمانية»، وبين ما يفعلونه ويفكّرون فيه في الحزب. غير أن ما أصابه بالنفور أكثر هو تلك الحادثة التي بقيت محفورة في ذاته لوقت طويل قبل أن ينساها، وربما لن ينساها ولكنها بقيت مركونة في زاوية ما من زوايا داخله المجهول. فقد كان يذاكر ذات يوم هو وعدنان، كعادتهما كل عام قبل الامتحانات بفترة، ويختلس بعض اللحظات ليقرأ فيها رواية نجيب محفوظ الجديدة «أولاد حارتنا»، ويعيش لحظات إثارة ولذّة مع الجبلاوي وإدريس وأدهم وجبل ورفاعة وقاسم وعرفة. وفي لحظة استراحة لشرب الشاي، كان غارقاً في الرواية وكان عدنان يقلب الكتب في المكتبة الصغيرة. وفيما هو يسحب أحد الكتب، سقطت ورقة

رقيقة مطوية ومدسوسة بين صفحات ذلك الكتاب، فتحها عدنان وأخذ في قراءتها. وبعد أن انتهى، اتّجه إلى هشام، الذي كان جالساً على الأرض يتابع معركة الجبل بين قاسم والفتوة لهيطة، وهو يمد يده بالورقة قائلاً:

ـ هشام... ما هذه؟

ورفع هشام نظره عن الرواية بتثاقل وتبرّم ونظر إلى الورقة الممدودة وهو يردّد بروتينية: «خير... خير إن شاء الله»، وعرف فيها أحد منشورات الحزب، فعاد إلى الرواية وهو يقول بلا اكتراث:

ـ أنت تعلم ما هي...

وأعاد عدنان طيّ الورقة، ثم وضعها على طاولة الدرس، وبقي واقفاً قبالة هشام، ثم قال:

ـ ولكنك تعرف الأوامر... يجب ألاّ نحتفظ بمثل هذه الأشياء.

وأغلق هشام الكتاب بعصبية وهو يقول بغضب وسخرية معاً:

ـ يا سلام... وهل كانت الأوامر شريعة موسى أو محمد! ثم بأيّ حق تحاسبني... خليك في حالك، ترى اللي فيني مكفيني.

وتلعثم عدنان وبدأ العرق يبزّ من جوانب أنفه وهو يقول:

ـ نحن أصدقاء. ورفاق. لقد أحببت تنبيهك لا أكثر...

ونهض هشام بسرعة وجلس على طاولة الدرس ثم تناول كتاب «الجيولوجيا»، وقال بحدّة وصوت مرتفع:

ـ يا أخي طز فيك وفي الأوامر وفي الحزب... حلّ عن سماي.

وفتح الكتاب، ثم أخذ ينظر نحو الباب الذي اتجه إليه وفتحه حيث

ألقى نظرة إلى الداخل، فتأكّد أن أمه في الغرفة الأخرى أمام التلفزيون الذي كان يصله صوته، فاطمأنّ من أن أحداً لم يسمعهما، فعاد إلى الكرسي وأخذ يقلّب صفحات الكتاب، فيما كان عدنان قد انزوى على الكرسي المقابل وفتح كتاب «الأحياء» واستغرق في المذاكرة، أو هكذا كان بادياً، وكان الارتباك واضحاً عليه فيما ازدادت حبيبات العرق الخارجة من جوانب أنفه. وأخذ هشام ينظر إليه بإمعان وهو يعلم أنه ينظر إليه ولكنه يتصنّع الاستغراق في المذاكرة. أحسّ في تلك اللحظة أنه يكره عدنان جداً ويشمئز منه بشكل غريب. إنه أضعف مماكان يتصوّر، وبقدر ما كان ذلك يسرّه، إلا أنه شعر بالاحتقار والشفقة في آن لذلك الضعف. وهدأت أعصابه قليلاً، فتناول المنشور ومزّقه قطعاً صغيرة ألقى بها في سلّة المهملات إلى جانبه وهو يقول بصوت هادىء ويحاول رسم بسمة على شفتيه:

ـ ها قد تخلّصنا مما يقلقك. . . هل هناك أوامر أخرى؟

قال العبارة الأخيرة بصوت كانت السخرية واضحة فيه، ثم صبّ لنفسه بيّالة شاي من الزمزمية بجانبه، فيما كان عدنان يقول، دون أن يحوّل نظره عن الكتاب، وبصوت مضطرب بعض الشيء:

ـ كان من المفروض أن تحرقها. . . هكذا هي الأوامر.

فنهض هشام من كرسيه مجدداً، وقد تناثرت قطرات الشاي على ثوبه قبل أن يضع البيالة على الطاولة، وقال بغضب وهو يرتعش:

ـ تبّاً لك يا عدنان. . . هل أنت نعجة؟ كيف لم أعرفك طوال تلك السنوات!. . .

وبدون أي كلام، جمع عدنان كتبه وغادر الغرفة في طريقه إلى

الخارج، دون أن يكلّف هشام نفسه عناء اللّحاق به، بل حتى شعر بالسرور لمغادرته، وعاد إلى لهيطة وقاسم.

في الاجتماع اللاحق للخلية، وبعد أن قارب الاجتماع على الانتهاء، نظر فهد إلى هشام بهدوء وقال:

ـ يا رفيق أبو هريرة... لقد علمت القيادة باستهتارك وإهمالك... كيف تخالف الأوامر وتترك منشوراً في منزلك. نحن نثق بالرفاق ولذلك نحن نأتمنهم على المنشورات التي إما أن توزع أو تحرق.

وساد الصمت لبعض الوقت، أشعل فهد خلاله سيجارة وشرب بيالة شاي دفعة واحدة، فيما كان بقية الرفاق يتابعون بصمت، ثم قال فهد بصوت خال من أي تعبير:

ـ لقد قررت القيادة تجميدك في رتبة «نصير» حتى يثبت انضباطك.

ودون إرادة منه، علت فم هشام ابتسامة قصيرة، ثم لم يلبث أن عاد إلى جهومه بسرعة بعدها، ثم نظر إلى الرفيق رنوار نظرة خاطفة، ثم غرق في الصمت حتى بدأ الجميع في مغادرة المكان واحداً تلو الآخر وكان هو آخرهم.

لم يذهب إلى الساحل ذلك اليوم حيث مرزوق وزكي، بل ذهب إلى البيت مباشرة، وطوال الطريق كان مشتّت الذهن. لم يتحمّل الصدمة... صديقه عدنان يخونه ويشي به؟ إنه لا يتصوّر ذلك وغير قادر على استيعاب الحدث. أن يتجسّس عليه شخص مثل حسن الصباح مسألة مفهومة، إذ لا تربطه به أية رابطة ما عدا رابطة الرفاق التي ضاق ذرعاً بها، أما عدنان... وأحسّ بألم شديد في حلقه ورغبة في البكاء، ولكنه لم يستطع، وبقي الألم عالقاً في تجاويف الحنجرة. وعندما وصل

إلى المنزل، دخل غرفته وأغلق على نفسه الباب دون أن يحيّي أمّه وأباه اللذين كانا يجلسان في غرفة التلفزيون، ودون أن يزعجه أحد، فقد اعتاد والداه على تصرّفاته الغريبة في الفترة الأخيرة، موعزين إياها إلى نزوات الشباب في مثل هذه السن. والتقط رواية لبلزاك حاول أن يغرق في أحداثها، ولكن صورة عدنان لا تريد أن تفارقه، فبقي جالساً على الأرض ينظر إلى الصفحة الأولى من الرواية في حضنه دون أن يقرأ شيئاً...

ـ ٤٦ ـ

عندما كان عند عبد الكريم في اليوم الثاني، جاء عدنان فنهض وغادر المكان بعد مجيئه مباشرة وسط نظرات الاستغراب من بقية «الربع»، ولكنه لم يأبه لذلك أو حتى يبرّره، فقد كان مشمئزاً من عدنان لدرجة تجعله غير قادر على تحمّل وجوده بأي شكلٍ كان. خرج إلى الشارع وأخذ يسير على غير هدى، فلا رغبة لديه في العودة إلى البيت، ولا يعلم ماذا يفعل. وفكّر في نورة... كم يودّ لو كانت بين أحضانه الآن، ولكن كيف؟ كان بودّه لو يستطيع الذهاب إلى منزلها ويطرق الباب ويقول لأمها: «أنا بحاجة إلى نورة... أريد أن أراها...»، ولكن ذلك مستحيل. حتى تلك اللحظات التي كانت تأتيهم فيها باللبن لا يحصل فيها إلا على نظرة عجلى أو بسمة سريعة عند الباب من بعيد إذا سمحت الظروف، فقد أصبحت أمه تستقبل الفتاة وتودعها عند الباب منذ أن تفاجأت بوجودهما وحيدين في المنزل عندما كانت في زيارة للجيران. كانت أمه تثق فيه ثقة مطلقة، ولكن ذلك لم يمنعها من ممارسة رقابتها

الصارمة سدّاً لأي باب قد تأتي منه الريح. وبعد دخوله الحزب، أصبح يتصوّر أمه وقد أصبحت عضواً فيه، لا بدّ أنها كانت ستنجح بتلك المؤهلات التي تحملها، وربما أصبحت عضواً قيادياً أو حتى أميناً عاماً، ثم يبتسم لهذه التخيّلات وتعود صورة أمه إلى خياله كما هي دائماً: الحب الصافي والصرامة القاسية في اتحادٍ لا ينفصم. لم يكن أمامه إلا الرسائل متنفّساً وحيداً يستطيع من خلاله التعبير عن مشاعره وأحاسيسه وحاجته إلى دفء نورة. وخطرت له فكرة... سيكتب لها رسالة ويضرب معها موعداً بعيداً عن الرقابة الصارمة لأمه. وابتهج عندما خطرت بباله هذه الفكرة، وانطلق إلى المنزل وأخذ في كتابة الرسالة. وعندما حان موعد مجيئها ذلك المساء، خرج من المنزل وبقي منتظراً عند الباب، حتى إذا ما رآها مقبلة، ألقى الرسالة على الأرض أمام الباب ودخل بسرعة إلى غرفته. كان واثقاً من أنها سوف تلتقط الرسالة، وأخذ يصيخ السمع، وعندما سمع صوت أمه يودعها بالعبارة المعتادة: «سلمي لي على أمك...»، أدرك أنها قد غادرت وأن الرسالة الآن تنام قريرة العين في صدرها الناهد. وأحسّ بغبطة شديدة ونسي عدنان والحزب وفهد وكل شيء، ولم يبقَ إلاّ نورة وتلك السعادة التي لا يكاد يتحملها قلبه الخافق بشدّة. وأخذ يقلّب الكتب في مكتبته الصغيرة، ثم سحب رواية «في بيتنا رجل» لإحسان عبد القدوس، وأخذ يقرأها للمرة العاشرة ربما، ولكن كان إبراهيم هو هشام هذه المرة، ونوال هي نورة، تعدّدت الأسماء والحب واحد...

في اليوم التالي انتظرها عند الباب قبل أن تأتي، وعندما أقبلت أسقطت ورقة من يدها، التقطها بسرعة ثم انتظر حتى خرجت وبقي منتظراً لبعض الوقت، ثم دلف بسرعة إلى غرفته وأخذ يقرأ بلهفة:

«حبيبي هشام، أنا في أشدّ الشوق إليك. بودي لو أبقى العمر كله بين يديك. أملأ عيني من وجهك، وأمرغ جسدي على صدرك. أنا أيضاً في أشدّ الشوق للقياك، ولكنك تعلم أنني لا أستطيع الخروج دون إذن أو مكان تعلمه أمي. ولكن لدي فكرة. . . اليوم وبعد أن يعود أبي من صلاة العشاء، سو يجلس قليلاً أمام التلفزيون بانتظار العشاء، وسوف تكون أمي في المطبخ. سوف أبقي باب الحوش مفتوحاً، وسوف أكون بانتظارك. حبيبتك إلى الأبد. . . نورة».

ورفع الرسالة إلى أنفه وأخذ يستنشقها بلذة، وأحس كأنه يشمّ رائحة نورة، وكانت السعادة غامرة يشوبها بعض القلق من المغامرة المقدم عليها هذه الليلة، فلأول مرة سوف يدخل بيتاً دون علم أهله، وكان ذلك مصدر إزعاج داخلي دفين، وخوف في الوقت ذاته من أن يكتشف أمره فتكون الفضيحة التي يعلم أنها قد تقضي على أمه. ولكن رغم كل ذلك، كانت الجائزة المجازف من أجلها كبيرة، إنها نورة وذلك يكفي لتذليل أيّ عائق. كان يحسّ في داخله بتلك اللذة الممزوجة بالخوف والقلق التي تجعلها أشبه شيء بالإثارة، وذلك مثل وجبة «سليق» ممزوجة بالشطة الحارة. . . اللذة والألم معاً، وفي ذلك كل الإثارة.

وفي تلك الليلة ذهب لصلاة العشاء مع الجماعة في المسجد، وذلك على غير العادة، واختار المسجد القريب من بيت نورة الذي يصلّي فيه والدها عادة. لم يكن المسجد مكتظّاً، أفراد قلائل فقط من المنازل المجاورة، ولذلك لم يجد صعوبة في رؤية والد نورة في الصف الأمامي، خلف الإمام مباشرة. ذهب مباشرة وجلس إلى يمينه، بعد أن حرص على أداء ركعتي تحية المسجد، ثم تناول المصحف وأخذ يقرأ أول سورة صادفته في انتظار إقامة الصلاة، وكان والد نورة يتلو بعض

الأدعية والتسبيح أثناء ذلك بصوت فيه غمغمة وغير مفهوم تماماً. وانتهت الصلاة، وتفرّق معظم الحاضرين، وبقي أبو نورة لبعض الوقت يؤدّي ركعتي السنة بتؤدّة، وفعل هشام مثله. وعندما انتهى ونهض في طريقه للخارج، تقدّم منه هشام مبتسماً وهو يقول: «مسّاك الله بالخير أبو محمد... تقبّل الله»، ونظر أبو نورة إلى هذا القادم ورد مبتسماً بدوره: «منّا ومنكم إن شاء الله... كيف حالك يا بني؟»، «بخير أطال الله في عمرك...»، وأحسّ أن الرجل لم يعرفه فقال: «ألم تعرفني يا عم؟... أنا هشام إبن إبراهيم العابر... جيرانكم»، وصاح الرجل: «والنعم... وكيف حال الوالد. عساه بخير. لم أرَه منذ فترة طويلة»، «بخير والحمد لله. مشاغل الحياة يا عم جعلت لا أحد يرى أحداً...»، «معك حق يا بني... الله يحسن خاتمتنا»، وكانا قد اقتربا من منزل نورة في هذه الأثناء، فدعاه أبوها لمشاركته طعام العشاء، ولكنه رفض بلطف متعلّلاً بالامتحانات وضرورة المذاكرة، فأخذ أبو نورة يدعو له بالفلاح والهداية لكل مسلم، وغاب وراء الباب الحديدي، فيما واصل هشام سيره لبعض الوقت حتى تأكد من دخول أبو نورة المنزل وعاد أدراجه بهدوء. كان في الحقيقة يقدّم رجلاً ويؤخّر أخرى، فقد كان يحسّ بوخزات مؤلمة في الداخل، وشيء كالحمل الثقيل يربض على شيء في داخله. هذا الرجل الطيّب يدعو له وهو لا يدري أنه سيكون بعد قليل مع ابنته. وكاد يعود أدراجه إلى المنزل، ولكن صورة نورة تبدّت له، وأحسّ كأنه يشم ريحها، فينظر إلى منزلها ويرى أنه لا يفصله عنها غير هذا الجدار اللعين، فيعود وقلبه يدقّ بعنف والعرق الغزير يتصبّب منه، وليس في ذهنه غير نورة.

وجد الباب مفتوحاً قليلاً، فدفعه بيده المرتعشة، وكاد يطلق ساقيه

للريح عندما أصدر الباب صريراً خفيفاً أحسّ كأن كل الحارة قد سمعته. ولكنه تمالك نفسه ودفع الباب أكثر حتى وقعت عيناه على الحديقة الصغيرة الغارقة في الظلام، وسمع همهمة أهل الدار مختلطة بصوت التلفزيون قادمة من بعيد. تقدّم قليلاً، ثم أغلق الباب وراءه بهدوء، ولم يشعر بعدها إلا بيد قوية تجذبه من يده. كاد أن يغمى عليه أول الأمر من هول المفاجأة، وأيقن بالفضيحة وتبدّى له طيف أمه وهي مسجية على فراش أبيض وقد امتلأت عيناها بالدموع، فأحسّ بالدوار وكاد يسقط في مكانه. ولم يعد إليه رشده إلا عندما سمع صوتاً هامساً يقول: «من هنا... تعال معي»، لقد كانت نورة، فاستغرب تلك القوة التي جذبته بها. تابع نورة، التي كانت ممسكة بيده، حتى وصلا إلى ركن قصيّ من الحديقة يحجبه عن بقية المنزل نخلة قصيرة كانت محملة بشماريخ ثقيلة. وجلست على الأرض وجذبته إلى جانبها، وتماسكت الأيدي المرتعشة وقد غرقت في العرق الممتزج ببعضه صانعاً لزوجة مثيرة. كان لا يزال خائفاً، أما هي فقد كانت ثابتة الجنان بشكل استغربه ودفع الشكوك إلى نفسه، فسألها بصوت متهدّج: «هل أنت واثقة أننا في أمان؟»، فردت بثقة، وصوت هامس ناعم لذيذ كنسمة هواء شمالية في ليلة من ليالي الصيف: «لا عليك يا عيوني... كلهم عند التلفزيون، وأمي في المطبخ». وهدأ قليلاً، ثم مدّ يده إلى وجهها وأخذ يتحسّس وجنتها الطرية الناعمة، ثم أزال الخمار عن رأسها وجذبه إليه، وأخذ يستنشق عبير المشموم في شعرها، فألقت برأسها على صدره، وأنفاسها الثائرة تشعل النار في داخله. ورفع رأسها بهدوء، ثم ألصق شفتيه على شفتيها، وغابا عن كل شيء. ثم فجأة أزاح شفتيه عن شفتيها الرطبتين، وأخذ ينظر إليها وهي مغمضة العينين، ثم قال: «نورة...»، فأجابت وهي لا

تزال مغمضة العينين وقد أراحت رأسها على صدره: «يابعد روح نورة. . .»، «هل أنا أول شخص يأتي هنا. أقصد. . .»، وأزاحت نورة رأسها عن صدره بقوة وبسرعة، وقد اتّسعت عيناها واكتستا بالغضب والألم معاً وهي تقول بحزن: «الحق عليّ اللي حبيتك. . .»، ولفت خمارها حول رأسها وهمّت بالنهوض، إلا أن هشام جذبها من يدها وهو يقول بانكسار وصوت متهدج: «أنا آسف يا نورة. . . أنا آسف. لا أدري ما الذي دفعني إلى ذلك القول. . . أرجو المعذرة»، ثم نظر إليها بعينيه الواسعتين وقد كسا الحزن كل وجهه، فما كان من نورة إلا أن ألقت بنفسها عليه بقوة أسقطت النظارة على الأرض وغابا عن كل شيء من جديد. وامتدّت يد هشام تداعب ذلك الزغب الخفيف على ساقها بلذّة ونشوة، ثم أخذت يده تصعد إلى الأعلى من تحت الفستان، إلا أن نورة أبعدت شفتيها عن شفتيه، وأزاحت يده وهي تقول بهمس: «لا. لا يا هشام. هذا لا يجوز. . .»، وأطاعها وتعانقا وقد أخذ كل واحد منهما يستنشق الآخر بهدوء ولذّة وقد غفت الأعين. بقيا على هذه الحالة لفترة لا يعلمانها، حتى أتى صوت من بعيد منادياً: «نورة. . . يا نورة»، وانتفضت نورة وهي تقول باضطراب: «أمي. . . أمي. . .»، ونهضت على عجل ووضعت الخمار بسرعة وأصلحت فستانها ثم انطلقت، ثم عادت بسرعة وطبعت قبلة سريعة على فم هشام، ثم أخذت تجري إلى المنزل، ومن بعيد كان يسمع همهمة بينها وبين أمها، ثم ساد الهدوء. سار بحذر نحو الباب، وما أن وجد نفسه في الخارج حتى انطلق مهرولاً إلى المنزل، ثم دخل غرفته بسرعة وقلبه يدقّ بشدة، واستلقى على السرير وأحسّ بالأمان أخيراً. أطلّت عليه أمه داعية إياه إلى العشاء، الذي أخّروه من أجله، ولكنه اعتذر بحجة تناوله ساندويش بيض مع

الشلة في الخارج. نظرت إليه أمه بارتياب وهي تقول: «حالك هاليومين مو عاجبني... على أية حال أنت وشأنك»، ثم أغلقت الباب وراءها. آه لو تعلم أمه من أين أتى وماذا كان يفعل... ولكنه أبعد أمه عن خاطره، ولم يبقَ هناك إلا نورة ورائحتها تملأ كيانه كله.

ـ ٤٧ ـ

قرّر أن يترك التنظيم وليكن ما يكون. لم يعد يستطيع الاحتمال، فهذه الحياة لا تناسبه. لم يكن الخوف هذه المرة هو كل الدافع، وإن كان موجوداً دائماً، ولكنه عدم القدرة على الاقتناع بالحياة التنظيمية وما يحدث فيها. قرّر أن يبلغ فهد بقراره في أول اجتماع قادم للخلية، وعزم على عدم التراجع مهما كانت الظروف.

كان عاقد العزم على تقديم «استقالته» عندما اجتمعت الخلية في موعدها الأسبوعي المعتاد كل يوم خميس، ولكن الأخبار التي حملها فهد في تلك الجلسة جعلته ينسى الموضوع، ويعود الرعب كأقوى ما يكون. بدا فهد ساهماً على غير عادته منذ أن دخلوا، وأثناء ترديد الشعار، وبعد أن جلسوا. كان يدخن السيجارة تلو السيجارة وقد أهمل حلاقة ذقنه، وبدا وجهه مثل ليمونة قطيفية قطفت بعد الأوان. وبعد فترة من الصمت كان الرفاق خلالها يتبادلون النظرات المتسائلة، قال فهد بصوت جاف كان الاضطراب واضحاً فيه:

ـ لدي أخبار سيئة أيها الرفاق...

صمت قليلاً، أشعل سيجارة من عقب لا يزال مشتعلاً، فيما كانت الأنظار مسمّرة على وجهه وقد علا التوتر وجوه الجميع المترقبة.

ـ لقد اعتقل بعد الرفاق. . . لقد انكشف التنظيم.

وسحق سيجارته بعنف في صينية الشاي أمامه، وعلا الرعب وجوه الجميع، وارتفعت الأصوات خافتة أولاً ثم أخذت في الارتفاع تدريجياً: «كيف حصل ذلك؟. . . من كشفه؟ أين؟. . . لماذا؟. . .»، فيما كان فهد صامتاً يدخن وهو ينظر للجميع ببلاهة. وأخيراً نظر حديجان إلى فهد، وقد احمرّت عيناه وعلت أنفاسه وهو يقول:

كيف حصل ذلك؟. . . ما هي القصة؟ نريد معرفة كل شيء.

ونظر إليه فهد نظرة طويلة، ثم سحب سيجارة بفمه من العلبة مباشرة، أشعلها ورمى عود الكبريت على الأرض، الذي بقي مشتعلاً لفترة على البساط المتهالك قبل أن يلتقطه حديجان ويطفئه ثم يضعه في الصينية. أرسل فهد الدخان إلى سقف الغرفة وقد فتح فاه على اتّساعه، وقال وهو يتابع الدخان ينتشر في الأرجاء:

ـ القصة طويلة. خيانة. . . مؤامرة. . .

وعلا التوتّر والقلق والترقّب وجوه الجميع وقد انصبّت نظراتها بثبات على وجه فهد، الذي قال وكأنه يتحدّث إلى نفسه:

ـ خيانة. مؤامرة. . . لقد وشى بنا رفيق قيادي سابق. كان انتهازياً وسيّء السلوك ولأجل ذلك طرد من التنظيم. عبد القادر سليحف. هذا القذر. . .

وسحق السيجارة بعنف وهو يقول:

ـ اتصل عبد القادر بالرفيق يعقوب شيخون، وكانا صديقين في الماضي عندما كانا في خلية حزبية واحدة، وأبدى له الأسف عن سلوكه في الماضي وطلب السماح والرجوع إلى التنظيم.

أشعل سيجارة جديدة وقال وهو يبتسم بسخرية:

ـ لعلكم تستغربون ذكري أسماء الرفاق... لا تستغربوا... لقد اعتقل الجميع وأصبحوا معروفين لدى الأجهزة. وليس هناك ما يمكن إخفاؤه.

وصمت فهد لبرهة وهو ينظر إلى السقف ثم إلى الرفاق، وأخيراً يشعل سيجارة ويقول:

ـ المهم... لم يقبل سليحف في الحزب من جديد. وذات مساء، دعى سليحف الرفيق شيخون إلى عشاء في منزله، وقدّم له عرق «صديقي» وأخذ يسأله عن أخبار التنظيم... فأخبره شيخون عن كل شيء. أسماء القيادة الجديدة للحزب، والرفاق الجدد. كل شيء... وكان القذر يخفي جهاز تسجيل خلف أحد المساند. سجّل عليه كل حرف قاله الرفيق شيخون، ثم ذهب بالتسجيل إلى الجهاز إياه الذي اعتقل كل أعضاء القيادة. الرفيق سعيد القمار، وحسين مسيدس، وعبد الأمير النخلاوي، ويعقوب شيخون بالطبع. سليحف... هذا القذر.

وصمت فهد ملتقطاً أنفاسه، فيما سيطر الرعب على الجميع وطنين الذباب من حولهم قد أصبح عذاباً حقيقياً.

ـ إذاً... لقد ضعنا بشربة عرق.

قال زكي بلهجة ساخرة لم تستطع إخفاء رنّة الرعب في صوته، أخذ اللغط بعدها يسود وفهد يدخن السيجارة تلو السيجارة:

ـ كيف استمرّ شيخون بعلاقته مع سليحف وأنتم تعلمون انتهازيته؟

ـ كيف تحافظون على الأسرار وأنتم تشربون العرق... أين التعليمات والأوامر؟ أم أنها علينا فقط!!

ـ إذاً كانت الأمور فالتة ونحن لا ندري. . . نفّذ ثم ناقش! الالتزام التنظيمي! الدقّة والسرية!. . . كل هذا وأنتم تشربون العرق وتلعبون بمصيرنا.

وأخيراً جاء صوت حديجان طاغياً على كل الأصوات:

ـ اسمع يا أخ فريد. . . لقد خدعتمونا ووديتونا في داهية. . . كنا نعتقد أننا نناضل، فإذا بنا أمام مجموعة من المستهترين. كلكم قذرون وليس سليحف فقط.

وبهت فهد من لهجة حديجان وجرأته، وخاصة بعد أن ناداه باسمه الحقيقي ولم يسبق ذلك بلفظ رفيق، فبان الغضب عليه وهو يقول:

ـ الزم حدودك يا رفيق. . . نحن في أزمة. الحزب في القطر على مفترق طرق. علينا التفكير في كيفية التعامل مع الأزمة وإنقاذ الحزب. ثم. . . كيف تناديني «بأخ». . . أنا الرفيق فهد. . . هل نسيت التقاليد الحزبية؟

وضحك حديجان ساخراً وهو يقول بصوت عال وغاضب، ويحرك يديه في كل الاتجاهات:

ـ هاي هاي. . . ضحكتني يا شيخ. . . بلا رفيق بلا زفت. . . يا سيد فريد. . . كلنا يعرف اسمك الحقيقي، أم تعتقد أنه سرّ ذري؟. ولا شك أن الأجهزة تعرفه الآن. كنتم تضحكون علينا طوال الوقت. نضال. . . مبادىء. . .

وأخذ حديجان يضحك بجنون، ثم نهض فجأة وهو يقول:

ـ وختامها زفت وطين. . . تنظيمكم وحزبكم عليكم بالعافية.

ثم هم وهو يضحك:

- مع شوية ويسكي هذه المرة. . . لا يذبحكم العرق. . . مشينا يا شباب.

قال ذلك وهو ينظر إلى هشام وزكي، ولكن أحداً منهما لم يتحرك، فغادر وهو يغمغم بكلمات غير مفهومة ويداه تحركان في كل اتجاه دون وعي منه، والنظرات معلّقة به حتى اختفى وراء الباب، ثم سمع الباب الخارجي وهو يصفق بقوّة.

كان عدنان أكثر الجالسين رعباً، فقد كان منطوياً على نفسه في أحد الزوايا ويداه ترتعشان بشكل ملحوظ، وقد امتلأ جانبا أنفه بعرق غزير، وكان ينظر إلى هشام طوال الوقت، الذي كان صامتاً وقد علا الاصفرار وجنتيه وجبهته، وتبلّلت خصلات الشعر الساقطة على جبينه بالعرق الكثيف الذي كان يخرج دون توقف. أما زكي فقد كان أكثر الحاضرين تماسكاً، رغم قضمه لأضافره معظم الوقت. وساد الصمت بعد خروج حديجان لفترة طويلة، نهض بعدها فهد وهو ينهي الجلسة دون أن يردّدوا الشعار ذلك اليوم.

عندما خرجوا فرادى ذلك اليوم كالعادة، وجد عدنان في انتظاره في آخر الزقاق، عند أول شارع الحب، ولكنه تجاهله وسار في طريقه إلى الساحل دون أن يلتفت وراءه. وهناك، كان مرزوق وزكي يجلسان في مواجهة البحر وكان الغضب لا يزال مسيطراً على مرزوق. كان يحسّ أنه قد «انضحك عليه» من أناس غير مسؤولين وغير صادقين. . . مجرّد شلة عابثة كما عبّر عن ذلك. وكان زكي وهشام صامتين يستمعان إليه وهو يعبّر عمّا في نفوس الجميع من إحساس بالمرارة والمهانة، مهانة من

اكتشف أخيراً أنه كان ضحية غشّ وأشخاص لم يدركوا أنهم كانوا يتلاعبون بقناعات وإحساسات، وهم لا يعنون ما يقولون ولا يسلكون وفق ما يطرحون. لقد كانت المسألة أبعد من حادثة سليحف وشيخون، لقد كانت مسألة استهتار ولامبالاة ومجرد مغامرة مثيرة لا أكثر. لقد تكشف كل شيء عن لعبة... ولعبة سخيفة جداً. فقد كانوا يوزعون المنشورات ويكسبون الأنصار، والآخرون يشربون العرق ويصدرون الأوامر وهم يعتقدون أنهم أصحاب مبادىء... وضحك مرزوق وقد تحوّلت عيناه إلى شيء غريب لا يوصف، وردّد الخليج صدى ضحكاته...

عندما افترق الرفاق الثلاثة ذلك اليوم، اتّفقوا على أن يتقابلوا بعد ذلك كلما سنحت الفرصة، إلا أن هشام لم يرَ مرزوق بعد ذلك اليوم، أما زكي فقد رآه لاحقاً في جدة.

ـ ٤٨ ـ

عندما جاء إلى الاجتماع التالي، كان الفضول يكاد يقتله رغم الرعب الذي كان يملأ نفسه. كان يريد أن يعرف مزيداً من الأخبار، ولا طريقة لذلك إلا من خلال الاستمرار، طالما أن قطع علاقته بالتنظيم لن تغيّر من الوضع الذي وجد نفسه فيه. فالتنظيم قد بدأ ينهار، والاعتقال جارٍ على قدمٍ وساق، فإذا كان اسمه قد وصل للأجهزة فهو معتقل على أيّ حال، وإن لم يكن قد وصل، فلا مبرّر للخوف.

عندما وصل إلى منزل فهد، أخذ يذهب ويجيء في ذلك الزقاق الضيّق حتى تأكّد من خلوّه من المارّة، ثم طرق الباب وهو يلتفت

بعصبية في كل اتجاه. فتح فهد الباب وطلب منه الدخول بسرعة، ثم أغلق الباب بعد أن ألقى نظرة سريعة على الزقاق. عندما دخل المجلس، كان هناك أربعة بدت أشكالهم غريبة بالنسبة له، فقد كانوا كبار السن، في حوالى الثلاثين والخامسة والثلاثين من أعمارهم، بشوارب ضخمة ولحى مهملة خشنة، وقد كانت رائحة عرق الأجساد تملأ المكان، وسحب الدخان تملأ جوّ الغرفة. كان الجميع يدخنون في وقت واحد، ولم يكن هناك أحد من رفاقه السابقين عدا فهد صاحب المكان. وقف الأربعة عندما دخل هشام، فتصافح الجميع وجلسوا على الأرض حول صينية الشاي التي امتلأت بأعقاب السجائر. كان واضحاً أن الجميع فوجئوا بوجود هشام بينهم، فقد كانوا يتبادلون النظرات فيما بينهم ثم ينظرون بسرعة إلى فهد الذي قال، موجهاً حديثه نحو هشام:

ـ لم أتوقع مجيئك يا رفيق... في الحقيقة لم أتوقع مجيء أحد.

ثم وهو ينظر إلى بقية الجالسين بسرعة ثم يعود للنظر إلى هشام:

ـ وعلى أية حال شيء طيب أنك أتيت... فقد كنا نناقش ما يجري وما يمكن عمله...

ثم وهو يشير إلى الجالسين:

ـ أعرّفك بالرفاق... الرفيق أحمـ...

وقبل أن يكمل، قاطعه هشام قائلاً:

ـ أرجوك يا رف... أرجوك لا تفعل.

كان يريد أن يقول يا رفيق، ولكنه توقف في آخر لحظة دون إرادة منه، ثم قال:

ـ أرجوك لا تفعل... فإن كانوا يعرفونني فذلك يكفي، أما أنا فلا

أريد أن أعرف أسماءهم.

وهزّ فهد رأسه وهو ينفخ الدخان بطرف فمه، وينظر إلى هشام بعينين فقدتا بريق أي شيء، ثم قال موجهاً الحديث للجميع، بصوت جاف متهدّج:

ـ لقد انهار التنظيم يا رفاق... انهار الحزب. لم يبقَ سوانا، فقد اعتقل الجميع أو هربوا أو تركوا التنظيم في أزمته.

وصمت فهد، فانبرى أحد الجالسين قائلاً:

ـ علينا مهمة الحفاظ على التنظيم من الانهيار التام.

كانت اللهجة الإحسائية المميزة التي لا تخطئها الأذن، واضحة في كلام ذلك الشخص الذي يدخن نوعاً غريباً من السجائر، بعلبة غريبة ورائحة كريهة جداً. واستغرب هشام حديث ذلك الشخص، فكل شيء قد انتهى ومع ذلك هو يتحدث عن التنظيم وكأنه موجود، فأراد أن يعلق ولكن أحد الأشخاص الآخرين سبقه وقال:

ـ لقد وصلتنا أخبار أن الرفيق سعيد القمار قد مات...

وصمت الجميع ثم قال فهد:

ـ لنقف دقيقة صمت لذكرى الرفيق البطل...

ووقف الجميع دقيقة بدت كأنها دهر، ثم قال أحد الأشخاص الجدد:

ـ واجبنا إعادة بناء الحزب، ونحن هنا اليوم لانتخاب أمين عام جديد، وقيادة جديدة تعيد البناء...

وهنا لم يملك هشام نفسه فقال:

ـ أمركم غريب يا جماعة. . . كل شيء قد انهار، والاعتقالات في كل مكان، وتتحدّثون عن الاستمرار. . . هذا جنون.

ـ ولكن الصمود واجب يا رفيق. . .

علّق الشخص الرابع، الذي كان صامتاً طوال الوقت، فيما قال هشام:

ـ هذا ليس صموداً، إنه جنون. . . نعم جنون. الواجب أن ينتهي كل شيء. . . والواقع أن كل شيء منتهٍ فعلاً. . .

وساد الصمت لفترة، ثم قال الشخص ذو اللهجة الإحسائية الواضحة:

ـ كلام الرفيق عدل. . . ولكن يعزّ علينا ترك التنظيم الذي بنيناه كل هذه السنين. . . أنا أقول أن نجمّد النشاط لأجل غير مسمّى.

وابتسم هشام بالرغم منه. . . ما الفرق بين التجميد والحل؟ النتيجة واحدة، ولكن الإنسان لا يريد أن يعترف بحقائق الأمور، لا بدّ أن يغطّيها بحجاب يرضاه. فقال:

ـ ليكن ذلك. . . عن إذنكم.

وأراد النهوض، فقد كان غير مصدق أن كل شيء قد انتهى، وانتهت معه تلك المتاهة التي يعيشها. سيعود الآن إلى عالمه الحقيقي الذي تركه لأكثر من سنتين ونصف، سيعود إلى كتبه وأمه وأبيه وشلّته ونورة. . . أخيراً انتهى الكابوس. ولكن الكابوس قد يكون في بدايته. وأحسّ بمعدته تنكمش على بعضها عندما فكّر في احتمال السجن، واجتاحه الرعب وأحس بدوار غريب يلفه.

ـ دقيقة واحدة يا رفيق... هناك شيء أخير يجب أن نقوم به.

كان ذلك الشخص ذو اللهجة الإحسائية، فجلس هشام بكل قلق ونفاد صبر وفضول، فيما أخرج الشخص لفافة بلاستيكية موضوعة في كيس ورق لم يلبث أن فتحها وأخرج رزمة من الأوراق المالية من فئة المائة ريال الجديدة، وكان واضحاً أنه مبلغ كبير جداً. ألقى ذلك الشخص بالرزمة في وسط الجالسين، ثم قال:

ـ هذا مبلغ قدره سبعة آلاف وخمسماية ريال... إنه مالية التنظيم. ماذا نفعل به؟

وأخذ الجميع ينظرون إلى بعضهم بصمت، فهو مبلغ ضخم للغاية، وكان هشام في غاية الانبهار، فهذه أول مرة في حياته يرى مثل هذا المبلغ الكبير.

ـ لما لا يبقى معك يا رفيق أبو سعيد حتى تنفرج الأزمة... نحن جمدنا التنظيم ولم نحلّه.

قال أحد الأشخاص مخاطباً الإحسائي، الذي قال:

ـ لا أعتقد أنها فكرة جيدة، فأنا معرّض للاعتقال في أية لحظة...

ـ إذاً لنودعه البنك حتى تتّضح الأمور.

قال أحدهم، ولكن سرعان ما كان الرد:

ـ باسم من؟. فكرة غير عملية يا رفيق... سوف يسأل من له الحساب من أين له كل هذا المبلغ، ونحن مجرد موظفين.

ـ ما العمل إذاً؟... هل نوزعه على الفقراء، أم نلقيه في الشارع، أم نتبرّع به لجمعية خيرية.

وضحك الجميع باقتضاب، فيما علّق أحدهم بمرح غريب على الجلسة:

ـ ليش؟... قالوا لكم سبيل!

وساد الصمت لبرهة، وقد نكس كل واحد منهم رأسه وأخذ يدخن بهدوء ما عدا هشام، الذي يراقب إبريق الشاي الفارغ أمامه. ثم صاح فهد فجأة وهو يقول:

ـ وجدتها... ليكن المبلغ عند الرفيق أبو هريرة. فهو أصغرنا والأبعد عن الاعتقال، فهو غير معروف.

ووجد الاقتراح قبولاً عند الجميع، الذين عبّروا عن الموافقة سريعاً، إلا أن هشام اعترض قائلاً:

ـ كلا... لا أستطيع. أين يمكن أن أضع مثل هذا المبلغ الكبير، فأنا ما زلت طالباً، وأعيش مع أمي وأبي... المسؤولية أكبر من وضعي. كلا... لا أستطيع...

لم يكن صادقاً في الحقيقة في عذره، ولكنه يريد التخلّص من كل ما يمكن أن يربطه بالتنظيم وهو الذي «لم يصدق» أن كل شيء قد انتهى على خير كما يتمنى، خاصة أن تأكيد فهد أن أحداً لا يعرفه من المعتقلين قد جعله يحسّ بطمأنينة أكبر ويشعر بالراحة لأول مرة منذ تلك الجلسة التي أخبرهم فيها فهد بحكاية شيخون وسليحف وانكشاف التنظيم.

غير أن فهد تناول المبلغ وأعاده إلى اللفافة، ثم دفعه إلى هشام وهو يقول بحزم:

ـ لقد اتخذ القرار وما عليك ألا التنفيذ يا رفيق. . . أنت الخيار الأصلح.

وقبل أن يقول شيئاً، كان فهد قد نهض ونهض معه البقية ثم قال:

ـ هو الوداع إذاً. . .

وتصافح الجميع، ثم انسلّوا واحداً واحداً بعد ترديد الشعار على عجلة لآخر مرة.

ـ ٤٩ ـ

طوال الطريق إلى المنزل، كان هشام يفكّر بالقدر واللعبة الغريبة التي يمارسها معه. إنه يريد التخلّص من أية وشيجة تربطه بالحزب أو التنظيم، ولكن القدر يأبى إلا أن يربطة به بشكل أو آخر. ها هو الآن يحمل مبلغاً يحسّ بثقله على صدره حيث أخفاه، ولا يدري ما يصنع به وأين يخفيه. وصل المنزل وهو في حالة اضطراب عظيمة، فدخل غرفته مباشرة وأغلق على نفسه بالمفتاح. كانت مثل هذه التصرّفات تقلق أمّه في الماضي، أمّا الآن فقد تركته وشأنه معزية هذه التصرّفات إلى السن وهموم الامتحانات القريبة. أخرج المبلغ من صدره ويداه ترتعشان، ووضعه في الدرج الأسفل من المكتب، ثم غطّاه ببعض الكتب الدراسية، ثم ألقى بنفسه على السرير وأخذ يفكّر. . . ماذا يفعل بهذه المصيبة التي بين يديه؟ لما لا يعطي المبلغ لوالده ويتصرّف به كيف شاء؟. . . وضحك في أعماقه لهذه الفكرة السخيفة، فإذا كان والداه قد حاسباه على عصفور اشتراه بربع ريال، فماذا هما فاعلان به وقد أتاهما

بثروة لا يعرف مصدرها؟... ثم إن هذا المال ليس ماله، فكيف يتصرّف به. نعم، لقد كان يدفع اشتراك خمسة ريالات شهرياً للتنظيم، ولكن ذلك لا يمنحه الحق في الاستحواذ على المبلغ، فقد كان زكي ومرزوق يدفعان عشرة ريالات شهرياً اشتراكاً لكل منهما، فهما موظفان، وهما أحقّ منه بالمبلغ من هذه الناحية، لما لا يعطيهما المبلغ؟... وأزاح الفكرة من رأسه، فالمبلغ أمانة ويجب المحافظة عليها كما هي حتى يستلمها من سلّموه إياها، أو تبقى في حوزته حتى يكون ما يكون... ولكن أين يخبّىء هذه المصيبة؟

نهض من سريره فجأة، واتجه إلى المطبخ حيث أحضر بعض ورق السوليفان، وبعض الورق المعدني من صندوق الشاي، وعاد إلى غرفته وأخرج المبلغ من الدرج وجلس على الأرض، بعد أن تأكّد من إحكام إغلاق الباب. لفّ النقود بورق السوليفان، ثم وضعها في الكيس الورقي، فالكيس البلاستيكي، ولفّ الجميع بالورق المعدني، ثم لفّ كل ذلك بخرقة من القماش، ووضع الجميع في علبة حليب «نيدو» صغيرة. فتح الباب، وتأكّد من وجود والديه في غرفة التلفزيون، ثم انسلّ إلى حوش المنزل الخلفي. وفي زاوية غير بعيدة عن باب «الحريم»، أخذ يحفر بيديه العاريتين في الرمال الناعمة الرطبة هناك، والظلام يلفّه. كان قلبه يدقّ بسرعة، وبين وقت وآخر يذهب إلى نافذة غرفة التلفزيون ويصيخ السمع، ويتأكّد من وجود والديه هناك، ثم يعود للحفر من جديد، حتى وصل إلى عمق ارتضاه. وضع العلبة في الحفرة، ثم أهال الرمل حتى طمرها تماماً. تنفّس بعمق بهد إنهاء عمله وأحسّ بالراحة بعد أن أحسّ بالتخلّص من هذه المصيبة التي بُلِي بها. عاد إلى غرفته، بعد أن أخذ «دشّاً» سريعاً في الحمام الخارجي، حمام الرجال، ثم عاد إلى

غرفته حيث استسلم لإغفاءة سريعة أيقظه منها صوت أمّه وهي تدعوه لطعام العشاء.

ـ ٥٠ ـ

كانت الأيام التالية أيام رعب وقلق حقيقي، فالامتحانات قد بدأت، والاعتقالات ما زالت مستمرة وبكثافة، بعد أن انكشفت تنظيمات أخرى، وقد اعتُقل كثير ممن يعرفهم ويعرفونه فكان كل شيء يوحي بالفزع. أخبره راشد أن فهد قد اعتُقل وكذلك منصور، وأنه قد قرّر الهرب إلى البحرين ومن هناك سيقرّر أين يذهب بعد ذلك، ونصحه أن يفعل مثله. ولكنه لا يستطيع، فالامتحانات قد بدأت، وهو لا يريد أن يحمّل والديه ما لا طاقة لهما به. أن يترك الامتحانات ولا يحصل على التوجيهية، ويصدم والديه بحكاية التنظيم السري وإمكانية الاعتقال والسجن، وهما من وضعا كل آمالهما وثقتهما فيه شيء لا يمكن أن يتحمّلاه. وقرّر أن يترك مصيره للقدر، هذا الذي يلعب معه لعبة غريبة غير قادر على استيعابها.

ويزداد رعبه كلما اكتشف اختفاء بعض الزملاء وعدم مجيئهم للمدرسة في أيام الامتحانات، وحسن الصباح نفسه لم يعد يراه في المدرسة. حاول البحث عنه في كل مكان، ولكنه اختفى. وكان يحاول طمأنة نفسه بالقول إن فهد ومنصور لن يعترفا عليه، وها هي الأيام تمرّ دون أن يستدعيه أحد، وكان ذلك يريحه كل يوم أكثر وأكثر. وتحوّلت الإدارة إلى خلية نحل تلك الأيّام. فالامتحانات ومشاغلها، ورجال كثيرون كانوا يأتون للمدرسة كل يوم ويختلون بالمدير، ثم يخرجون بعد

فترة وقد اصطحبوا معهم طالباً أو عدّة طلاب، جعلت الإدارة مركز عمليات حقيقي. حاول أن يشتّت قلقه من خلال التركيز على المذاكرة، ومقابلة نورة كلما سنحت الفرصة، ولكن القلق والخوف كانا يفرضان نفسيهما. حتى قبلة نورة لم يعد لها طعم، مجرد شفاه تلتقي دون إحساس، فقد كان البال منشغلاً بالامتحانات والسجن في وقت واحد.

أمّا عدنان فقد كان الفزع واضحاً على وجهه بشكل مريع. أتاه ذات مرة بعد انتهاء امتحان اللغة الفرنسية، وكان مستنداً إلى جدار الممر ينظر إلى الساحة الخالية من الطلاب، وقد أصبح وجهه مثل ليمونة سوداء جافّة. لقد تكاتف الرعب والسهر ليحوّلاه إلى بقايا إنسان. إنه يدرس كثيراً ولكنه لا يحقّق النتائج التي يرجوها. يذكر أنهما كانا يذاكران معاً أيام الصفاء، فصرخ عدنان دون مقدمات: «هذا ليس عدلاً... أنا أذاكر كل الوقت وأنت سارح مع مغامرات «لوليتا» وعشقها، ومع ذلك تحقق نتائج أفضل مني... هذا ليس عدلاً»، ثم يصمت قليلاً ويقول بعد ذلك: «لو كنت مكانك يا هشام، لكنت الأول دائماً... ولكن. ولكن يدّي الحلق للّي بلا ودان، على رأي المصريين...»، ثم يضحك الصديقان من الأعماق ببراءة وحبور. لم يكن عدنان غبياً، ولكنه عديم القدرة على التركيز، كما أن والده أجبره على دخول القسم العلمي وهو الذي كان مهووساً بالفن ولا يحتمل جفاف العلوم البحتة. حتى هشام كان مجبراً على دخول القسم العلمي، فوالده يريده أن يكون طبيباً أو مهندساً، ولكنه أكثر قدرة على التركيز حتى في الأمور التي لا يحبّها. كان قد قرّ قراره على دراسة الاقتصاد، ولكنه إرضاءً لوالده دخل القسم العلمي، أمّا بعد ذلك فقد كان مصمّماً على فعل ما يريد. وكانا أكثر الأحيان يذاكران في الشارع تحت أعمدة النور هرباً من جوّ البيت الخانق

ورقابة الأهل التي لا تعطيهما مجالاً لحرية الحديث. جاءه عدنان ذلك اليوم، واقترب على استحياء، ثم وقف بجانبه برهة همّ خلالها هشام أن يتحرك، ولكن عدنان جرّه من مرفقه وهو يقول بصوت خافت لا يكاد يسمع:

ـ هشام... أما زلت غاضباً مني؟...

وقف هشام، ونظر إليه ببرود، ولاحظ أن البثور قد نهشت وجهه في الآونة الأخيرة، ثم أدار وجهه بسرعة وهو يقول:

ـ لا هذا ولا ذاك... لم يعد أمرك يهمّني في شيء حتى أغضب أو أرضى.

ـ إذاً أنت لا تزال غاضباً مني...

قال عدنان وقد لمعت عيناه الميّتتان ببعض السرور الذي أعاد إليهما بعض الحياة. فها هو هشام يتحدّث إليه بعد تلك القطيعة في أعقاب الوشاية الأخيرة. وكان هشام بدوره متردداً، فقد بقي في مكانه لا يريم، مما شجع عدنان على مواصلة الحديث، وقد كان الرعب واضحاً في نبرات صوته:

ـ لم أعد أرى منصور، ولم أعد أذهب إلى الجماعة... هل تعتقد أنه اعتقل؟ كان خائفاً عندما رأيته آخر مرة، هل تعتقد أنه اعتقل؟

كان يسأل بسرعة وهو يتلفت بعينيه في كل اتجاه. فقال هشام بصوت خافت وهو ينظر إلى الساحة:

ـ منصور معتقل فعلاً... وكذلك فهد... ماذا ستفعل؟

ـ لا أدري... يجب أن يكون الوالد على علمٍ بالأمر... سأفكر بالموضوع بعد الامتحانات إن شاء الله.

وابتسم هشام بالرغم منه... فشعبية الله مرتفعة هذه الأيام. لو كان ماركس نفسه في هذا الوضع، لذكر الله كثيراً...

ـ لا تخف... أعتقد أننا في أمان، فلن يعترف علينا أحد ممن يعرفوننا... وهم قلّة على أية حال... ثم إن كل شيء قد انتهى، ولا أعتقد أنهم يريدون مزيداً من المعتقلين طالما تحقّق الغرض.

قال هشام وهو يحاول طمأنة نفسه قبل عدنان، ثم ساد الصمت وبقي الاثنان ينظران إلى الساحة الخالية.

ـ هشام...

قال عدنان وهو يستدير وينظر إلى هشام الذي بقي على حاله:

ـ هشام... أرجو أن تسامحني. لقد انتهى كل شيء. أرجو أن نعود كما كنّا.

ونظر إليه هشام طويلاً وقد لاحظ ذبول عينيه اللتين صغرتا عن السابق كما خيّل له، ثم قال:

ـ هل تسمع أم كلثوم يا عدنان؟...

ـ بالطبع... وهل هناك من لا يسمعها؟

ـ إذاً فقد سمعتها تقول «بقى عاوز نرجع زيّ زمان، قول للزمان ارجع يا زمان...».

وفي هذه اللحظة كان الجرس يدقّ معلناً بداية الامتحان الثاني لذلك اليوم، فتحرّك هشام متّجهاً للفصل، فيما بقي عدنان لبعض الوقت، وعندما دخل الفصل، كان وجهه أشبه بمومياء مصرية اكتشفت لتوها.

نظر إلى هشام نظرة عجلى، ثم اتخذ مجلسه وكان واضحاً أن كل انفعالات الدنيا تضطرم في صدره.

ـ ٥١ ـ

وانتهت الامتحانات دون أن يجري له أو لعدنان أيّ شيء. لم يعد يرى راشد في المدرسة، كما أن موافق اختفى هو الآخر. كان القلق مسيطراً إلا أن مرور الأيام دون أن يسأل عنه أحد، جعله يشعر ببعض الأمان، وأن أحداً لم يذكر اسمه. . . بعد. كانت هذه «البعد» مصدر الخوف الدائم، ولكن مرور الأيام جعله ينساها شيئاً فشيئاً.

واحتفل بانتهاء الامتحانات بالذهاب إلى مكتبته المفضّلة واشترى كل ما وجده من مجلات: الحوادث، الأسبوع العربي، الجمهور، الجديد، العربي، سوبرمان، بساط الريح، وحتى مجلة اليمامة والجرائد المحلية التي لا تحوي إلا أخباراً محلية. قضى ما بعد ظهر ذلك اليوم في تصفّح تلك المجلات، ومتابعة آخر مغامرات سوبرمان وتان تان والكابتن هادوك. وكانت أمه قد أعدّت شبه وليمة احتفالاً بانتهاء الامتحانات، كل ما يحبّه من مقالي ومعجنات ومهروسات، غير آبهة باعتراض الوالد على «خرابيط الشوام» هذه، ولكنه كان اعتراضاً باسماً وغير جدي هذه المرة. وفي العصر، انطلق إلى الشلة التي كانت قد سبقته ذلك اليوم، فلعب الكيرم والبلوت وضحك كثيراً، وتحدث بحبور مع الجميع، حتى عدنان. كان كل شيء جميل ذلك اليوم، وشعر بسعادة كبيرة لم يرد أن يفسدها أي شيء. كان يحس بالحب لكل شيء وشعر بأن أيّ شيء لا يستحق أن ينغّص على الإنسان لحظة سعادة صافية. وفي المساء ضرب

موعداً مع نورة وعوّضها عن كل البرود والشكوك التي شابت لقاءهما آخر مرة، حتى أنها استغربت كل تلك الحرارة والعواطف التي أبداها. وقد أخبرته في ذلك اللقاء أن أباها معجب به كل الإعجاب، عندما يتحدّث مع أمها أثناء تناول شاي العصر. فهو معجب بتقواه وحرصه على الصّلاة مع الجماعة في المسجد، وكان ردّ هشام مجرد ابتسامة ونظرة غائمة إلى وجه نورة، ثم قبلة طويلة. كان يعلم ما توحي به كلماتها، ولكن الزواج هو آخر ما يفكّر به الآن، رغم أن والديه سوف يكونان في غاية السعادة لو فاتحهما بمثل هذا الأمر رغم صغر سنّه، فهو وحيدهما ولا بأس بوضعهم المالي.

بعد أن انتهت فرحة انتهاء الامتحانات، بدأ قلق من نوع جديد، إنه قلق انتظار النتيجة. لم يتلاشَ الخوف من الاعتقال، ولكنه قلّ كثيراً بعد مرور كل هذا الوقت دون أن يسأل عنه أو عن عدنان أحد، ويبدو أن منصور وفهد كانا صامدين فلم يذكرا اسميهما، وأحسّ بالحب لهما لأول مرة منذ عرفهما. لم يكن في مخطّط العائلة السفر شمالاً إلى الأردن أو الشام هذه السنة، فنتيجة التوجيهية والاستعدادات لدخول هشام الجامعة تجعل من الصعب القيام بمثل هذه الرحلة. لذلك قرّر الوالد أخذ إجازة قصيرة هذه المرة، والسفر إلى القصيم لرؤية والديه وأخته الذين لم يروهم منذ ثلاث سنوات في آخر رحلة لهم هناك. وراقت الفكرة لهشام، هو سيبتعد مؤقتاً عن جوّ القلق والخوف والانتظار، وسيرى جديه وعمّته التي يحبها كثيراً رغم أنه لا يحب القصيم كثيراً. ففي الدمام أصحابه والأجواء التي اعتاد عليها والبحر، وفي القصيم لا أصداء ولا بحر، وفوق كل ذلك صلاة الفجر التي لا بدّ أن يؤدّيها جماعة في المسجد مع جدّه، عندما يلذّ للعين الرقاد. ولكن صورة عمّته تبدّت له

فأحسّ بالشوق رغم كل شيء.

في الأيام القليلة التالية، أطلق والده العنان لشعر لحيته، منمّياً لحية صغيرة هلالية الشكل دون أن تشتبك بشعر الشارب، استعداداً للسفر. فمن العيب هناك أن يظهر شخص من «عيال الحمايل» وهو حليق اللحية، خاصة في مدينتهم بريدة. قد يغفرون للشخص أن يتغيّب عن صلاة الفجر جماعة لسببٍ أو آخر، حين يحصون الحضور، ولكنهم لا يغفرون له عدم وجود لحية، خاصة إذا تجاوز سن الشباب. وانشغل هشام بجمع بعض الكتب التي كان يؤجل قراءتها لتكون زاده في نهار القصيم الطويل والمملّ. اختار «الحرب والسلام» لتولستوي التي كان يبدأ بقراءتها دائماً، ولكنه يشعر بالملل بعد عدّة صفحات فيلقيها جانباً. واختار «العقب الحديدية» لجاك لندن، و «قصة الفلسفة» لول ديورانت لقراءتها مرة أخرى، و« مبادىء الفلسفة» لأحمد أمين، و «الوجودية فلسفة إنسانية» لجان بول سارتر، بالإضافة إلى دراسة حصل عليها من زكي منذ زمن بعنوان «من هو اليساري» لكاتب فرنسي، منشورة في مجلة «الأزمنة الحديثة» الفرنسية وترجمها عضو في منظمة العمل الشيوعي في بيروت.

وفي أصيل يوم من أيام حزيران الموقدة، استقلّت العائلة الصغيرة سيارة «البيجو» الزيتية، موديل ١٩٦٧، متجهين إلى الظهران ثم بقيق في الطريق إلى الرياض. لقد كانت أول مرة يستخدمون فيها سيارتهم الخاصة للسفر إلى القصيم، فالعادة أن يسافروا بالقطار أو التاكسي إلى الرياض وهناك يركبون مع أحد «البوكسات» ذات الصناديق الخشبية، التي تنقل الركاب بين الرياض والقصيم. وصلوا الرياض قبيل منتصف الليل بقليل واتّجهوا مباشرة إلى بيت الخال عبد العزيز المباركي، الذي كان ساهراً يقرأ القرآن، فيما كان باقي أفراد العائلة نائمين. استقبلهم الخال الذي

أيقظ ابنته الكبرى منيرة، التي رحّبت بهم، فيما عاد الخال إلى مصحفه. وأعدّت لهم منيرة عشاءً خفيفاً من البيض المقلي بالسمن، وبعض الجبنة الصفراء، وشاياً بالحليب، ثم فرشت لهم على أحد الأسطح الفارغة وعادت إلى فراشها وهي تعتذر بالتعب طول اليوم. وعندما أخلد الجميع إلى النوم، كان صوت نشيج الخال وهو يتلو القرآن يأتي من غرفته ممزقاً الأفئدة. ومع أذان الفجر، أيقظهم الخال لتأدية الصلاة، فانتهز الوالد الفرصة واستأذن منه في السفر واستغلال الوقت قبل أن تحمى الشمس، فوافق الخال بعد إصرار على بقائهم، وانطلقوا ودعوات الخال الحارة بأن يحفظهم الله تصل إلى مسامعهم.

عندما كانوا يهبطون «طلعة» ديراب على خط الحجاز، كانت الشمس قد بدأت تبزغ على استحياء، وعندما وصلوا إلى «مرات» كانت قد بدأت في ممارسة وقاحتها وإرسال تلك الأشعة النارية الرهيبة، رغم أن الوقت ما زال مبكراً. توقف الوالد عند أحد المقاهي في مرات حيث تناولوا إفطاراً سريعاً من أرغفة خبز البر الحار والشاي بالحليب، ثم عبأ الوالد «الزمزميات» بالشاي والقهوة المرة، و «الترامس» بالماء البارد، ثم انطلقوا في الطريق إلى «شقراء» التي وصلوها قبيل الظهر، وقد تحولت الشمس إلى جحيم حقيقي. وبعد أن تجاوزوا شقراء بمسافة ليست كبيرة، انحرف الوالد عن خط الحجاز المزفّت ودخل في بحر من الرمال لا يظهر عليه إلا بعض خطوط متفرّقة في كل اتجاه لسيارات تركت آثارها وغابت. كانت الشمس قد أخذت في الانحدار نحو الأفق الغربي، وما زالت تمارس وقاحتها. وبعد عدة كيلومترات، اختفى الخط المزفت عن الأنظار وبقيت العائلة الصغيرة تحت رحمة شمس لا تريد أن تموت ولا تعرف المرض، وكثبان من رمال حمراء لا متناهية، والوالد يردد في

كل حين: «الله يعين عليك يا جيب غراب...». كل شيء أصبح بلا أبعاد أو حدود، ليس إلا الشمس والرمال وذلك الأفق الذي لا يجيء أبداً. انتفى المكان مع ضياع الأبعاد، وأصبح الزمان معلقاً بذاك القرص الذي بدأ يخجل من جديد فكسته الحمرة، وهو يهدّد بانقضاء الزمان بدوره عندما يبتلعه الأفق القادر على ابتلاع كل شيء.

ونشر الظلام رداءه الحالك، وبدى أن اهرمان قد استوى على صدر اهورامزدا في صراعهما السجالي السرمدي، وأن الغرب سائد لا محالة. وأخذت النجوم تبعث أشعة فضيّة لا قيمة لها في هذه اللانهائية، وليس ما يوحي بحياة إلا صوت «البيجو» وبعض كلمات يتبادلها الوالدان، ربما لمجرد الإعلان عن الوجود أو الهرب من وسوسات الذات في هذا المحيط من اللامكان واللازمان. كان هشام يعلم أن الرمال تحيط بهم من كل جانب، ولكنه لا يرى شيئاً، إلا بعض أشباح تتراءى من بعيد وكأنها بعض غيلان السندباد في رحلاته. كل شيء يوحي بأن كل شيء قد توقف وأنهم يسيرون في تيه بني إسرائيل. وفجأة انحرف الوالد عن الخطّ الرملي الذي كان يتبعه وأوقف السيارة وهو يقول: «لا نستطيع السير في هذا الظلام الدامس... سنقضي الليلة هنا ونعاود المسير مع الفجر...»، وهبط الجميع من السيارة وجلسوا على كثيّب رمل غير بعيد عن السيارة لفترة ألفت خلالها عيونهم الظلام المحيط، وأصبح بالمستطاع الرؤية على نور النجوم الخجلى. ثم نهض الوالد وطلب من هشام إنزال «المعاميل» فيما اتجه هو للبحث عن بعض أعواد الحطب وهو يقول: «هذه غلطتي... كان من المفروض أن نسافر خلال الليالي البيض عندما يكون القمر بدراً، ولكن... الخيرة فيما اختاره الله»، فقالت الوالدة وهي تخرج المعاميل من السلة البلاستيكية: «أمر الله من

سعة... ما ورانا إلا كل خير، فلم العجلة؟!»، أشعل والده ناراً، رغم حرارة الجو، أضاءت المكان من حولهم وجعلتهم يحسّون ببعض السكينة، ثم ملأ إبريق الشاي ووضعه بجانب النار. نظر هشام إلى والده وهو يبتسم... إنه لا يتغير. معهم من الشاي والقهوة الكثير في الزمزميات، ولكن لشاي وقهوة النار في الصحراء طعم مختلف عند والده ووالدته، أما بالنسبة له فالأمر سيان، ولكنه فرح لفرح والديه اللذيْن تحلّقا حول النار وبريق سعادة غريب يشع من عيونهما. وبعد أن انتهى والده من عمل الشاي، سكب الشاي الذي كان معهما من مرات، رغم أنه لم يشرب منه إلا القليل في الطريق، وملأ الزمزمية بالشاي الجديد، ثم ملأ الإبريق مرة أخرى بالماء لعمل القهوة. وأخذ الجميع في احتساء الشاي مع بعض لقيمات من خبز البر، وهم يتحلقون حول النار في جوّ لم تنكسر حدّة حرارته، والهدوء يخيّم على كل شيء. وبعد انتهاء العشاء، أخذ الوالد يقصّ عليهم ذكرياته مع «عقيل» في آخر أيامهم، ورحلاتهم إلى الشام ومصر والعراق، وقصّة أول رحلة له معهم عندما كان لا يتجاوز الرابعة عشرة من عمره، وكان أجره آنذاك لا يزيد عن طعامه وشرابه الذي لم يكن سوى بضع تميرات، أو بعض من «قرص عقيل» أو «قرص نار» إذا كان محظوظاً، ويعمل طوال النهار في خدمة الركب، ماشياً على قدميه أكثر الأحيان. لقد سمع هشام والوالدة قصص والده هذه عدة مرات، وخاصة إذا كانوا في «كشتة» إلى البر، وكانا يعلمان أن الوالد يبالغ بعض الأحيان في سرد مغامراته، ولكنهما كانا سعيدين بسعادة الوالد، فقد عانى الكثير في حياته وله الحق في السعادة.

ابتعد قليلاً عن والديه، وجلس على رمال ناعمة باردة لم تمسسها يد بشر، وأخذ يعبث بتلك الرمال بيده بلذة وسعادة ملئت عليه أعماق

نفسه، وهو ينظر إلى النجوم البعيدة في قبّة حالكة السواد، ومن حوله كل شيء يوحي باللانهائية. أحسّ بالضآلة في هذه اللامحدودية، وكانت أصوات أمه وأبيه تأتيه وكأنها قادمة من سدرة المنتهى، رغم أنه لم يبتعد عنهما غير خطوات معدودة. وأدرك لماذا كانت رسالات الرسل لا تأتيهم إلا في مثل هذا السكون واللانهائية حيث ينتفي كل شيء ولا يبقى إلا سر الوجود ذاته الذي تحسّه ولا تراه، تستوعبه في أعماقك دون أن تستطيع تحديده. وجاءه صوت أمه من بعيد تدعوه للنوم معها في السيارة، فتحرّك عائداً إلى حيث والديه، وجلس مقابل والده حول النار وهو يقول: «سأبقى قليلاً يا أمي... تصبحين على خير»، ورضخت الأم لرغبته واتجهت إلى السيارة وهي تقول: «حسناً... ولكن احذر الدواب»، فضحك والده وهو يقول: «الدواب!... لا يعيش هنا إلا الجن»، وجاءتهما غمغمة الوالدة من بعيد وهي تتعوذ بالله من شر ما خلق الله، ثم صائحة: لا تنسوا قراءة آية الكرسي والمعوذتين. وأنت يا هشام... لا يغلبنك النوم في العراء. في السيارة متّسع للجميع...»، ثم سمع صوت صفق باب السيارة.

- ٥٢ -

أفاق على حركة أبيه وهو يشعل النار في بعض حطب لا يدري متى ومن أين أتى به. لم تكن الشمس قد أشرقت بعد، ولم يكن النور قد عمّ الأرجاء، مجرد ضياء شرقي بعيد مختلط بعتمة في النزع الأخير. كان واضحاً أن اهورامزدا في طريقه إلى تحقيق نصر آخر، وأن الشرق قد انبثق من جديد. لا يدري كيف نام، فكل ما ذكره هو أنه كان متوسّداً

ذراعيه يراقب النجوم في السماء، ثم انتقل إلى البعد الآخر. كان الجوّ في غاية السحر، وتلك اللسعة الخفيفة من برد السحر جعلته يضفي البطانية على جسمه دون أن يتحرك من مكانه. إنه لا يدري من أتاه بالبطانية، ولكن لا ريب أنها أمه التي هو واثق من أنها لم تغمض لها عين وهي تعلم أنه ينام في العراء. لم يتحرك إلا حين أنهى والده عمل القهوة والشاي، وجاءت أمه من السيارة وقد احمرّت عيناها والبسمة لا تفارق وجهها وهي تنظر إليه. واجتمعوا حول النار يصطلون بلهبها، ويحتسون الشاي الممزوج بالحليب المركز ويأكلون لقيمات من بقايا خبز البر الذي اشتروه بالأمس. ليس هناك ألذّ من الصحراء المترامية في لحظات النور الأولى، عندما تكون النار مشتعلة ولذعات من البرد اللذيذ تلسع الأجساد بكل إثارة وغواية. وليس ألذّ من الصحراء لحظة شروق الشمس من الأفق اللامتناهي وأنت تحتسي الشاي الحار حول نار متأججة، ونسمات من هواء الصباح الندي تداعب الوجه بإغراء فتاة عذراء عرفت الحب لأول مرة.

عندما تحركت السيارة، كان واضحاً أن الشرق قد انبثق، والشمس توشك على الانفجار. وبعد عدة دقائق، كان كل شيء قد اكتسى بزّة برتقالية غامقة في لوحة فنان أبدع الوجود ذاته. تحت نور الشمس، كانت كثبان الرمل تبدو مثل كائنات أسطورية جميلة، ولكن الخطر كله يختفي في جوفها. سارت السيارة ساعات لا يدرون عددها ومداها، ففي الصحراء قد ينتفي الزمان وقد ينوء عليك بثقله ويتحوّل إلى عنقاء مخيفة. وأخذت الشمس في ممارسة وقاحتها، وتتحول إلى جحيم لا يطاق، هذه التي كانت في الصباح ذلك الكائن الجميل الخجول. وتحوّلت كثبان الرمل إلى بحر من العذاب، مفصحة عن أعماقها التي كانت تخفيها وراء

قناع الجمال ساعة السحر والشروق. وبدأت الشمس تنحدر نحو الغرب، فيما كان اهرمان يسن رماحه وسهامه، وبدأ الضيق يظهر على وجه الوالد بعد أن كاد الماء ينفد، وجوالين الوقود التي جلبوها معهم قد نفدت. . . «من المفروض أن نكون الآن على مقربة من عنيزة. . .»، قال الوالد بصوت كان القلق الشديد واضحاً فيه. وانتقلت العدوى إلى الوالدة وهشام، فبان الخوف من عيونهما. ولكن الطريق لا يريد أن ينتهي، والأفق يمتد بلا نهاية ولا شيء يبشر بوجود شيء. وبدأت الشمس تسير نحو موتها اليومي والقلق يتحوّل إلى رعب. لا ماء ولا وقود ولا طعام. سوف تبتلعهم كثبان الرمل وتبدي جمالها في الصباح التالي، وكأنها سليمة النية والباطن. ولكن الصحراء مثل القدر. يسحقك ويكتم أنفاسك حتى تحسب أنه لا أمل، ثم فجأة يرفع كاهله عنك ويريك أجمل ما فيه، وكأنه سادي خجل. فعندما وصل الخوف والقلق بالجميع إلى القاع، وأصبحوا يتأرجحون على حافة اليأس، إذ بالوالد يصرخ بفرح طفل صغير وجد والديه في زحمة من الناس: «عنيزة. . . ها هي عنيزة.»، واشرأبّت أعناق الوالدة وهشام يبحثان عمّا رآه الوالد وهما يردّدان: «أين. . . أين. . .»، وينظران إلى الأفق وقد خرجت العيون من محاجرها، ولا يريان شيئاً. إلا أن الوالد الذي عادت إليه ابتسامته وثقته بنفسه قال بهدوء وطمأنينة، وهو يشير بأصبعه إلى نقطة في الأفق: «هناك. . . أترون تلك النقطة السوداء في الأفق. إنها خزان مياه عنيزة. الحمدلله. . . نحن بأمان»، لم يريا شيئاً حيث أشار الوالد، ولكنهما كانا واثقين من كلامه، فعادت البهجة إلى وجوه كانت قبل لحظة قد أيقنت بالهلاك.

كانت الشمس قد تحولت إلى قرص دامٍ عندما أصبح الخزان الذي

تحدث عنه والده واضحاً للعيان، ومن ورائه مجموعة من البيوت الطينية المتلاصقة، ما أن رآها الوالد حتى قال بسرور: «عنيزة... هذه هي عنيزة»، وكانت أجمل مدينة رأوها في تلك اللحظة.

توقفوا عند محطة وقود على الطريق، تاركين المدينة إلى يسارهم، وملأوا السيارة بالوقود والترامس بالماء، وغسلوا وجوههم على عجل ثم انطلقوا شمالاً. وفي اللحظة التي كانت فيها الشمس تغرق بالكامل في بحر الأبدية، ودماؤها تنتشر في وجه السماء، أشار الوالد إلى بقعة لا تختلف عن غيرها في هذا اليمّ من الرمال قائلاً: «هناك خشم علي... ومن ورائه بريدة»، وما هي إلا بعض الساعة وكانوا يطلون على بريدة ببيوتها الطينية المتراصّة، وشوارعها الترابية الضيّقة، وكانت أنوار فوانيس البيوت الباهتة تلوح على استحياء من خلال تلك الفرجات الضيقة. اخترقوا شارع «الخبيب» الذي كان خالياً تماماً، حتى إذا تجاوزوا «الجردة»، انحرفوا في شارع ضيّق بالكاد كان يتسع لمرور السيارة، وكانت رائحة «عقود» المرقوق تملأ المكان. وأمام منزل طيني بباب خشبي ضخم، مثل بقية البيوت في الشارع، أوقف الوالد السيارة وهو يردّد: «الحمد لله على السلامة... الحمد لله على السلامة... لقد وصلنا أخيراً».

طرقوا الباب بعنف لفترة قبل أن يأتيهم صوت نسائي ضعيف متهدج قائلاً: «منه... من عند الباب؟...»، عرفوا فيه صوت الجدة أم إبراهيم، فصاح الوالد: «أنا... أنا إبراهيم يا أمي...»، سمع صوت المزلاج الخشبي وهو ينسل من مكانه، والباب يفتح ويطل منه وجه جدته قد غطت فاها وأنفها بغدفتها، لم يظهر إلا عيناها الصغيرتان الدامعتان دائماً من أثر تراخوما مزمنة. كانت رجلاها لا تقويان على

حملها، ويداها ترتعشان وهي ترى ولدها أمامها، ولدها الذي لم تره منذ ثلاث سنوات، ولا تعرف أخباره إلا من خلال رسائل متباعدة وبعض «الأرزاق» أو النقود التي كان يبعث بها عندما تسمح الظروف. دخل الجميع، وأغلقت الجدة الباب وكان عناقاً حاراً بين الوالد وأمه، وهشام وجدته تخلّلته بعض الدموع. أما أم هشام فقد قبّلت جبين حماتها وهي تسأل بآلية: «كيف حالك يا خالتي؟...»، وترد أم إبراهيم بآلية أيضاً: «بخير... بخير يا بنيتي...»، وينتهي الحوار. كانت جدّته في حدود الخامسة والستين من العمر، إلا أنها تبدو أكبر من ذلك بكثير، فقد تكالبت عليها الأمراض وجعلتها لا تقوى على الحركة إلا بجهد. ورغم ذلك، كانت إلى السمنة أقرب، وما زال وجهها يحمل آثار جمال قديم، فقد كانت بيضاء البشرة بشكل لافت للنظر، وفم صغير وعينان واسعتان، أو كانتا واسعتين قبل أن تتلفهما التراخوما، وأنف أقنى «كسلة السيف»، كما كانوا يصفونه في الأيام الخوالي عندما كان يضرب المثل في جمالها. وكانت جدته من أسرة عريقة، ولم يستطع جده الزواج منها إلا بعد صعوبات وصعوبات، فقد كانت أسرة «العابر» أقلّ عراقة من أسرة «الثابتي» التي تنتمي إليها جدته، وأقل مالاً، ولم يشفع لجدّه في الزواج منها في النهاية إلا علاقة قربى بعيدة كانت تربط أسرتي «العابر» و «الثابتي»، بالإضافة إلى «مخاواة» جدّه لوالد جدّته في رحلات العقيلات إلى الشام ومصر. قادتهم الجدة إلى الداخل في طريق يعرفونها جيداً، فلا شيء تغيّر منذ زيارتهم الأخيرة. ساروا خلال الحوش الذي تتوسّطه «سكرية» قد تدلّت الشماريخ من عنقها، مثل حسناء من بنات أورشليم تغنّت بها مزامير داود ونشيد الانشاد، وعلى زاويته اليمنى يقع «البرج»، وعلى الزاوية اليسرى حظيرة صغيرة تضمّ بقرة وعنز يحوم

صغيرها حولها، وينتهي الحوش إلى مدخل المنزل الذي لم يكن كبيراً. كان يتكوّن من طابقين، الطابق الأول يتكون من «القهوة»، وهي أكبر غرف المنزل والمجلس الرئيسي في البيت، وبجانبه غرفة صغيرة تستخدم مستودعاً للأرزاق، وإلى جانبها غرفة أوسع قليلاً تستخدم لكافة الأغراض، فهي مطبخ ومجلس نساء وغرفة ضيوف طارئة. والطابق الثاني يحتوي على غرفتين صغيرتين منعزلتين، وأخرى أكبر قليلاً تطل على «القهوة»، تستخدم للنوم شتاءً، أمّا في الصيف، «فالطاية» هي المكان المفضل دائماً.

دخلت الجدة أم إبراهيم إلى «القهوة» أولاً وهي تصيح: «أبو إبراهيم... أبو إبراهيم... قرّت عينك» كان الجد يجلس وراء «الوجار» وهو يمسك «بمهفة» مزركشة من سعف النخل ملقاة في حجره، وقد أسند رأسه إلى أحد المساند وأغفى قليلاً. كان جدّه في أوائل الثمانينات من عمره، ولم يتزوج إلا في سن متأخرة، فقد شغلته الرحلات المتعددة والبحث عن لقمة العيش. رجل متوسط القامة: نحيف البنية، بل هو أميل إلى الهزال، أصلع الرأس من الوسط، غزير الشعر عند الأطراف، بلحية بيضاء طويلة وشارب محفوف بعناية. وكان الوجه نسخة من وجه أبي هشام: وجه مستدير تنتشر عليه آثار جدري قديم، وعينان صغيرتان، وأنف يميل إلى الخنس، مع فم صغير وبشرة حنطية وحاجبان كثيفان أبيضان.

فتح الجد عينيه بتثاقل وأخذ يحرّك المهفة بآلية وهو يقول: «بنبيك... بنبيك... خير إن شاء الله؟...»، ثم نظر إلى القادمين بعينين نصف مغمضتين وهو يقول بصوت خافت يتأرجح بين الشك واليقين: «إبراهيم!... هذا أنت؟»، ثم حاول النهوض وهو يردّد: «يا

هلا... يا هلا...»، وقبل أن ينهض بالكامل كان الوالد قد أكبّ على رأسه يقبّله، ثم جاء دور هشام الذي احتضنه جدّه بحرارة سمحت له بشمّ رائحة جدّه المميزة، وهي خليط من البخور ودهن العود ودخان الحطب. ثم جاء دور الأم التي قبّلت رأس حماها ثم ابتعدت، فيما جلس الوالد وهشام بجانب الجد حول الوجار.

أشعل الجد النار في الوجار، وفتح الطاقة العلوية بحبل كان إلى جانبه يرتبط بغطاء الطاقة، وأخذ الدخان الكثيف يتصاعد إلى الأعلى ويملأ الغرفة لعدة دقائق حتى تحول حطب «السمر» إلى نار صافية، فوضع الجد إبريق الشاي ودلّة القهوة على جانبي النار وأخذ يسأل ولده عن الأحوال ويعاتبه على قلّة الزيارة، والوالد يعتذر بمختلف المعاذير، فيما كانت الجدّة والوالدة قد جلستا غير بعيد عن «الرجال» بصمت. ثم فجأة نظر الجد إلى الجدة وقال بصوت كانت رنّة الحماس واضحة فيه: «أم إبراهيم... هل أرسلت أحداً لإبلاغ شريفة بوصول أخيها؟»، فنهضت الجدة وهي تقول بحماس أيضاً: «بل أذهب بنفسي...»، لم يكن بيت عمّته بعيداً، بيتان أو ثلاثة على الأكثر يفصلانها عن بيت أهلها. وما هي إلا دقائق وصوت شريفة الدقيق يسبقها قادماً من باب «القهوة» المؤدي إلى داخل المنزل وهي تصيح: «أين هشام... يا هشام...»، ثم ظهر وجهها الدقيق وقد خلعت عباءتها وألقت بها على أول مسند صادفها، واتجهت إلى هشام مباشرة، الذي كان قد نهض لاستقبالها وقد تحوّل وجهه إلى ابتسامة شاملة. بقيت شريفة عدة دقائق وهي تحتضن هشام وتقبّله في كل مكان يصل إليه فاها، ثم قبّلت رأس أخاها وعانقت إمرأة أخيها، وألقت التحية على والديها، ثم جلست بجانب هشام وهي تنظر إليه وتقول: «لقد كبرت يا هشام... أصبحت

شاباً وسيماً. . . آه لو لم أكن عمتك»، ثم تضحك بحبور وتقول: «لا بد من تزويجك كي تملأ البيت أطفالاً يحملون اسم عائلتنا. . .»، وتقبّله على وجنته وهي تضحك. عندما قالت شريفة جملتها الأخيرة، نظرت الجدة إلى أم هشام وأطلقت تنهيدة مكتومة، ثم تشاغلت بشرب فنجان القهوة في يدها. أما الوالدة، فقد شعرت بالحرج من نظرات حماتها، وتشاغلت هي الأخرى بفنجان القهوة.

كانت العلاقة بين الجدّة وكنتها متوترة، فقد كانت تريد لولدها أن يتزوج امرأة أخرى بعد أن تبيّن أن أم هشام غير قادرة على الإنجاب. وقد ازداد إلحاح الجدة كثيراً بعد وفاة ابنتها الصغرى هيلة بالسل وهي في ريعان الصبا، ولم تكن قد تجاوزت السادسة عشرة من عمرها، وكانت قبل ذلك قد رزئت بوفاة ولد لها صغير لم يكن قد بلغ العام الواحد. وفي كل مرة كانت ترى فيها إبنها، كانت تحرّض على الزواج قائلة له: «ليس لديك إلا ولد واحد، أطال الله في عمره، ماذا سيحدث لو، لا قدّر الله، حدث له شيء؟. . . هل ستبقى دون خلف يحمل إسمك من بعدك؟. . . لقد حلّل لك الشرع أربع نساء، وليس في شرع الله عيب. . .»، وكانت هذه الأحاديث تصل إلى أذن الوالدة، فتحسّسها بنقصها، وتشعر بالمقت تجاه الجدة، ولكن دو أن يقلّل ذلك من احترامها الظاهر لها. أما الوالد فكان يسمع كلام أمه ويعدها خيراً ويقول: «ما يصير بخاطرك إلا الطيب. . .»، ولكنه في الحقيقة كان مقتنعاً بحياته مع زوجته وولده، وإن كان بعض الأحيان يتمنى لو حصلت معجزة وأنجبت أم هشام أخاً له. وكانت شريفة تذهب إلى أخيها كلما رأت والدتهما قد اختلت به، وتقول له: «لا عليك من كلام الوالدة. . . إنها عجوز مخرفة. . . اسمع من هنا، وأخرج من هنا. . .»، مشيرة إلى

إحدى الأذنين ثم الأخرى، ثم تواصل: «إن هشام بعشرة أولاد، أعطاه الله طول العمر والصلاح»، وكانت أم هشام تسمع كلام شريفة، فتزداد محبة لها، ويزداد تعلّقها بها كلما رأت تعلّق هشام بها، وكلما لاحظت ذلك الشبه الكبير بين هشام وعمّته.

كانت شريفة تكاد تكون نسخة من هشام، أو هو نسخة منها. ذات الشعر الأسود الفاحم المسترسل، وذات الأنف والعينين والفم والوجه المثلث. كان الفرق الوحيد هو بشرة شريفة الأكثر سمرة. وهو يذكر عندما كان صغيراً، وكانوا يأتون لزيارة الأهل في القصيم، كان لا يلذّ له النوم إلاّ في أحضان عمته شريفة، التي لم تكن قد تزوجت بعد، ولم يكن يرتاح للنوم بجانب عمته هيلة، وكان ذلك يغضبها كثيراً. كانت لا تغفو له عين إلا حين يشم رائحة جسمها، وذلك المشموم الذي كانت تضعه على رأسها، ثم يدسّ أنفه في صدرها وينام. وعندما تزوّجت من إبن عمهم، سليمان العابر، أحس بالكره نحوه، وهو لا يودّه كثيراً حتى اليوم، رغم أنه في غاية اللطف معه، وكان في السابعة من عمره آنذاك. ويذكر أنه ليلة دخلتهما، أخذ يقذف الحجارة على باب الروشن الذي هما فيه، وكان نصيبه ضرباً مبرحاً من والده لا ينسى ألمه حتى الآن، وبقي فترة وهو غاضب على عمته التي أرضته في النهاية برشاويها من الحلوى و «القريض».

ـ ٥٣ ـ

كان الوالد يتحدّث دائماً عن «مطازيز» شريفة التي لا مثيل لها، وكان يمنّي النفس ليلة وصولهم بعشوة مطازيز أو «مرقوق»، ولكن لم

يكن هناك وقت «للطز» أو «الرق»، فاكتفت شريفة بصنع «بادية قرصان» كبيرة، مع اللوبيا وقطع كبيرة من «القفر». وعندما عاد الرجال من المسجد بعد صلاة العشاء، كانت بادية القرصان قد وضعت على «السماط» في منتصف «القهوة»، ورائحتها اللذيذة تملأ المكان. وشاركهم العشاء سليمان، زوج شريفة، الذي جاء للسلام ورافقهم إلى المسجد. كان رجلاً طويل القامة بشكل لافت للنظر، شديد السمرة، أجعد الشعر، وأطراف ضخمة مع تقاطيع وجه دقيقة للغاية، وأثار «قداح» تملأ يده المنى خاصة. أكل الجميع بنهم على ضوء الفانوس الخافت، فيما كانت النساء يجلسن في «الصفة». كان ألذّ شيء في بادية القرصان اللحم المجفّف وأعواد اللوبيا المجموعة إلى بعضها بخيط، بالإضافة إلى لبن البقرة الطازج المخضوض صباح اليوم نفسه. عندما انتهى الرجال من العشاء، كان قد تبقى القليل، وخاصة من اللحم، ولكنه كان كافياً للنساء. وبعد العشاء، اجتمع الجميع في «القهوة» يحتسون الشاي والقهوة، وكانت أم هشام هي الوحيدة التي تغطّي وجهها. وفي الحقيقة لم يكن غطاءً كاملاً، بل كانت ترفع «غدفتها» لتجعلها حاجزاً بينها وبين سليمان الذي كان يجلس حول الوجار مع الرجال، فيما كانت النساء يجلسن غير بعيد عن الباب الآخر للقهوة المؤدي إلى باب خروج الرجال. وقبل أن يستأذن سليمان في المغادرة، دعاهم إلى العشاء في الليلة القابلة، واعداً إياهم بمطازيز شريفة التي طلبت من أخيها وأم هشام السماح له بالمبيت عندها، فوافقا دون تردّد وكان هشام ذاته في غاية السرور لذلك. وانطلق مع عمّته الأثيرة ناسياً كل شيء... الامتحانات والاعتقالات، وأحسّ أنه في مكان لا يعلم عنه أحد، ولا يمكن أن يصل إليه أحد، في بعد لا علاقة لزماننا ومكاننا به. لا قلق ولا توتر ولا

خوف يمكن أن يخترق ذاته في هذا المكان، وعندما اضطجع على فراشه المعطر في «الطاية»، كانت قبلة عمته على جبهته آخر شيء يذكره من عالم اليقظة.

ـ ٥٤ ـ

عندما استيقظ صباح اليوم التالي، كان سليمان قد غادر إلى متجره في «الجردة»، وكانت عمّته قد أعدّت له إفطاراً فاخراً من البيض المقلي بالسمن البلدي، وحليب طازج ساخن كثير السكر، وبعض «المصابيب» وإلى جانبها زبدة بيضاء طازجة، بالإضافة إلى الشاي. جلست بجانبه تحثه على الأكل دون أن تأكل معه، وهي تهشّ الذباب الذي كان يلتصق بالأشخاص والأشياء وكأنه مدفوع إليها بجاذبية لا تقاوم. كان يحبّ عمته ويشفق عليها في الوقت ذاته، فرغم سنوات زواجها الطويلة، إلا أن الله لم يمنّ عليها بطفل تقرّ به عينها ويؤنس وحدتها. لقد حملت وولدت عدة مرات، ولكن لا يعيش منهم أحد، دون أن تعلم السبب. عرضت نفسها على بعض «المطاوعة» والشيوخ الذين جرّبوا معها كل أنواع الرقى والأعشاب، ولكن دون فائدة. وأخيراً أسلمت أمرها للقدر حين لم يصبح أمامها حل آخر، بل وطلبت من زوجها الزواج بأخرى إذا كان راغباً في الأطفال، وأبدت استعداداً للبحث له عن هذه الزوجة، ولكنه أبى. ومنذ ذلك الوقت وهي مكرّسة وقتها لبعث البهجة والسعادة في حياة زوجها وخدمته قدر ما تستطيع. وقد كان تصرف سليمان غريباً في مثل هذه الحالات، ولكنه كان مثل إبن عمه أبي هشام زاهداً في الزواج بأخرى ويكرّر دائماً القول إن الأطفال ليسوا دائماً مصدر السعادة، ولا

يهمّه أن يحمل أحد إسمه من بعده. كانت مثل هذه النظرة مستهجنة من الجميع، ولكن لا أحد يستطيع إجبار سليمان على شيء، خاصة وأن والده قد مات بعد مولده بعدة أشهر في سنة «السبلة»، وماتت أمه بعد ذلك بسنوات قليلة وربّاه أحد أخواله الذي كان كثير الأولاد. أحسّ بالسأم يحيطه بعد أن تناول إفطاره، وذهبت عمّته لعجن عجين المطازيز، وخبز القرصان، وحلب البقرة وخضّ حليبها، ثم تنظيف المنزل، قبل أن يعود سليمان بعد الظهر ومعه الخروف الذي سيذبحه. فكّر في الذهاب في جولة في المدينة، ولكن إلى أين يذهب؟ ليس هناك ما يمكن أن يشاهد، وهو لا يعرف أحداً هنا، فليس هناك أفضل من القراءة. عاد إلى المنزل، وكان جدّه قد خرج للجلوس مع أصحابه في «المشراق» ثم التجول في الجردة، وكان والده لا يزال نائماً، فيما كانت أمه تنظف المنزل وجدته تخض اللبن. أخرج «الحرب والسلام» من حقيبته، ولكنه ما لبث أن ألقاها جانباً، ثم التقط «العقب الحديدية»، وصعد إلى «الروشن» وغاب مع العمال في أزقّة شيكاغو.

ـ ٥٥ ـ

كان سليمان قد دعا كل أتراب أبيه وأصحاب الطفولة الذين كان والده يتحدّث عنهم كثيراً: عبد العزيز الضب، وعبد الله الجرادة، ومحمد الطلي، وصالح الذيب، وعبد الرحمٰن الصقراني، ودحيم القميري، وعثمان الصعو، وسليمان الجريو، وغيرهم ممّن لا يعرف أسماءهم. وكان البعض قد اصطحب أبناءه معه، فقد كان هناك أربعة فتيان يماثلونه في السن.

وفيما انتشر الرجال في أرجاء «القهوة»، كان الجد والأب يجلسان في «المحكمة» قريباً من سليمان الذي يجلس وراء الوجار مباشرة يعدّ الشاي والقهوة، ويجلس الفتيان الخمسة قريباً من الباب في آخر المجلس. كان من الواضح أن الفتيان الأربعة يعرفون بعضهم بعضاً، فقد كانوا يتحدثون عن «الكشتات» والنفود والدغمانيات وعين وهطان، أماكن لا يعرفها هشام، ولذلك كان صامتاً طوال الوقت ينظر إلى الجميع ويبتسم دون أن يكون قادراً على المشاركة. تمنى تلك اللحظة لو كان بين أصحابه في الدمام حيث يعرفه الجميع ويعرف الجميع، فالغربة أشدّ أنواع العذاب.

كان يجلس إلى جانبه فتى في مثل سنّه، وفي مثل بنيته وإن كان أقصر قليلاً. كانت الشمس قد تركت آثارها على وجهه، فقد كان شديد سمرة الوجه بالرغم من أن ساقه المكشوف إلى النصف تقريباً، أفتح لوناً. كان في غاية الوسامة بالرغم من أن تقاطيعه كانت في غاية الضخامة: شفتان كبيرتان غليظتان، أنف كبير مستقيم، وعينان هما أصغر ما فيه. عندما وجد هذا الفتى أن هشام لا يشارك في أحاديثهم، نظر إليه باسماً وقال دون مقدمات:

ـ إلا «تكشتون» في الشرقية؟ . . . أم أنكم تأمركتم؟

ـ بالعكس. . .

قال هشام:

ـ نحن لا نرى الأميركان، فهم لا يعيشون معنا، بل لهم «كمب» خاص بهم. . . ولكني لا أعرف أحداً هنا، ولا أعرف عمّا تتحدّثون. هذا كل ما في الأمر

أحسّ هشام ببعض السعادة عندما وجد شخصاً يتحدّث إليه. ابتسم الفتى الوسيم مرة أخرى، كاشفاً عن أسنان كبيرة غير منتظمة، في غاية البياض إلا أن صفرة خفيفة تعلّت الأسنان الأمامية، وقال:

ـ إذاً سوف أريك القصيم، إنها أجمل مما تتصوّر عندما تعرفها وتتعمّق في مجاهلها... وسوف أعرّفك على أصحابنا، إنهم من خيرة الشباب، وسوف ترى ذلك بنفسك.

وصمت الفتى ثم قال وهو يمد يده مصافحاً هشام بطريقة بدت له غريبة وغير مناسبة:

ـ على فكرة... أنا اسمي محيسن. إسمي عبد المحسن ولكنهم ينادونني محيسن. عبد المحسن التغيري. طالب في الثانوية...

ـ وأنا هشام... هشام العابر. كنت طالباً في الثانوية. أرجو ذلك...

ـ إذاً أنت في التوجيهي... وكذلك أنا. يا «محاسن» الصدف.

وضحك الاثنان، وكان محيسن يغطي فمه بعض الأحيان بطرف غترته عندما يضحك لسبب لفت انتباه هشام ولكنه لم يدرِ سببه، ثم قال محيسن:

ـ سوف «نكشت» غداً إلى الراشدية... سترافقنا طبعاً.

ـ بالطبع... بالطبع.

ـ سنمرك غداً صباحاً... كن مستعداً.

وأجاب هشام بهزّة من رأسه، وهو لا يدري ما هي هذه «الراشدية» التي يتحدث عنها. في هذه اللحظة، كان سليمان قد أتى بالسماط

ووضعه في منتصف المجلس، ونهض هشام، بإشارة من أبيه، لمعاونته في جلب الطعام. تعاون الاثنان على جلب الطبق الرئيس: صحن كبير ممتلىء بالأرز، وعلى قمّته خروف كامل بهيئته الكاملة دون تقطيع، وقد تربّع الرأس في الوسط، وتناثرت على الجنبات الكبدة وقطع الكرش والأمعاء الملفوفة على بعضها، وبعض البيض المسلوق، ويزين كل ذلك بعض الزبيب والصنوبر. ثم جاءت «بوادي» الجريش والقرصان والمرقوق والمطازيز، مع قطع كبيرة من «القفر» تعلوها، ثم اللبن الطازج، وصحون التمر الصغيرة، وطبقان كبيران من الفاكهة. وكان محيسن وبقية الفتيان يعاونون في إعداد المائدة. وبعد أن اطمأنّ سليمان إلى أن كل شيء على ما يرام، دعا الجميع إلى المائدة، فتقدمهم الجد ثم الوالد ثم البقية وهم يجرّون بعضهم بعضاً، كل يدفع الآخر ليتقدّمه. وعندما تحلق الجميع حول المائدة، قال سليمان الذي يقف وهشام على الرؤوس: «سمو... سمو حيّاكم الله... بالسنة عيدين وهذا الثالث. بارك الله في أبو هشام اللي جمعنا»، ثم دعا الجالسين للجلوس، فجلس هو وهشام، وأخذت الأيدي الممدودة تنهش كل شيء أمامها.

- ٥٦ -

في صباح اليوم التالي، كان هشام يجلس في القهوة بجانب جده وأبيه، وكان الاثنان يتناولان إفطاراً من التمر والقهوة المرة، فيما كانت الوالدة تجلس وراء الوجار تعدّ الشاي لها وللجدة التي كانت تجلس على الطرف الآخر من الوجار تتناول القهوة بهدوء ولذّة. كان هشام ينتظر محيسن كما وعده بالأمس، وكان يسلّي نفسه بتناول حبيبات من التمر

دون جوع حقيقي. ثم سمع طرقاً على باب الرجال الخارجي، وصوت بوق سيارة متقطع، لا بدّ أن يكون محيسن. ودع الجميع ودعوات الجد والجدة من خلفه، ووالده يحضّه على عدم التأخير فيما كانت الوالدة صامتة تتمتم شفتاها بكلام غير مسموع، ولكنه كان يعلم أنها تقرأ آية الكرسي والمعوذتين.

عندما خرج من الباب، وجد سيارة نقل صغيرة من نوع «شفر» موديل قديم، بلون أحمر تنتظره عند الباب، وكان محيسن يجلس وراء «الدركسيون» وبجانبه شخص أسمر الوجه، دقيق التقاطيع دون أن يكون ذلك مترافقاً مع وسامة، ومع ذلك كان وجهه يبعث على الراحة من أول نظرة، أجعد الشعر، يلبس نظارات شمسية غامقة اللون، وكان يلبس طاقية صغيرة بالكاد تغطي منتصف رأسه، وقد وضع غترة بيضاء على كتفه الأيمن. وفي صندوق السيارة، كانت هناك احتياجات «الكشتة»، وأربعة أشخاص ملثمين بغترهم البيضاء. لم يكن هناك ما يلفت الانتباه في هيئة هؤلاء الأشخاص، فقد كانوا مثل أي شخص تراه في الشارع، ما عدا واحداً. كان فارع الطول بشكل كبير، فقد كان واقفاً يتحدث مع محيسن عندما خرج هشام: نحيف جداً لدرجة الهزال، أبيض البشرة بشكل غريب، وشعر خروبي طويل يلامس أطراف كتفيه، ووجه مستطيل، وأنف مستقيم، وجبهة واسعة جداً لم تستطع الغترة والطاقية أن تستوعبها كلها.

هبط الشخص الذي كان يجلس بقرب محيسن ودعا هشام للركوب مكانه، إلا أن هشام أبى أن يحتلّ مكانه، واتجه إلى الصندوق، فجذبه ذلك الشخص قائلاً: «هناك متسع للجميع...»، فركب هشام ثم ركب الشخص بجانبه، وانطلقت السيارة وصوتها يملأ المكان، ودخانها ينتشر

في ذلك الزقاق الضيق، وأصوات الأربعة في الخلف تصيح وقد تخلّلها الضحك: «على هونك يا محيسن... ارفق. ارفق يا أخي. ما حنّا بغنم»، وعندما أصبحت السيارة في شارع الخبيب، أشار محيسن إلى الشخص الثالث قائلاً:

ـ أعرّفك بواحد من أعزّ أصدقائي... محمد الغبيرة.

ثم وهو ينظر إلى محمد ضاحكاً:

ـ وهذا هشام العابر... من قصمان الخارج.

وضحك الثلاثة ثم قال محيسن:

ـ وسوف يكون من أصدقائنا...

ونظر إلى هشام وقد افترّ ثغره عن بسمة صافية.

لا يدري كم من الوقت مضى وهم يسيرون صعوداً وهبوطاً في كثبان من الرمل الناعم، وتحت أشعة شمس حارقة، وكل ما حولهم يوحي بالجفاف وانعدام الحياة، إلا من نخيلات هنا وهناك لا يدري بأي قوة استطاعت أن تعيش في مثل هذه الظروف. وقبيل انتصاف النهار بقليل، أشرفوا فجأة على رقعة خضراء واسعة، مليئة بالأشجار من كل نوع، وتحيط بها رشاشات ماء يراها لأول مرة، ترش الماء في كل مكان. علت ضجة الذين في الصندوق، وابتسم محيسن وهو يقول بحماس: «الراشدية...».

اختار محيسن بقعة قصية في المزرعة، تحيط بها أشجار الرمان والحمضيات، وأوقف السيارة حيث تقافز منها أهل الصندوق وهم يصيحون بحماس، ثم هبط محمد وهشام ومحيسن الذي أمسك هشام من أطراف أصابعه وهو يقول:

ـ تعال أعرفك ببقية الربع...

ثم سحب هشام إلى حيث يقف الفتيان الأربعة وهم ينفضون الغبار عن ثيابهم حول السيارة، قائلاً بصوت مرتفع:

ـ يا شباب... يا شباب...

فلما تيقّن من لفت الانتباه، وضع يده حول كتفي هشام قائلاً:

ـ هذا هشام العابر... من الشرقية.

ثم وهو يضحك:

ـ هو «خبي» في الحقيقة، ولكنه يعيش في الشرقية.

ـ خبي ورافضي... ما صارت... الله يرحم إبن عبد الوهاب.

قال أحد الفتيان، وانطلق الآخرون في قهقهة عالية وهم يعلقون: «غربلك الله يا سليم، ما تبطل سواليفك... لا وتقول إنك تقدمي، عزّ الله إنك مؤخري...»، ويقهقهون مرة أخرى. وعندما هدأت عاصفة الضحك، أشار محيسن إلى الفتى الطويل قائلاً:

ـ وهذا دعيس الدعيس... لا يغرك اسمه «الغبق»، فهو من أذكى الشباب...

ثم إلى الآخرين:

ـ وهذا سليم السنور. صالح الطرثوث. ومهنا الطعيري...

وتصافح الجميع ثم أخذوا في إنزال المعاميل والأطعمة من السيارة، فيما كان محيسن ومحمد يجمعان بعض الحطب من الجوار.

جلسوا على «حنبل» مهترىء جلبوه معهم، وفرشوه تحت ظلال أشجار الحمضيات، وغير بعيد عنهم كان محمد الغبيرة مشغولاً بإشعال

النار بعيداً عن الأشجار، وإعداد الشاي، وصالح الطرثوث يقطع البصل والطماطم لإعداد الكبسة. كان الجو هناك بديعاً للغاية، فظلال الأشجار والرطوبة اللذيذة التي تنشرها رشاشات الماء أشبعت كل شيء بالانتعاش. ومع بيالات الشاي التي أخذ محمد في توزيعها على الجالسين، قال دعيس بصوته الأخن، وهو يرتشف الشاي بصوت مسموع:

ـ لقد انتهيت البارحة من قراءة «البؤساء». . . يا لها من رواية.

وبعد أن ارتشف جرعة كبيرة من الشاي، ولعق شفتيه ثم «تمطق»، قال:

ـ هل تصدقون أني بكيت عندما مات «جان فالجان»؟

وضحك مهنا الطعيري وقال:

ـ أمرك غريب يا دعيس. . . مثل إسمك.

وضحك وهو يلتفت حوله وقد أمسك بيالة الشاي من عروتها، فلما لم يجد من يضحك معه، أمسك عن الضحك وقال:

ـ أمرك غريب يا دعيس. . . تحمل كل هذا الذكاء والثقافة، وتبكي عند قراءة رواية مثل العذارى في الخدور!

وببرود شديد قال دعيس:

ـ وما الغرابة؟. . . الإحساس عنوان الذكاء.

ثم وهو يرتشف آخر قطرة من الشاي:

ـ ولكن ما أدراك أنت. . . فشتّان بين الحساس والحشاش.

وضجّ الجميع بالضحك، وكان الحرج واضحاً على مهنا رغم أنه

شارك الجميع ضحكهم باقتضاب، وكان محيسن أكثرهم ضحكاً فقد أخذت عيناه تدمعان وهو يمسحهما بطرف غترته الملقاة إلى جانبه. وبعد انتهاء عاصفة الضحك، جاء صوت صالح الطرثوث من بعيد، وهو يمسح عينيه بطرف يده، وينشق بشدة:

ـ أما سمعتم الأخبار... يقولون أن جمال قبل مبادرة روجرز للسلام.

ـ لا بد أن أسباباً قاهرة دعته لذلك.

قال محمد...

ـ أو أنها خطة لكسب الوقت.

قال محيسن.

ـ أكيد أبو خالد يعرف ماذا يفعل، ويعلم ما لا نعلم... كونوا على ثقة أنه يعرف مصلحتنا حتى لو لم نعرفها.

قال مهنا الطعيري وهو يشرب الشاي بهدوء وكأنه جهينة في زمانها. وصمت الجميع وهم يهزّون رؤوسهم مؤمنين على كلام مهنا. كان هشام ينظر إليهم ويتذكر تلك الجلسة في الدمام مع إبراهيم الشديخي، إنهم مهووسون بجمال مثل إبراهيم. وبعد صمت قصير، قال سليم السنور:

ـ يقولون إن جمال مريض، وكانت رحلته الماضية للاتحاد السوفييتي للعلاج...

ثم وهو ينظر للأرض بوجوم:

ـ فال الله ولا فالك يا شيخ. أعطاه الله طول العمر.

قال محمد الغبيرة.

ـ لو حصل له شيء فإن العرب سيضيعون. . .

ـ معك حق.

قال مهنا الطعيري:

ـ ولكني لا أخشى عليه المرض. الخوف من المؤامرات. رجل مثله لا يمكن أن تتركه أميركا واستخباراتها.

وبحماس غير معهود من دعيس قال:

ـ إنهم يعلمون أنه هو كل الأمة العربية، فإذا مات أو قتل، ماتت معه الأمة. . .

وأبدى الجميع الموافقة على كلام دعيس بهزّ الرأس المتواصل، ثم ساد الصمت وأخذوا يستمتعون بنسمة هواء رطبة هبّت فجأة. كان هشام صامتاً خلال ذلك، يستمع وهو يبتسم دون تعليق. ثم توقفت نسمة الهواء فجأة كما هبّت فجأة، والتفت محيسن إلى هشام قائلاً:

ـ نحن لم نسمع صوتك يا هشام. . . أم أن أهل الشرقية لا يتكلّمون في السياسة؟. كتموكم الأميركان. . .

وضحك الجالسون وهم ينظرون إلى بعضهم بعضاً، فيما بقي هشام مبتسماً وأطياف الرفاق تمرّ في ذهنه، ثم قال سليم:

ـ حقاً. . . ما رأيك يا أخ هشام؟

ـ أرجوك يا أخ سليم، ليس بيننا تكليف.

ـ زين. . . ما رأيك يا هشام؟

ـ في ماذا؟

ـ هل تعتقد أن الأميركان سوف يتركون جمال؟. . .

وأخذ هشام ينظر إليهم للحظات وقد انصبّت أنظارهم كلها عليه. . . هؤلاء الفتية مهووسون بجمال عبد الناصر، وهو نفسه يحمل مشاعر متناقضة لا يستطيع أن يمنحها الانسجام تجاه الزعيم. فهو يحبه ويحاول في داخله أن يجد مبرّرات لسياسته مهما كانت، وللهزيمة المُرّة التي مُنِي بها العرب في حزيران، وقبوله مبدأ السلام مؤخراً والتخلّي عن فلسطين ٤٨، مثل علاقة أي محبوب مع محبوبه. ولكنه كان عضواً في حزب يعادي الزعيم ويرى فيه خطراً على فكر وكيان الحزب، ورغم تخلّيه عن الحزب وكرهه له بعد أن عرفه من الداخل، فإنه لا يستطيع نسيان أدبيات الحزب ونقدها لنهج عبد الناصر. وهو يتبنّى فكراً ماركسياً لا يعتقد بدور البطل في التاريخ، بل هي التناقضات المادية والاجتماعية التحتية، وانعكاساتها الفوقية السياسية والثقافية، والتعبير الذي يجده كل ذلك في صراع الطبقات وحركة الجماهير في التاريخ. إن الفكر الذي يحمل لا يرى في جمال إلا فرداً يعبّر عن حركة طبقة ولا شيء خارق للعادة في ذلك.

ـ لا أدري. . .

قال هشام:

ـ ولكن سواء قتل أو مات. . . فهو ليس خالداً. سيموت يوماً ما. أليس كذلك؟

ولم يقل أحد شيئاً:

ـ وعندما يموت، فهل تموت الأمة؟

ـ فال الله ولا فالك يا شيخ. . .

قال مهنا:

ـ أنا لا أتصور الحياة من غير جمال.

ـ المهم... هل ننتهي بنهاية جمال؟

قال هشام، فيما كان مهنا ينظر إليه بنظرات كلها ريبة، ثم قال محيسن:

ـ ماذا تقصد يا هشام؟

ـ أقصد أننا يجب ألا نربط مصيرنا بمصير رجل مهما كان مهمّاً، فهو رجل في النهاية، والرجال يموتون... فهل نموت بموتهم؟

وصمت الجميع فيما كان التوتر قد بدأ يظهر جلياً في حركات مهنا، فقد كان يغير جلسته كل حين، ويشرب الشاي بسرعة عجيبة. وهنا طرح هشام ما كان يريد:

ـ نحن بحاجة إلى فكر قادر على إنارة الطريق، سواء كان هناك زعيم أو لم يكن... الفكر هو الذي يخلق الرجال وليس العكس.

ـ ولكن جمال ليس رجلاً وحسب، إنه فكر أيضاً... عندما يموت، لا قدّر الله، فإنه سيكون موجوداً بفكره.

قال محمد الغبيرة وهو يحرّك يديه في كل اتجاه بحماس، فيما كانت بسمة واسعة تحتل وجه مهنا الذي كان يهزّ رأسه وهو يردد: «أحسنت... أحسنت»، ثم قال هشام، مسترجعاً بعض ما قرأ من أدبيات الحزب:

ـ ما يطرحه جمال مجرد شعارات... أهداف عامة وليست فكراً.

ـ يا سلام... كل ما قدمته ثورة يوليو، والإصلاح الزراعي، والقوانين الاشتراكية مجرد شعارات... أنت متحامل يا أخ هشام.

قال مهنا بلهجة ساخرة. وبشيء من العصبية قال هشام:

ـ نعم شعارات... كلمات لا أكثر. أرفع رأسك يا أخي. حرية اشتراكية وحدة. إن حرية الكلمة هي المقدمة الأولى للديموقراطية... مجرد كلام لا يطبّق، وشعارات ليس وراءها فكر متكامل. هل تسمّون هذا فكراً أو منهجاً؟

قال هشام ذلك وأخذ ينظر إلى مهنا الذي كان على وشك الانفجار، وانفجر عندما أنهى هشام كلامه وأخذ ينظر إليه:

ـ وما هو الفكر إن لم يكن ذلك؟... لقد حدّد الأهداف والسبيل إليها. حرية الكلمة سبيل الديموقراطية، والحرية والوحدة والاشتراكية أهداف معروفة لا تحتاج إلى شرح وفذلكة. وهناك «فلسفة الثورة» و «الميثاق» و «بيان ٣٠ مارس»، وكتابات أنور السادات عن الثورة وجمال، أليس هذا فكر... ماذا تريد أكثر من ذلك؟

وصمت مهنا وهو يلتقط أنفاسه المتهدجة، وينظر إلى الجالسين الذين كانوا في غاية الحماس والترقب وهم ينظرون إلى مهنا بإعجاب. وأحس هشام بالحرج والتوتر في هذا الجوّ الناصري المتحمّس الذي لم يعهده في الدمام. الجميع يحبّون جمال هنا وهناك، وليس بهذا الهوس الذي يجده في القصيم، ولكن يبدو أن أهل القصيم متطرّفون في كل شيء، فهم إما يحبّون أو يكرهون ولا وسط عندهم، يؤمنون أو لا يؤمنون، ولا منطقة وسطى بين الجنّة والنار. وكان يخشى إن هو تمادى في النقاش أن يقوم مهنا خاصة باللجوء إلى ما هو أبعد من الكلمات، وهو بطبعه يكره ويخاف مما هو أبعد من الكلمات، وآثر الصمت وترك مهنا يتمتع بانتصاره.

وفيما كانت الأنفس ثائرة، والنظرات تتابع بعضها، نهض صالح وهو يقول:

ـ لا بد من البدء بإعداد الكبسة. هذا إذا كنتم تريدون الغداء!

واتّجه إلى حيث النار وتبعه سليم للمساعدة. وضع صالح اللحمة والطماطم والسمنة والبصل والملح مع بعضها بعضاً، وأضاف الماء ثم وضع القدر على النار. كان محيسن يراقبه وهو يفعل ذلك فقال له مستغرباً:

ـ ما هكذا تعدّ الكبسة... عليك بحمس اللحمة والبصل في السمنة أولاً، ثم تضيف الطماطم والماء والملح لاحقاً.

وضحك صالح وهو يقول:

ـ هذه طريقة تقليدية قديمة ومتعبة... هذه الطريقة أسرع وأسهل.

ـ إيه... الله يستر...

قال محيسن مستسلماً، ثم محذّراً:

ـ المهم... لا يعجن الرز.

ـ لا تخاف... أخوك طباخ.

قال صالح وهو يضحك، ثم وضع الغطاء على القدر وتركه على النار وأخذ يتجوّل في المزرعة بعد أن صبّ لنفسه بيالة شاي أخذ يرتشفها وهو يمشي. كان مهنا مأخوذاً بانتصاره في النقاش، وثملاً بنظرات الإعجاب التي حازها من الربع، فأراد إطلاق رصاصة الرحمة على ضحيته. التفت إلى هشام وهو يرفع رأسه وينظر إليه بطرف عينيه قائلاً:

ـ ها. . . لم تقل شيئاً يا أخ هشام! أم أنك اقتنعت؟

كان يريد اعترافاً صريحاً من هشام بالهزيمة أمام الجميع، ولم يكن الصمت كافياً. وأحسّ هشام بالمهانة المبطنة في سؤال مهنا، وشعر بالدماء تغلي في عروقه وكأنه على وشك الانفجار، ولكنه تمالك نفسه وحاول أن يكون هادئاً قدر الإمكان وهو يقول:

ـ لم تقل شيئاً مقنعاً يا أخ مهنا.

وعاد التوتر إلى وجه مهنا وحركته، وتحفّز الآخرون فيما هشام يواصل الحديث وكله قلق في الداخل، ولكنه يحاول تمالك جماع نفسه:

ـ عندما تتحدث عن الحرية والاشتراكية والوحدة، فأنت تتحدث عن مفاهيم وأمور غير واضحة المعالم حتى بالنسبة لجمال نفسه. . . من المؤكّد أنك لم تقرأ محاضر مباحثات الوحدة بين البعثيين وجمال، أو بالأصح بين عفلق وجمال، لأنك لو فعلت لتبيّن لك أن الخلاف كان حول هذه المفاهيم، رغم أنهم يتّفقون عليها وإن اختلف الترتيب. . . أما ما ذكرت من كتب ومصادر، فهي كلام عام لا يودي ولا يجيب. . . يعني كل شيء وأي شيء ولا شيء. . . نحن بحاجة إلى فكر شامل يستوعب الماضي والحاضر وينير طريق المستقبل.

أنهى هشام حديثه وهو يحاول إنهاء النقاش بأية طريقة، فطرح كل ما عنده بصراحة ووضوح وحسم. إلا أن مهنا لا يريد تركه في حاله، فقال وقد تدلّت نصف ابتسامة من أحد جوانب فمه:

ـ حسناً يا أخ هشام. . . إذا كان جمال وفكره لا يعجبانك، فما هو في رأيك الفكر المنقذ؟. . .

قال ذلك ورنّة السخرية تفوح من صوته، وفيما كان هشام يهمّ

بالحديث، قاطعه مهنا قائلاً:

ـ أرجو ألاّ تتحدث عن البعثيين أو القوميين العرب أو حتى الدراويش من الإخوان المسلمين... كل هؤلاء سذج ومزيّفون... إذا كان الفكر الذي تتحدّث عنه هو فكر من هذا النوع، فأرجو المعذرة حين أقول إنك ساذج لا تدري شيئاً.

كان مهنا يعتقد أنه سدّ كل المنافذ في وجه هشام الذي وصل به الإحساس بالمهانة إلى أقصى الحدود، فألقى آخر أوراقه عندما قال:

ـ كلا... كلا... لا هذا ولا ذاك... إنها الماركسية.

واشرأبّت الأعناق جميعاً نحو هشام، الذي شعر بسعادة طاغية في تحوّله إلى محور الاهتمام وقال بهدوء وثقة غير مصطنعة هذه المرة:

ـ نعم الماركسية... هي الفكر العلمي الشامل القادر على منحنا مفاتيح التاريخ والمجتمع والسياسة، ومن لديه مثل هذه المفاتيح، لا خوف عليه ولا هو يحزن.

ـ تعني الشيوعية؟!...

قال مهنا بمكر.

ـ هل أنت شيوعي يا هشام؟..

تساءل محيسن مستنكراً:

ـ الشيوعية؟... يعني الكفر بالله.

قال صالح مستغرباً...

ـ يعني انعدام الحرية.

قال دعيس مستهجناً.

ـ الشيوعيون والبعثيون والأخوان أعداء جمال. . . أنا أكرههم.

قال محمد وهو ينظر إلى هشام باستنكار.

ـ أنا أحب السوفييت، ولكني لا أثق بالشيوعيين العرب. إنهم أعداء القومية العربية. . .

قال سليم.

انتظر هشام حتى هدأت التعليقات، وقد أحسّ بالخوف يغزوه من الداخل، ثم قال وهو يحاول جمع كل شجاعته:

ـ نعم الماركسية بصفتها فكراً وفلسفة. . . أنا لست شيوعياً ولا أؤيّد أيّاً من الأحزاب الشيوعية العربية. . .

ـ يا سلام. . .

قال مهنا ساخراً:

ـ وهل هناك فرق بين الماركسية والشيوعية يا حضرة الرفيق المبجّل؟!

ـ نعم. . .

قال هشام بحدّة وقد فقد أعصابه:

ـ نعم يا حضرة الإِمعة الذي يأسره معسول الكلام ويجري وراء الرجال.

ـ أنا إمعة يا زنديق يا ملحد يا من تتناكحون دون قيد ولا شرط.

وتوتر الجوّ بين الاثنين وبقي هشام صامتاً ومنزوياً في مكانه، فيما كان مهنا ينهض وهو يقول بغضب مشيراً إلى هشام:

ـ الشرهة مهيب على هذا. . . الشرهة على محيسن اللي عزمه.

ثم اتجه إلى المزرعة وأخذ يسير بسرعة في أول اتجاه صادفة. وران الصمت القلق على الجميع لم يلبث محمد أن شتّته وهو يقول:

ـ يكفي حكي يا جماعة... ما تبون نلعب بلوت.

واتجه إلى السيارة دون انتظار إجابة وأحضر ورق اللعب، حيث تقابل محمد ومحيسن، وسليم وصالح، فيما نهض هشام ودعيس وأخذا يتمشيان في المزرعة في اتجاه معاكس لاتجاه مهنا، وصوت صالح يصل إليهما وهو يصيح:

ـ الكبسة تبي تكون جاهزة بعد نصّ ساعة... لا تتأخروا...

ـ ٥٧ ـ

مرّت أيام القصيم على خلاف ما توقع، فقد كانت جميلة وسلسة بعد أن تعرف على الأصدقاء الجدد، رغم صدمة الماركسية التي أعلنها في «كشتة» الراشدية. توطّدت علاقته أكثر بدعيس الدعيس، ومحيسن التغيدري، ومحمدالغبيرة، أما مهنا الطعيري فقد كانت كشتة الراشدين مسك الختام والبداية. كان يراه بعض الأحيان في سهرات البلوت عند بقيّة الربع، ولكنهما لا يتحدّثان، مجرد سلام تقليدي لا أكثر. كان مهنا يحاول فتح مواضيع سياسية يكون محورها جمال، ولكن هشام يبقى صامتاً ويلعب البلوت دون أن يعلق بأية كلمة.

وخرج مع «الشباب» في كشتات كثيرة إلى مزارع عنيزة، و «الدغمانيات»، التي كانت جنة حقيقية، وعيون الماء المشتعلة، وأماكن أخرى كثيرة جميلة لا يذكر أسماءها. ولكن أفضل الكشتات كانت كشتات النفود في الليالي البيض، حين يكون القمر بدراً، حين يذهبون

للسهر على كثبان الرمل الناعم البارد، حيث لا شيء إلا ضوء القمر وصوت النار وهي تلتهم أعواد «الرمث»، في سكون مطلق وسكينة كاملة، وكأن أبواب السماء فتحت في ليلة قدر خالدة. وكانوا ينامون بعض الأحيان هناك، ويستيقظون مع قطرات الندى الأولى قبل شروق الشمس، حين يكون الرمل في برودة السكينة ذاتها، ثم ترسل الشمس خيوطها الذهبية بحنان وعشق قبل أن تتوحش بعد حين. وعندما عاد إلى الدمام، بقيت ذكريات هذه الرحلة في ذاكرته، وكان عازماً على تكرارها بعد حين، ولكنه حين فعل ذلك بعد زمن، كان كل شيء قد فقد لذّته وبراءته.

لم تكن رحلة الإياب بمثل صعوبة رحلة الذهاب، فقد تعلم والده درساً لن ينساه. لقد اتفق مع إحدى «البوكسات» التي يقودها ساقة محترفون يعرفون دبيب النملة في الصحراء، على المرور عليهم صباح يوم السفر للسير خلفها في متاهات «جيب غراب». كان هشام في غاية الشوق «لربعه» في الدمام ولنورة، ولكن قلق نتيجة الامتحان والاعتقالات كان يعكّر لذة الترقّب في ذلك الشوق. وكان يوم السفر مؤلماً حقاً، حين تجمّع جده وجدته وعمته لوداعهم الوداع الأخير. كانت الدموع تنسكب من عيني عمّته بشكل كثيف، وكان جدّه يغالب البكاء، والجدة غير قادرة على الكلام. وكانت عمته قد أعدّت الكثير من أقراص «الكليجا» و« قرص عقيل» أتت به صباح يوم السفر وهي تشدّد أن ذلك لهشام. وعند لحظة الوداع، عانقته عمته طويلاً وهي تحاول رسم بسمة على ثغرها الصغير، ولكنها لم تفلح في كبح جماح دموعها. وعندما ركبوا السيارة وتحركت في طريقها، نظر نظرة أخيرة إلى الباب الخشبي حيث كان يقف جده وجدته وعمته وسليمان، ولم يكن يدري ما يخبئه

القدر، وأن ذلك كان آخر العهد بهم. فقد توفيت عمته بمرض غريب لم يمهلها طويلاً، ولحقها بعد فترة ليست طويلة جده أولاً ثم جدته. وصلته أنباء وفاتهم في جدة، وود ساعتها لو كان باستطاعته إرجاع عقارب الزمن ليطبع قبلة أخيرة على وجنة عمته وجبهتها، ويشم رائحة جده للمرة الأخيرة.

ـ ٥٨ ـ

لم يعرجوا على بيت الخال في الرياض في طريق العودة، بل واصلوا السفر إلى الدمام، التي وصلوها فجر اليوم الثاني لمغادرتهم. لم ينم ذلك اليوم، فقد ذهب للمدرسة وعرف أنه قد نجح وحصل على التوجيهية، وأعطاه ذلك إحساساً بالأهمية والقدرة. لم يكن نجاحاً مميّزاً، أو حتى متوسطاً، ولكنه كان نجاحاً وهذا هو المهم. عاد إلى البيت وبشّر أمه التي عانقته طويلاً وهي تبكي وتبتسم في الوقت نفسه، ثم أيقظت أباه الذي بارك له وهو يكتم أحاسيس الفرح في داخله. وقبيل العصر، انطلق إلى بيت عبد الكريم، وهو يحمل بعض أقراص الكليجا وقرص عقيل، ولكن قبل ذلك عرج على بيت نورة وطرق الباب، وعندما جاء صوت أمها تسأل عن الطارق، قال لها: «أنا هشام العابر. . . الوالدة تبلغك السلام وتقول لك إننا قد عدنا. . .»، لم تكن أمه قد طلبت منه ذلك، وكانت مغامرة أن يكذب على لسان أمّه، ولكن نجاحه منحه شجاعة غريبة جعلته يتجرأ حتى على أمه. لقد كان يريد أن تصل الرسالة إلى نورة، وهي حتماً ستصل، وهذا هو المهم وليكن ما يكون.

وفي بيت عبد الكريم، لم تكن الشلة قد أتت بعد، فجلس هو وعبد الكريم يشربان الشاي ويتحدثان ويأكلان الكليجا. ثم بدأ الأصدقاء في المجيء: عبد العزيز ثم سعود وسالم سوياً، وأخيراً عدنان الذي بدا وكأنه مومياء فاقدة لعصير الحياة، ولولا عيناه اللتان كانتا تبرقان، لكان مومياء كاملة، وقد تحوّلت البثور في وجهه إلى ندوب واضحة. تعانق الجميع وجلسوا يلتهمون الكليجا وقرص عقيل الذي جاء به هشام بلذّة وسرعة، حتى لم يكن هناك أثر لأي شيء بعد دقائق معدودة. ومع بيالات الشاي أخذوا يتناقشون في المستقبل وما هم فاعلون. لقد حصل هشام وعدنان على التوجيهية، والبقية انتقلت إلى الصف الثالث ثانوي، وما هي إلا سنة سرعان ما تمرّ، ويكون الجميع طلاب جامعة. كان هشام يعلم بالضبط ما يريد، فقد أعلن أنه يريد دراسة الاقتصاد والسياسة. كان يتمنى لو حصل على بعثة إلى أميركا أو بريطانيا للدراسة هناك، ولكن مستوى نجاحه لا يؤهله للبعثة، كما أن والده لا يعرف واسطة قوية تمكّنه من السفر في بعثة بالرغم من تدنّي مستواه. وحتى لو كان والده يعرف واسطة فهو لن يكون متحمساً، فقد كان يريد من هشام أن يدرس الطب أو الهندسة، فطوال عمره وهو يتمنّى أن يرى ولده «دكتوراً»، وكان بودّ هشام أن يحقّق أمنية والده، ولكنه لا يطيق الطب أو الهندسة، ولا يجد نفسه إلا في تلك الأشياء التي لها علاقة بالفكر والثقافة وصراع التيارات السياسية.

أما عدنان، فقد كان متردّداً لا يدري ماذا يفعل أو يختار، وقد نجح بمعدل دون المتوسط أيضاً، وليس له أمل ببعثة، فظروفه نفس ظروف هشام. كان يود لو يستطيع السفر إلى روما ودراسة الفنون الجميلة، ولكنه غير قادر على ذلك. وحتى لو كان قادراً، فوالده يضغط عليه

لدراسة «حاجة مفيدة» بدل لعب العيال الذي هو مشغول به. لذلك كان في غاية التردّد لدرجة أنه كان يفكر في عدم مواصلة الدراسة والعمل بشهادة الثانوية، فقد يستطيع أن يجمع يوماً مبلغاً من المال يمكنه من الوصول إلى روما.

كان هشام ينظر إلى هؤلاء الأصدقاء بحبٌ صاف يشعره لأول مرة منذ دخل الحزب، وقد انزاح عن كاهله الآن. حتى إساءات عدنان كانت قد أصبحت ندوباً قديمة لا ألم بها، وإن كانت آثارها لا تزال قابعة في الذاكرة. وحمد الله ذلك اليوم على أنه لم يدعُ عبد العزيز إلى الحزب بعد مناوشته الحادة مع إبراهيم الشديخي بعد خطاب جمال ذلك اليوم الذي يبدو وكأنه في أعماق التاريخ. وشعر بنوع من الألم يعصره من الداخل حين وقعت عينه على عدنان وقد كسته حلة الموت رغم بريق العينين. أحسّ أنه هو السبب في حالته هذه، فهو الذي دعاه إلى التنظيم، ولأجله وافق على الانضمام. لقد أفسد الحزب والتنظيم صداقته الطويلة البريئة مع عدنان، وهو الملوم في النهاية، فهو من دعاه وهو من نظّمه. ولكنه كان بحاجة لفعل ذلك، فقد كان يريد أن يثبت لنفسه وللحزب قدرته على الدعوة وكسب الأنصار، وأنه ليس مجرد رفيق عادي.

وتفرق الشمل قبيل المغرب بقليل، واتفقوا على اللقاء في اليوم التالي أبكر من العادة للتخطيط لرحلة يقومون بها إلى «هاف مون» أو «العزيزية» احتفالاً بالنجاح والتام الشمل من جديد.

- ٥٩ -

كان المؤذن يدعو إلى صلاة المغرب بعد خروجه من منزل عبد الكريم بمسافة قصيرة، وكان هناك بعض الأفراد يتجهون إلى المسجد والماء يتناثر من على وجوههم وهم يحثّون الخطى للوصول قبل الإقامة، رغم أن المسجد قريب وهناك متّسع من الوقت. كان على عجلة من أمره، فقد كان يريد الوصول قبل أن تأتي نورة حاملة اللبن. وقبل أن يصل إلى المنعطف المؤدي إلى الشارع الرئيسي، سمع صوت عدنان يناديه. التفت خلفه فرأى عدنان يجري وهو يكاد يتعثّر بثوبه. انتظره وهو في غاية الضيق، فهو يخشى أن تفوته نورة. وصل عدنان وهو يلهث رغم أن المسافة لم تكن بعيدة، ووقف دقائق يلتقط فيها أنفاسه، ثم قال وهو لا يزال يتنفس بسرعة وقد أخذ وجهه يتلألأ بالعرق:

ـ لقد طال غيابك يا هشام... كنت في غاية القلق عليك.

ونظر إليه عدنان مفصحاً عما يعتمل في صدره. ابتسم هشام، ووضع يده على كاهل عدنان وهو يقول:

ـ لا عليك... كل شيء على ما يرام.

كان يريد أن يتخلص من عدنان بأية طريقة، فنورة في طريقها الآن إلى منزلهم. وابتسم عدنان بسمة باهتة وقال:

ـ كنت قلقاً ولم أجد أحداً أتحدث إليه. إني خائف يا هشام... لم يبقَ سوانا.

وأحسّ بالرعب يخترقه من جديد وهو يسمع عدنان يقول «لم يبق سوانا...»، فقد نسي الموضوع أو كاد خلال الأيام الماضية، وها هو

عدنان يعيده إلى الجحيم من جديد. كان عدنان يبدو كطفل فقد أبويه في مدينة غريبة، فأحسّ بالحنان والذنب يجتاحانه في وقت واحد. حاول أن يبدو متماسكاً وهو يرسم بسمة على شفتيه ويقول بهدوء متكلّف:

ـ قلت لك إن كل شيء على ما يرام... لقد مرت أيام عديدة ولم يسأل عنا أحد. لو كانوا يريدوننا لقبضوا علينا منذ زمن مع البقية... أليس كذلك؟

كان يحاول طمأنة نفسه قبل عدنان عندما طرح السؤال الأخير.

ـ هل تعتقد ذلك؟

ـ هو ذلك... وعلى أية حال، قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا.

قال هشام وهو يسير في اتّجاه الشارع، ولكن عدنان أخذ يسير معه بصمت دون أن يستطيع منعه. وعند التقاء الشارع بالزقاق، قال عدنان بصوت خال من كل حياة:

ـ على ما عزمت؟

ـ سوف أسافر للرياض وأقدم أوراقي للكلية... ربما بعد أسبوع أو عشرة أيام على الأكثر... وأنت؟

ـ لا أدري... حقيقة لا أدري.

كانا قد اقتربا كثيراً من منزل هشام، وخاف أن يسير عدنان معه أكثر فيضطر لدعوته للدخول، فتوقف وهو يقول:

ـ أرجو المعذرة يا عدنان... لقد كلفني الوالد بأعمال لا بدّ من إنجازها، وأنا مضطر لتركك الآن. نتقابل لاحقاً. باي...

وتحرك هشام باتجاه المنزل وعدنان يقول بصفاء تلك الأيام:

ـ أعمال للوالد ولا أعمال مع جولييت. . .

وابتسم هشام وهو يلوح بيده من بعيد، ويحثّ الخطى تاركاً عدنان واقفاً مكانه ينظر إليه وهو يختفي أمام ناظريه رويداً رويداً. . .

ـ ٦٠ ـ

كانت نورة على وشك المغادرة عندما وصل المنزل، فقبل أن يدخل سمع والدته تودعها عند الباب من الداخل. لم يدخل، واختبأ بسرعة وراء الجدار المحاذي للزقاق المؤدي إلى منزل نورة. وما هي إلا لحظات، وكانت نورة قد بانت وهي تحمل وعاء اللبن الفارغ. خرج فجأة من مخبأه، فارتاعت نورة وسقط الوعاء من يدها. التقطه بسرعة ودفعه إليها وهو يقول بعجل: «الليلة. . .»، ثم سار كلاهما بسرعة في اتجاهين معاكسين.

عاد إلى المنزل، وكانت أمه لا تزال في الحديقة تحاول أن تلتقط بعض النسمات من خلال كل ذلك الماء الذي يمتلىء به الهواء. أقبل على أمه بفرح وحيّاها وقبّل رأسها على غير العادة، فيما كانت هي تردّد: «بارك الله فيك. . . بارك الله فيك»، ثم مستغربة: «لقد عدت مبكراً. . . ليست هذه عادتك أيام الدراسة، فكيف ونحن في إجازة؟!»، لم يجب واكتفى بالابتسام، وبادلته أمه الابتسامة ثم دلف إلى غرفته. كان الجو في الغرفة لا يطاق، ولكنه كان في غاية السعادة ولا يشعر إلا بذلك. وأتته أمه بعد لحظات وهي تحمل كوباً من اللبن وقد وضعت فيه قطعاً من الثلج وهي تقول: «إشرب هذا اللبن لعله يلطف الحرارة بعض الشيء. . .»، وتصنع الدهشة وهو يقول: «لبن!. . . أكيد نورة كانت

هنا؟»، «نعم... لم تغادر إلا قبل دقائق. فتاة في غاية الذكاء»، «كيف؟...»، «لقد رأت سيارة والدك ظهر اليوم أمام الباب فعرفت برجوعنا... فتاة ذكية. وجميلة وبنت ناس»، ونظرت إليه أمه وهي تبتسم، وكان يعرف ما ترمي إليه فابتسم وشرب اللبن دفعة واحدة، ثم أخذ يمتص قطعة من الثلج دون تعليق. وغادرت أمه وهي تحذّره من مصّ الثلج ومغبة ذلك على لوزه، في حين كان هو يبتسم بخبث ويردد في نفسه: «فعلاً فتاة ذكية... ذكية جداً»، وأخذ يتصوّر لقاءه معها الليلة.

ـ ٦١ ـ

ذهب إلى اللقاء وهو في غاية الإثارة والتوق، وكانت هي كذلك. ولكنه لا يدري ماذا أصابه فجأة، إذ اختفى كل ذلك التوق وكل تلك الحرارة التي كانت تتلبّسه، والإثارة التي كانت تحتله من الداخل، في اللحظة التي دخل فيها منزلها، وذلك مثل جائع أحسّ بالتخمة فجأة دون أن يأكل ودون أن يكون سبب لذلك، وقد يكون انعدام السبب سبب أعظم من أن يتصوّر أو يدرك. عندما سحبته من يده بشدة إلى ركنهما المعتاد، كانت هي البادئة بالتقبيل بجرأة لم يعهدها فيها من قبل. كانت تقبّله وهي تقول: «لم أكن أتصور أني أحبك بهذا الجنون...»، ثم تلصق شفتيها بشفتيه بسرعة وشدة بحيث كانت أسنانها تصطدم بأسنانه بشكل مؤلم. وكان يقابل قبلاتها المحمومة ببرود لم يكن هو نفسه يتصوّره، فقد كانت شفتاها في غاية الحرارة واللدونة، ومع ذلك لم يجتاحه ذلك الإحساس الذي كان يجتاحه كلّما قابلها، والذي يتوق إليه

دوماً. ولاحظت برودة شفتيه واستكانتهما رغم الحمم التي تقذفها، فابتعدت عنه وهي تنظر إليه باستغراب، ثم تسبل عينيها بدلال وهي تقول: «لم تعد تحبني يا هشام إنها فتاة أخرى... أليس كذلك؟...»، ونظرت إليه بعينيها الواسعين اللتين امتزج فيهما الدلال والقلق. وابتسم دون حماس وهو يقول، وقد امتدّ بصره إلى لا شيء: «بل أحبك أكثر من الحب نفسه... ولكن»، ولم يكمل فقد كان هو نفسه لا يعلم ما به. اقتربت منه برأسها، وأمسكت كفّه اللزجة بكفيها اللزجين وهي تقول بقلق واضح يشوبه الاطمئنان: «إذاً ما بك؟»، لم لثمته بسرعة ورقّة وهي تقول بصوت رقيق خافت: «أنت تعلم أني مدلهة بحبك... أنت نور الروح وحشاشة الكبد... قل بربك ما بك؟...» كانت مثل هذه الكلمات كفيلة بجعل رأسه يغلي، ونفسه تتحول إلى براكين مدمّرة، ولكنه لا يشعر بأي شيء من ذلك هذه الساعة. لم يكن يريد أن يقلقها، فابتسم وأحاطها بذراعه وجذبها إليه، ودون تردّد ارتمت عليه وأحاطت عنقه بذراعها وألصقت فمها بفمه بقوة وهي تغمض عينيها. لم يستطع أن يتجاوب معها، ففصلت نفسها عنه وهي تنظر إليه نظرات كان الشك واضحاً فيها، وساد سكون لا يعكره إلا غناء الصراصير في الحديقة. وبعد فترة من الصمت، نظرت إليه وهي تبتسم قائلة: «ما قلت لك؟... لقد اشتريت شلحة جديدة. هل تريد أن تراها؟»، ودون جواب منه، بدأت في رفع فستانها كاشفة عن الساق ثم أسفل الفخذ. ورغم النور الخافت، كان واضحاً فوران جسد في طريقه إلى الانفجار والنضج الكامل، مثل رطبة في منتصف تموز. ثم أمسكت بطرف شلحة حمراء مطرزة من أسفلها وهي تقول: «أليست جميلة؟...» إنه يعرف ما تريد... الاستحواذ على انتباهه، فهي لم تفعل ذلك مذ عرفها، وكانت

تمانع أن تمتد يده إلى تلك المناطق المحرمة من جسدها الفائر. نظر إليها بحب خالص وهو يبتسم، ثم أمسك بفستانها وأضفاه على ساقها، ثم عانقها طويلاً وهو يستنشق شعرها بلذة، ولثمها بسرعة ونهض فجأة وهو يقول: لا بدّ أنهم يفتقدونك في الداخل... لا بد أن أنصرف»، وغادر دون انتظارٍ لجواب منها، فيما كانت هي تنظر إليه بعينين امتزج فيهما الاستغراب والدهشة والإحباط...

ـ ٦٢ ـ

عاد إلى غرفته، بعد أن مرّ على غرفة التلفزيون وحيّا أباه وأمه، وألقى بنفسه على السرير وهو يفكر فيما حدث الليلة. إنه يحب نورة ويشعر بالشوق لها هذه اللحظة، يتمنى لو كان بمقدوره العودة، فقد كانت قبل لحظات بين يديه، ولكنه لا يدري سبباً لما حدث. نهض من السرير، واتجه إلى المكتبة وأخذ يفتش عن كتاب معين حتى وجده، وعاد إلى مكانه المعهود على الأرض حين يريد القراءة، وغاب مع فرويد في «مستقبل وهم»...

لقد كان يريد أن يجد تفسيراً لتلك الجملة التي قالها لعدنان هذا المساء بتلقائية ودون تفكير... «قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا». لقد كان يعتقد أنه قد حسم هذه المسألة منذ زمن حين اعتنق الماركسية بصفتها الفكر العلمي الوحيد القادر على الوصول إلى الحقيقة واستشراف المستقبل بدقّة. ليس هناك صدفة أو قدر، والحياة ليست مسرحية معروفة البداية والنهاية، ولا يبقى الاختلاف إلا في التفاصيل المقرّرة سلفاً. كل شيء بسبب، وليس هناك ما هو مكتوب سلفاً، هكذا يقول فكره الذي

آمن به. إنه مهدّد بالاعتقال لأنه انتسب إلى تنظيم سري، ولو لم ينتسب لما كانَ مهدّداً. إذا وشى به أحدهم فهو معتقل لا محالة، وإن لم يشِ به أحد فلن يعتقل. كل شيء بسبب. السببية جوهر الوجود. لقد طلق الميتافيزيقا منذ أن وجد ضالته في الماركسية، فكيف أفلتت منه تلك الجملة ولماذا.

وهداه تفكيره إلى أن الإنسان في أوقات الحاجة يرجع طفلاً عاجزاً يبحث عن الأب الحامي والأم الرؤوم، ويبرز الله بصفته الأب الكلي القدرة. ويتذكّر قولاً «لفولتير» لا يدري أين قرأه... «لو لم يكن الله موجوداً لوجب إيجاده»... يريد الإنسان من يكون مسؤولاً عنه في أوقات الحاجة عندما يكون كل ما هو موجود مهدّداً بالخطر، وعندما تنتفي الحاجة يريد أن يكون مسؤولاً عن نفسه مباشرة... يصبح هو الإله. إن المسألة وهم مريح ولذيذ، ولكنه يبقى وهماً... أراحته هذه النتيجة، وأرضت تساؤلاته، وشعر أنه قد وصل إلى نتيجة علمية تتفق مع ما يحمل من إيمان. وخطرت على ذهنه «المادية الجدلية» و «المادية التاريخية»، أليست هي نوعاً من «القدر» معروف البداية والنهاية ومحدد التفاصيل؟... أليست نوعاً من «المكتوب» الذي لا محيص عنه؟... وأبعد هذه الأفكار عن ذهنه متذرّعاً بعدم التعمّق الكافي في الماركسية، ولذلك يجب عليه أن يدرسها على أصولها، وهو ما سيفعله، ولا ريب أن هناك إجابات علمية مقنعة لمثل هذه التساؤلات، فالماركسية هي أقصى ما يمكن أن يصل إليه الفكر العلمي من تطوّر منهجي... وذهب لينام في فراشه مع والديه تحت هواء المكيف في غرفة التلفزيون، وهو قرير العين.

خلال الأيام التالية، كانت الاستعدادات تتمّ على قدم وساق لسفره إلى الرياض. استلم أوراقه من المدرسة، وخاط ثلاثة أثواب جديدة دفعة واحدة، واشترى غتراً وطواقي جديدة، وحذاءً جديداً وبعض الجوارب، كما أهداه والده نعالاً نجدية غالية الثمن، كان قد صنعها عند أحد الخرازين المشهورين في القصيم في رحلتهم الأخيرة.

لم تكن أمه راضية عن سفره إلى الرياض، وكانت تفضل لو أنه التحق بجامعة البترول في الظهران ويبقى إلى جانبهم، ولكنه كان مصرّاً على دراسة الاقتصاد والسياسة، ولا سياسة في جامعة البترول. ولكنها أسلمت أمرها لله، وكان ما يطمئنها هو أنه سيعيش في بيت خاله، وسيأتيهم في كل إجازة، ووعدها بدوام المراسلة.

وجاء يوم السفر... أعدّت له أمه ذلك الصباح فطوراً خاصاً لم تبق شيئاً إلا وأعدّته... شكشوكة، باقيلا، جام بطيخ، جبنة صفراء وبيضاء، خبز تنور هولي، بيض مقلي ومسلوق... وجلست معه طويلاً تسدي إليه النصائح حول الابتعاد عن رفاق السوء والأماكن المشبوهة والعادات السيئة والسياسة وما حرّم الله، وهي تكرّر أثناء ذلك أنها تعلم أنه «ولد عاقل» ولا يمكن أن يفعل ذلك، ولكن الحذر واجب. وبعد الإفطار منحته مائة ريال هدية نجاح. وقبيل الظهر، جاء والده من العمل ليقلّه إلى محطة القطار، وكانت أمه في غاية الهدوء وهي تودعه... قبّلته على وجنتيه، وقبّلها على جبينها، ثم غادر حاملاً حقيبته السوداء الضخمة ودعوات أمه التي لا يسمعها تصل إلى أذنه الداخلية. كان عدنان وعبد الكريم هناك على المحطة عندما وصلا والناس في حالة صراع عند

شباك التذاكر، والزحام على أشدّه على الرصيف. لم يتركه عبد الكريم يزاحم المزاحمين، أخذ النقود من والد هشام وألقى بنفسه في زحام شباك التذاكر. وما هي إلا دقائق، وعاد بتذكرة في الدرجة الثانية وهو يبتسم وقد سقطت غترته من على رأسه، وكان وجهه يلمع بشدة من كل ذلك العرق المنساب. وأعطاه والده ثلاثمائة ريال مصروفاً حتى يستلم أول «مكافأة» من الكلية، كان هشام فرحاً بها كثيراً فسوف يشتري كل ما يريد بهذا المبلغ الكبير، خاصة وأنه لن يكون مسؤولاً عن مصاريف الطعام والشراب والسكن. وضع حقيبته في عربة العفش، ثم قبّل أبيه على جبينه، وعانق أصحابه، ثم ركب القطار مزاحماً أفواجاً من البشر برائحة مميزة، جعلتها الرطوبة شيئاً مختلفاً عن أية رائحة يمكن شمّها في أي مكان آخر. وعندما استقر في المقعد الذي صارع عليه، ألقى نظرة من نافذة القطار حيث والده وصاحباه. وعندما تحرك القطار، أشار لهم مودعاً، وهو يملأ عينيه من أبيه الذي كان يراقب القطار الذي يحمل ولده إلى المستقبل، وربما المجهول... لا فرق...

وبدأت مباني الرياض تلوح من نافذة القطار من الدمام، وذلك مثل حلم عديم الملامح في قيلولة يوم من أيام الصيف. لقد تضافر سراب ذلك اليوم من آب، مع عواصف الرمل التي تثيرها أنفاس جن الدهناء لتجعل الرياض تبدو من بعيد وكأنها...

نهاية الجزء الأول

ألفاظ محلية

بيالة: كأس شاي صغيرة، بعروة في جانبها، وتسمى «اسكتانة» في بعض دول الخليج.

داعوس: زقاق، تستخدم في الخليج غالباً.

غدفة + شيلة: خمار يغطي الرأس والكتفين والصدر، تستخدمان في نجد.

بوشية: مثل الغدفة والشيلة تقريباً، وتستخدم الكلمة في الخليج.

بطولة: نوع من البراقع يستخدم في منطقة الخليج.

صفة: غرفة سفلية.

روشن: غرفة علوية.

برج: مكان قضاء الحاجة.

طاية: سطح المنزل.

غترة: غطاء الرأس في السعودية والخليج، يسمونه منديلاً في الشام.

مرقوق: طبق محلي من عجين الحنطة التي تقطع إلى قطع صغيرة، ثم تفرد وتطبخ مع اللحم والخضار والطماطم.

مطازيز: ذات المرقوق ولكن بقطع مستديرة وسميكة.

جريش: حنطة مجروشة تطبخ مع اللحم والخضار.

قرصان: خبز رقيق تصب عليه مرقة اللحم والخضار، وهو الثريد غالباً.

كبسة: أكلة شعبية من الأرز واللحم المطبوخين بمرقة الطماطم.

عقود: مرقة المرقوق والمطازيز قبل أن يلقى فيها العجين.

مصابيب: قطع صغيرة من العجين تخبز على الصاج، وتأكل عادة مع الزبدة، وهي شبيهة «بألبان كاين».

قفر: لحم مجفف، قديد.

قرص نار: رغيف خبز كبير، يخبز تحت الرمال الحارة من أثر النار.

كليجا: قرص من دقيق القمح، أو النخالة، مع السمن والسكر والليمون الأسود وحب الهال، يطلى بالدبس وحبات الهال من داخله بعد النضوج.

قرص عقيل: نوع من الكعك يصنع من دقيق القمح والسمن والسكر، ويخبز في الفرن. كان العقيلات يأخذونه معهم في رحلاتهم.

باقلا (باجلا): حبات الفول الكبيرة المطبوخة.

شكشوكة: بيض بالطماطم.

جام: مربى.

قريض: مكسرات، وخاصة الحمص المحمص (القضامة).

غبق: معقد، صعب.

حنبل: بساط.

تمطق: تلمض بصوت مسموع.

بلوت: لعبة ورق محلية.

تبي: تريد، ترغب.

الشرهة عليك: أنت الملوم، الشرهة: الملامة، وفي بعض الاستعمالات، الشرهة: العطية بدون مقابل.

كشتة: رحلة، «بيكنيك».

الرمث: نوع من الحطب.

السمر: نوع من الحطب الجيد.

قدحة، وجمعها قداح: حروق صغيرة في اليد تفعل عمداً للاعتقاد أنها تجعل اليد أكثر ثباتاً، وذلك بوضع قطعة قماش صغيرة أو ما شابهها، على المكان المراد ثم إشعالها، وتحمل ذلك حتى تنطفى النار من ذاتها.

سنة السبلة: هزيمة الإخوان في المعركة ضد الملك عبد العزيز عام ١٩٢٩.

المحكمة: حيث يجلس الضيف أو كبير السن، وهو صدر المجلس قريباً من الوجار حيث معد القهوة والشاي.

سعابيل: لعاب.

ماصة: طاولة.

زمزمية: وعاء تحفظ به السوائل الحارة عادة للحفاظ على حرارتها.

طرثوث: نبات صحراوي ينمو عشوائياً بعد الأمطار، على شكل عصاً غليظة تبزغ من الأرض شيئاً فشيئاً، وتسميه العامة «قضيب» الأرض.

خبي: نسبة إلى «خب» وهو القرية الصغيرة الواقعة في واحة بين كثبان الرمال.

جيب غراب: منطقة رملية وعرة بين الرياض والقصيم.

نفنوف: فستان، وتستخدم الكلمة في الخليج.

المقلط: غرفة الطعام.

الشبة: اجتماع دوري بين مجموعة من الأصحاب، ويكون في الليل عادة.

معاميل: أدوات الطبخ وعمل الشاي والقهوة ونحوها.

الدواب: الزواحف الضارة، وخاصة الأفاعي والعقارب.

الأرزاق: المؤن.

مهفة: مروحة يدوية.

بادية: وعاء عميق توضع به بعض الأكلات الشعبية.

الدركسيون: مقود السيارة.

«العدامة»، قصة شاب ينفتح على العالم في مرحلة أساسية من حياة السعودية: ١٩٦٧ ـ ١٩٧٥. وتجربة بطل «العدامة» تجربة شاب محليّ تعكس المكان الذي صدرت عنه وتنقل تناقضاته، لكنها في الوقت نفسه تجربة كونيّة تخاطب هموماً إنسانية، عامة.

فكيف لطالبٍ صغير أن يكتشف القومية العربية القريبة والبعيدة في آن، الواعدة وذات الشعارات الصارخة معاً؟

وكيف له أن يكتشف جسده والجنس قريبين جداً كأنهما متاحان جداً، وبعيدين جداً كأنهما ممنوعان إلى الأبد؟

إنها قصة فرد في مدينة، ومدينة في جيل، والثلاثة يسألون عن سرّ العالم. وهذا السؤال، وجوابه، هما ما تنقلهما كاملين ثلاثية «أطياف الأزقّة المهجورة» التي تشكّل «العدامة» أوّلها السردي، ومدخلها المفهومي، في الوقت نفسه!

ISBN 1 85516 376 4

